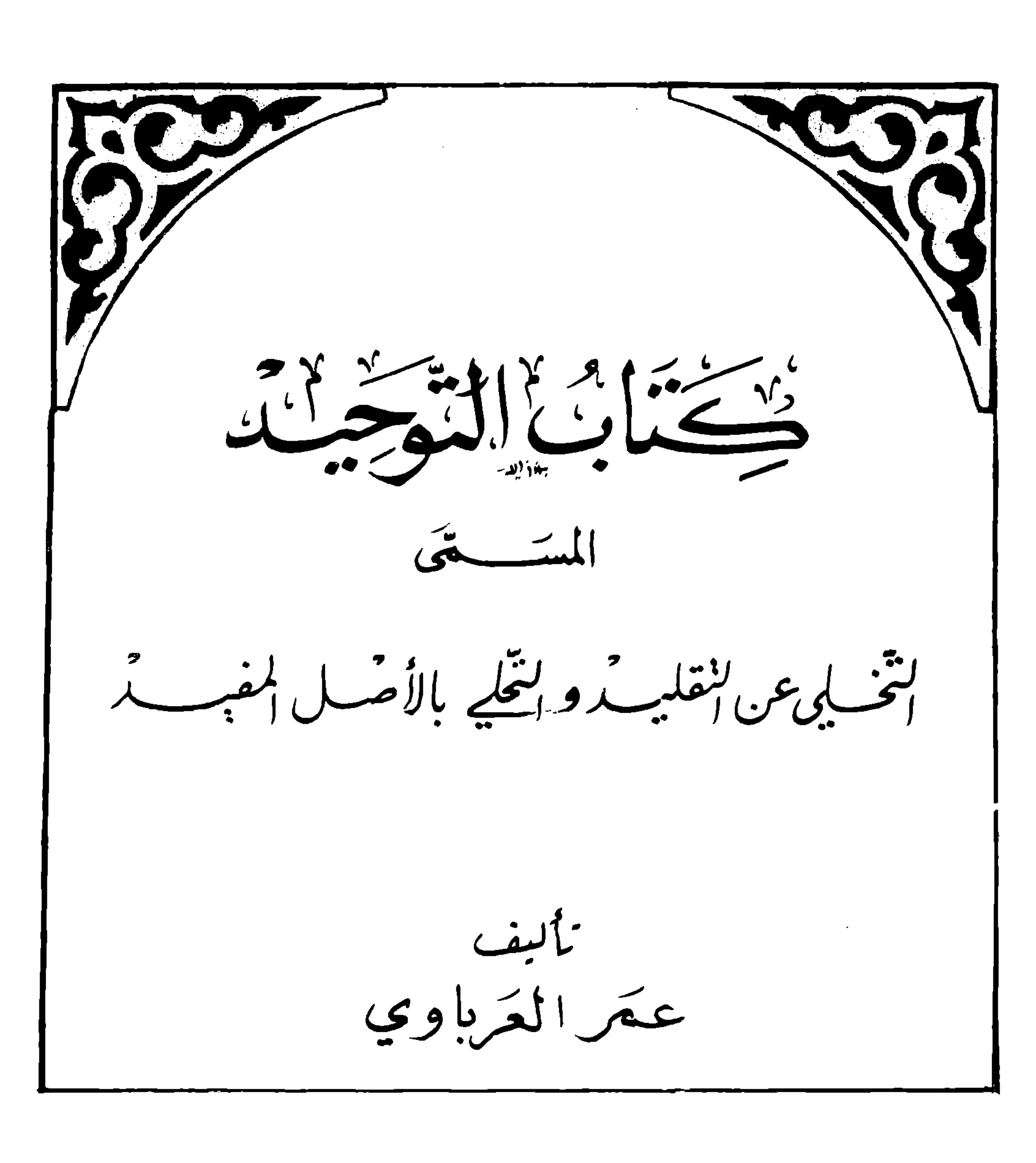


كتاب التوحيد

المسمى

التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد

تأليف

عمر العرباوي

رمضان 1404 هـ الموافق لجوان 1984

كِتَابُ التَّوحِيدْ

المسَمَّى

التَّخلي عن التقليدْ والتَّحلي بالأصْل المفيدْ

تأليف

عمَر العَرباوي

أهدي هذا الكتاب الى أرواح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين جاهدو في هذا الوطن ، في سبيل العقيدة السلفية الصحيحة فنشروها فيه وأزالو عنها ظلام الجهل المتراكم عليها عدة قرون وأخلصوها من شوائب الوثنية والبدائع والخرفات فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا .

عمر العرباوي

دعاء الاستفتاح

ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فلك الحمد دائما وأبدا حمداً يوافي نعمك ويكافيء مزيدك عدد خلقك ورضى نفسك وزينة عرشك ومداد كلماتك .

وصلّ يارب وسلم وبارك أفضل صلاة وأزكى سلام وأعظم بركة على عبدك ونبيك ورسولك أشرف الخلق ، ورسول رب العالمين ، المؤيد بالحق والصدق سيدنا محمد وآله وأزواجه وذرياته الطيبين الطاهرين ، وأصحابه كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم ، وعلى آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ..

آمين

كتب للمؤلف

- الإعتصام بالاسلام

- كتاب التوحيد المسمى بالتخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد

بسم الله الرحمن الرحيم
نصائح أقدمها إلى الشباب المسلم

من الاشياء التي حار فيها المفكرون والعقلاء ، واندهش لها الجميع هو إنحراف بعض الشباب الجزائري من بعد الاستقلال عن مباديء الاسلام .

كان الشعب متمسكا بـه ومعتمـدا عليـه في حرب التحرير فبرزت الخصائص الاسلامية فيها سليمة لم تتأثر بما لابسها من سيطرة الاستعمار طيلة قرن وربع ، فكان الايمان بالله يحدو المجاهدين الى ساحة القتال فظهرت الشجاعة النادرة والبطولة الخالدة ، والوحدة الشاملة وكل المميزات الاسلامية التي كانت لأسلافهم الأمجاد من إقدام وتضحية في سبيل الله ، وثبات، ورحمة بالضعفاء أدى فيها كل مواطن واجبه الديني وهو الذي كان سببا في نصرته على الاستعمار ..

ولما تم الانتصار على العدو وطُرد من البلاد ، أخذ الجزائريون زمام الحكم بأيديهم ، ولكن سرعان ما تنكر بعض الشباب للدّين ولعوائده وأخلاقه ، وقطعوا صلتهم به ، لعبت المادة والشهوات بعقولهم فراجت موجة ناتجة من الالحاد كادت أن تعم طبقات الشعب ، وأصبح الإسلام يتهم بالرجعية والتأخر واختلط الذكور بالاناث في العمل والدراسة ، وفتحت على مصراعيها للافكارالهدامة والاباحية المطلقة ، فتحوّل المجتمع الى مجتمع غربي في عوائده ولغته وأخلاقه ، وأصبحنا في كل يوم نرى تدهور الشباب نحو الرذيلة والفساد ، لأنه لايريد الا الهوى المضلل . واطلاق العنان لشهواته العارمة التي لاتعرف الحدود .. وترك الأخلاق الفاضلة التي كانت لأجدادهم وأسلافهم والتي حفظت المجتمع الجزائري منذ فجر التاريخ الى الثورة المظفرة الكبرى فبهذه الأخلاق الحميدة برز المجاهدون الابرار ورأينا قانون الاسلام هو السائد على البلاد كلها ..

الاستقلال معناه استرداد مقومات البلاد الأساسية ، من بعد ما غادرها الاستعمار ، ومقومات هذا الوطن هي الاسلام لاغير ، والشعب منطوي على كثير من هذه المقومات لأننا شاهدنا أيام حرب التحرير كيف برزت فيه هذه المقومات .

أيها الشباب ان أول حجر تبني عليه مستقبلك هو الايمان ، والايمان متعدد الجوانب :

أولا : الايمان بنفسك على أن فيك استعدادا لونميته لكنت ذا قوة فعالة ، فيك استعداد للتفكير والارادة .

الايمان بمجتمعك على أنك عضو منه ، وهو متكفل برعايتك ، يتطلب منك كيف تنظر الى غيرك ، على أنه شريك لك في الحياة ؟ الايمان بمجتمعك يتطلب منك أن تتعلم كيف توجّه طاقة الحماس ، وقوة الشباب في سبيل الخير والعون لمجتمعك ، الايمان بالوطن على أنه الدار التي تسكنها ، لانه الحمى الذي تحتمي به من أحداث الزمن . الايمان بالله عز وجل ، فتعاليمه هي التي ترشدك كيف تؤمن بنفسك وبمجتمعك وبوطنك ؟ فبالايمان بالله تسير على هدى وبصيرة من أمرك . الايمان بالله يدفعك الى الأمام فتنكشف لك سبل الهداية .

أيها الشباب ، انك في بداية الطريق من هذه الحياة ، وفي بداية أمرك من تحمل المسؤولية ، فإن لم تستعن بالله فسوف يضعف أمرك ، وأنك - بدون شك - ستتطلع الى المستقبل كيف تكون ؟ وما يدريك لعلك أن تكون قائد جيوش ، أو مسئولا كبيرا في الدولة ، أو عالما متبحرا في العلوم والفنون ، أو فيلسوفا مقتدرا على حل المشاكل ، أو مخترعا ، الى غير ذلك من الطموحات ، ولكن هذه المناصب كلها اذا كانت بدون ايمان بالله فانها تضر أكثر مما تنفع ..

الشباب في كل زمان ومكان يضرب الأمثال الرائعة في الحياة ، فهذا أبو الانبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ينفتح قلبه على الايمان بالله في بداية شأنه ، فينكر عبادة النجوم والقمر والشمس ، وعبادة الاصنام التي كان

قومه يعبدونها من دون الله .قال تعالى متحدثا عنه : ﴿ **فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم : اني بريء مما تشركون ، اني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ (سورة الانعام) .

ولما تمكن الايمان من سيدنا إبراهيم عليه السلام أبرز قوته في تحطيم أصنام قومه ، قال تعالى :

﴿ **وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا آنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقونْ** ﴾ (سورة الانبياء) .

وكان سيدنا يوسف عليه السلام شابا تعرض للمحن والتجارب القاسية الشديدة فخرج منها طاهرا نقيا ، ويقص علينا القرآن مجموعة من الشباب المؤمن وهم أهل الكهف فقال تعالى : ﴿ **انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلاهاً لقد قلنا إذا شططا** ﴾ (سورة الكهف) .

يجب اصلاح الشباب عن طريق الدين والاخلاق الفاضلة ..

أيها الشباب ، اذا أردتم أن يرجع اليكم مجدكم وتصان كرامتكم ، فتمسكوا بفضائل أجدادكم وخذوا من كل أمة من أمم الأرض أحسن ما عندها من علم واتحاد وصناعة وأدب ، وانبذوا كل ما كان لها من رذيلة وفساد ، واعلموا أنه لابقاء لأمة مهما عظمت قوتها وعلت كلمتها ، واشتد سلطانها إلا إذا

تمسكت بالايمان بالله والعدل والحق ، وحافظت على أخلاقها التي لابقاء لها إلا بها ..

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ (سورة الانفال) .

الحياة هي النهضة بأشمل معانيها ، فتشمل حياة الفرد وحياة الجماعة ، انها حياة من واهب الحياة الخالدة.ان الدعوة الاسلامية دعوة عامة الى الحياة الحقيقية ، فالدين هو الذي يدفع الأمة في اتجاه التقدم ، والدين هو صانع الحضارات ، ما من حضارة قامت في الشرق أو في الغرب إلا على أساسه ، وسيضل هذا شأن الانسانية في كل زمان ومكان ، ولهذا كانت عقيدة المؤمن حياة بعد ممات ورزقا وفرحا بفضل الله ، ولم يكن الموت عدما بل هو معبر الى رضوان ، ونعيم مقيم خالد ..

يجب على الشباب أن يحيوا قلوبهم بمواعظ القرآن ويثيروها بالتفكير في ملكوت السماوات والأرض ، وفيما خلق الله من الأشياء التي لاتعد ولاتحصى ، ويقووها باليقين ويذللوها بالموت ويشعروها بالفناء ، ويذكروها بفواجع الزمن ..

أيها الشباب : ﴿ **ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور ، ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾ (سورة فاطر) .

الذين يؤمنون بالله ويعرفونه حق المعرفة كالملائكة قالوا : ﴿ **سبحانك لاعلم لنا إلاّ ما علمتنا ...** ﴾ ، وانظروا الى خليل الرحمن كيف يطلب ربه بأدب وتواضع : ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ وقال الرسول « ﷺ » : « ما منكم من ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمته » ، وانظروا كيف صاغ الايمان الشباب المسلم في صدر الاسلام ، روى عن جابر رضي الله عنه ، قال : « **قال رجل من مقاتلي غزوة**

بدر : أين أنا يارسول الله ان قتلت ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات كن في يده ، وقاتل حتى قتل » ، فقد استطال الوقت الذي يأكل فيه التمرات ..

وهذا أعرابي يحضر مع رسول الله « ﷺ » في احدى الغزوات ثم يعودون بالغنائم فيعطي للاعرابي نصيبه من الغنيمة ، فيتعجب ويقول : كلا ، ما على هذا اتبعتك ، أنا آمنت بك على أن أحارب في سبيل الله ، فأرمى بسهم هنا ، وأشار إلى نحره ، فأقتل فأدخل الجنة . فلما كانت الغزوة المقبلة قاتل الاعرابي فيها فرمي بسهم فقتل . فلما رآه الرسول ﷺ قال « **صدّق الله فصدقه** » !

وهذا سيدنا عبد الله بن جحش يرفع يديه الى السماء ، ويقول اللهم اني أقسم عليك أن ألقى الاعداء غدا فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ويجدّعوا انفي وأدنيّ : ثم تسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك يارب . هذا الصحابي الجليل لايطلب السلامة من خطر الحروب ليركن الى المذلة بل يدعو مخلصا إلى الاسلام ، فإذا تعذر السلم خاض غمار الجهاد ليقتل أبشع قتلة ليلقى الله وهو قرير العين .

أما سيدنا نعيم بن مالك ، فقد جاء إلى الرسول ﷺ فقال : لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها . قال رسول الله ﷺ : « وبم ؟ » قال : بأني أحب الله ورسوله . ولا أفر يوم الزحف .. قال رسول الله ﷺ « صدقت » . واستشهد يوم أحد .

وهذا سيدنا حنضلة بن أبي عامر رضي الله عنه الذي زُفّ اليه عروسه ثم سمع المنادي : يا خيل الله اركبي . فانتزع نفسه من الفراش وقام ليأخذ مكانه في صفوف المجاهدين ، وقاتل حتى استشهد ، فلما انتهت المعركة طلب رسول الله ﷺ زوجته وقال : « **حدثيني عن آخر عهد بحنضلة** » ، فأجابته المرأة : كان بيني وبين حنضلة ما يكون بين الرجل وزوجه ، ولما سمع الهيعة نهض مسرعا قبل أن يغتسل ، فقال

رسول الله ﷺ : « **لقد رأيت الملائكة تغسّله في صحاف من الفضة بماء المزن بين السماء والأرض** » .

هذه مبادىء الاسلام فعلت مفعولها في القلوب المؤمنة للصحابة وغيرهم من التابعين واللاحقين ، أما المسلمون الحاضرون فقد تنكروا للاسلام ونبذوا أوامره وراء ظهورهم ، وأصبحوا يلهثون وراء المبادىء الوضعية يطبقونها على مجتمعاتهم وسيطر على حياتهم الجهل ، وقد نسوا أنهم مطالبون بالتوحيد وتطبيق الشريعة الغراء بكاملها ، وان اختلفوا فواجب عليهم أن يردوه الى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فالمسلمون اليوم لايعبرون عن الاسلام لا من قريب ولا من بعيد ، هم في ناحية والاسلام في ناحية أخرى .

وأنا أخاطب الشباب أينما كان وحيثما وجد بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله الكريم « صلى الله عليه وآله وسلم » ويترك تقليد الأجانب أعداء الدين ويتبع طريق السلف الصالح في عقيدته الراسخة ، وسلوكه القويم ، والحفاظ على تراثه المجيد .

وإني أقدم تأليفا متواضعا في العقائد الإسلامية السلفية الى الشباب المسلم ليتسلح بالتوحيد الخالص والايمان العميق لعله يجد فيه ما يشفي غليله لأنه مدعم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأقوال العلماء المجتهدين أمثال : ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية ، عبد الحميد بن باديس ، والغزالي ، وغيرهم كثيرون رضوان الله عنهم .

المقدمة

الحمد لله الذي شيد منار الدين وأعلامه ، وأوضح للخلق شرائعه وأحكامه ، وبعث صفوته وخصائص أوليائه المصطفين لتبليغ رسالته بواسطة أنبيائه يدعون الى توحيده وترك ما خالفه من الملل لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وختم الدعوة بنبينا محمد ﷺ سيد المرسلين ، وفضله على من سبق غيره من الأولين والآخرين ، وجعل شريعته مؤيدة إلى يوم الدين ، ووكّل بحفظها من الصحابة والتابعين ، من تقوم بهم الحجة ، وترتفع بقولهم الشبهة ، وهم الفقهاء الذين ألزمهم حراسة شريعته ، والتفقه في دينه ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ (سورة آل عمران) .

هذا كتاب التوحيد مأخوذ من الكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح وقد سميته : « **التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد** » .

للمؤلف : **الشيخ عمر العرباوي**

التعريف بالتوحيد

التوحيد هو افراد الخالق بالعبادة ذاتا وصفة وأفعالا ، والتوحيد أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده ، وأول منازل الطريق للسالك إلى الله عزّ وجلّ .

ولا يقوم صلاح الانسان إلا إذا عرف الله سبحانه وتعالى الذي يحقق للإنسان ما يحبُّه ، ويدفع عنه ما يضره فالله لاشريك له هو وحده خلق الكون ، فلا معبود سواه ، والاله هو الذي يؤلّه أي يعبد محبة وإنابةً ، وإجلالا وإكراما . لايطلق هذا الاسم إلا على الله سبحانه وتعالى ، وحده ويكون من اختصاصه ، ومعناه أنه لاثاني له ، فهو نفي العدد عنه ، لاشريك له ، ولاتبعيض ولاتقسيم ، ونفي الأنداد عنه والصاحبة والولد ، والأشباه والأضداد .

التوحيد هو الذي يعصم (نفس المسلم من الهلاك في الدنيا ، وينجيه من الخلود في النار يوم القيامة ، ويعتقد المسلم اعتقادا جازما أن الأفعال كلها صادرة مُن الله وحده ، فله التصرف المطلق التام . والتوحيد يكون محله القلب ، وعلامته الانقطاع إلى الله ، والتوكل عليه ، وأن جميع الخلق في قبضته وتحت قدرته وإرادته ، لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه ، الخلق ليس بأيديهم شيء من الأمر . لايرى المؤمن الموحد في الوجود إلا الله وحده .

محبة العبد لربه : إن محبة العبد لربه تكون على درجتين : إحداهما المحبة العامة التي لايخلو منها كل مؤمن وهي واجبة . والثانية وهي المحبة الخاصة التي ينفرد بها (العلماء) الربانيون ، وأولياء الله الصالحون ، والاصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ، **فإن سائر مقامات الصالحين :** كالخوف ، والرجاء ، والتوكل وغير ذلك مبنية على حظوظ النفس ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه ، وأن الراجي إنما يرجو منفعة نفسه بخلاف المحبة فإنها من أجلِ المحبوب فليست من المعارضة في

شيء ، والمحبة هنا مرتبطة بالخشية فكلما زادت خشيتنا من الله ازددنا تقربا منه وحبًّا له وتعلقا بأوامره تطبيقا وبنواهيه انتهاء ...

اعلم أن سبب محبة الله معرفته ، فتقوى المحبة على قدر قوة المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين ، وكلاهما إذا اجتمعا في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال : وهنا يبدو له جمال الله وحسنه ، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع مثل جمال الله في حكمته البالغة وصنعته البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار التي تروق العقول وتبهج القلوب ، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار ، وأما الإحسان فقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر ، ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ سورة إبراهيم . ويكفيك أنه يحسن الى المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره ، فهو في الحقيقة منه ، وهو المستحق للمحبة وحده ، واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجدّ في طاعته والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته والرضا بقضائه والشوق إلى لقائه ، والانس بذكره ، والاستيحاش من غيره ، وخروج الدنيا من القلب ومحبة كل من يحب الله ، وإيثاره على من سواه .

فهذه هي الغاية المطلوبة والسعادة المنشودة التي بها سعادة الخلق في الدنيا والآخرة ، لا شيء أحب اليهم في الدنيا كالإيمان به ، ولاشيء أحب إلى الناس في الآخرة كالنظر إلى وجهه الكريم ، فمن أعرض عن هذا التوحيد ﴿ **فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ (طه) .

فالتوحيد هو إفراد الله بالعبادة . قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾ (سورة الذاريات) .

اعــراض المسلمين عن القــرآن

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (سورة ص) .

القرآن نور وهدى للناس ينير لهم طريق السعادة . ﴿ **كتاب أحكمت أياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ أوحاه الله إلى رسوله الكريم ﴿ **ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ (سورة هود) .

القرآن هو دعوة ربانية موجهة للانسانية عامة ﴿ **وما أرسلناك إلا كآفة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾ (سورة سبأ) .

القرآن علاج القلوب المريضة المزمنة ، والنفوس المضطربة الحائرة ، والمجتمعات المنحرفة الضآلة عن طريق الحق والصواب قال تعالى : ﴿ **ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ (سورة يونس) سار المؤمنون على هديه فحققوا السعادة لأنفسهم في الدنيا والآخرة ، وفازوا برضوان وجنة النعيم .

هذا القرآن فيه تبيان كل شيء للناس لكيلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير ، وإنه بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وتحذير الكافرين والفجرة العصاة المعرضين عن القرآن بأن لهم عذابا أليما .

القرآن كله حسن وأحسن منه ما يكشف للقلوب من العجائب لمن يلقي السمع عن طريق الفهم والإستنباط .

تناول القرآن حياة الإنسان من جميع جوانبها منذ نشأته إلى دخوله الجنة أو النار . فهو القوة الفعالة التي اعتمد عليها رسول الله صلى عليه وسلم في هداية الناس .

القرآن معجزة الدهر عجز الناس كلهم على أن يأتوابمثله أسلوبا وبلاغة وحكمة وتشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، وإخبارا بالغيب . قال تعالى :

﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (سورة الاسراء) .

كان الناس قبل نزول القرآن في غفلة تامة وجهالة شنيعة عن معرفة الخالق إلا ما كان من بعض الأفراد القلائل ...

جاء القرآن فعرف الناس دلائل التوحيد ، وما يجب لله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته وما يستحيل عليه من أضدادها .

كانت العقول والأفكار مقيدة فلم تستطع أن تفهم ما في هذا الكون من الأسرار والحكم ، فجاء القرآن محررا لها من القيود ، وأعطى للعقل حريته في النظر والتفكير والتأمل في عجائب هذا الكون .

كان الناس قبل نزول القرآن فرقاً وشيعاً ومذاهب وأحزاباً يعبدون آلهة شتى فقال لهم القرآن ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾ ، والاسلام هو دين التوحيد في هذا الوجود ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ...** ﴾ (آل عمران) .

القرآن جاء مصححا لعقيدة التوحيد ، وبالنظام الشامل لحياة الناس في كل شأن من شئونهم ، بل في كل مايحتاجون إليه من الغيبيات ، وما تدركه حواسهم من المحسوسات سواء إتصلت بالدنيا التي نعيش فيها ، أو الحياة الأخرى التي نحن مقبلون عليها .

كلّف الله نبيّه الكريم بتبليغ هذا الكتاب المقدس للناس فبلغه كما أمر ، وطبقه على نفسه أحسن تطبيق ، وأقام على أساسه خير أمة ، وأفضل مجتمع ، وأعدل دولة عرفها الناس في تاريخهم الطويل ، فأصبح هذا الكتاب الرباني دستورا للأمة الاسلامية التي احتضنته بكلتا يديها ، كما قال الشاعر المسلم :

دستور القرآن لا ما صاغه متفلسف حنق وفكر عبقري
كم تحدى المفلقين بيانه كم هز في اعجازه من منبر
شهد العدو بصدقه وجماله خير الشهادة ما أتى من منكر

هـو منهـج صـادق إذا مـا ذقتـه   تحلـو الحيـاة فليس أيٌّ مكـدّر
فهـو الضيـاء لنـا وفيـه حيـاتنـا   يهـدي الى النجـاح القـويم الأنـورِ

وإذا تأمل المسلم هذا الدستور الكامل وجده ، يأمر بعد توحيد الله ـ بإقامة العدل بين الناس ومساواتهم في الحقوق والواجبات ، ولاتفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح ، ويحث على الاتحاد ، وعدم الشقاق ، ومحو الحقد والحسد من القلوب ، والتمسك بهذا الدين المتين لأنه هو الدين الوحيد لجميع الناس .

قال تعالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه** ﴾ (سورة الشورى) .

كوّن هذا الكتاب الرباني أمة عظيمة ، وأودع بين يديها الأمانة العظمى أمانة تبليغ الرسالة السماوية إلى الناس كافة ، وإلى مشارق الأرض ومغاربها ليكونوا جديرين بعبادة الخالق المعبود .

فإذا الأمة العربية تنطلق من الصحراء بغتة ، وتبرز فجأةً على مسرح الحياة بعد خفاءٍ مهين ، فحملت هذا النور الربّاني فبددت به ظلمات الكفر والشرك والجهل المخيّم على عقول الناس .

بماذا فضل المسلمون على سائر الأمم في القديم ؟ وبماذا فضل دينهم على سائر الأديان ؟ فضلتم بمعجزة الدهور ، وآية العصور بكتاب الله ﴿ **الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (سورة فصلت) فإن جعلتموه ـ أيها المسلمون بين أيديكم كان قائدا لكم الى السعادة والحرية وفي الدار الآخرة إلى مغفرة من الله ورضوانه ، وإن جعلتموه وراء ظهوركم رجعتم إلى الجاهلية الجهلاء وتفقدون ما بوأكم به القرآن من العزة والكرامة والسيادة والمنزلة القصوى ، ويستولي عليكم الذل والخزي في الدنيا وفي الآخرة تصيرون إلى جهنم وبئس المصير .

كيف لا يكون القرآن هكذا ؟ وإنه لكتاب الهدى وسفر السعادة ، وقانون الفضيلة ، ودستور العدالة في كل زمان ومكان .

لـو تـدبر المسلمـون القرآن وعملـوا بمـا فيــه لَسَيّرهُمْ سعــداء في أنفسـهم وأهليهم . ولو وقفوا تحت رايتـه لسمـوا سمـو المجـد والعـلاء ، وتبـوءوا مكان الشرف والعزة ، ولو أنهم حـافظوا على أوامره لأضـاءت لهم المسـالـك ، ولما اختلفوا على أنفسهم حتى أصبحوا هـالكا إثر هـالـك يستعبـدهم مـالـك بعـد مالك ، ويذيقهم العذاب فاتك بعد فاتك .

يا معجبين بالمدنية الغربية والتقـاليـد البشرية فكروا قليلا فإن هـذه المدنية التي اعتنقتموها لم تقدر على سعـادتكم وانما يسعـدكم اللجوء الى الـدين الحنيف المنزَّل من السماء ، سـار المسلمـون ـ في العصر الحـاضر ـ في ركاب المدنية الغربية ، ونبـذوا أوامر قرآنهم وراء ظهورهم . وأطلع الله رسولـه على حالـة المؤمنين من بعـده من خلال الغيب فشكى إلى ربـه بقولـه عز وجل :
﴿ **وقـال الرسول يـارب إنَّ قومي اتخـذوا هـذا القرآن مهجـورا** ﴾
(سورة الفرقان) شكى رسول الله ﷺ إلى ربـه من أن قومـه الـذين أرسل اليهم بالقرآن ليتلوه عليهم قد صُدوا عنه وتركوه وثبتوا على تركـه وهجره ، وفي شكوى النبي ﷺ لربـه من هجر أمتـه للقرآن دليـل على أن ذلـك من أصعب الأمور عند الله وأبغضها اليه ، وفيه تهديد ووعيد شديدين لمهاجري القرآن بإنزال العقاب بهم .

نحن المسلمين قـد كان منـا هجر كبير للقرآن الكريم منـذ زمن طويـل ـ وان كنا بـه مؤمنين . بسـط القرآن عقـائـد الإيمـان كلهـا بـأدلتهـا العقليـة القـاطعـة فهجرنـاهـا ، وبيّن القرآن لنـا أصول الأحكام ، وأمهـات مسـائل الحلال والحرام ، ووجوه النظر والإعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح العام والخاص فهجرناها ، وبيّن القرآن مكارم الاخلاق ومضـارهـا ، وبيّن السبيل للتخلي عن هـذه والتحلي بتلـك مما يحصل بـه الفلاح بتزكيـة النفس ، والسلامة من الخيبة بتدسيتهـا فهجرنـا ذلـك كلَّـهُ ، وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ، ونبهنا على مـا فيـه من أسرار الحكمـة ومصـادر النعمة لننظر كي نستفيد ونعمل فهجرنا ذلك كلـه ، ودعـانـا القرآن لتـدبره وتفهمه والتفكر في آيـاتـه ، ولايتم ذلـك إلاّ بتفسيره وتبيينـه فـأعرضنـا عن ذلـك مـع أنّ المسلمين يحسبـون أنفسهم أنهم في خـدمـة القرآن قـال تعـالى :

﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل اليهم** ﴾ (سورة الحجر) وكذلك سنة الرسول ﷺ القولية والفعلية تالية للقرآن عاملناها بما عاملناه ...

هذا التفسير مأخوذ من مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس طيب الله ثراه وجعل الجنة منقلبه ومثواه .

أيها المسلمون إن العمل بالقرآن الكريم واجب وتطبيق أحكامه ، والتدبر في آياته فرض على كل مسلم ومسلمة لأنه أمر الله لعباده ، ورسالته المبعوثة إليه ، فمن لم يقرأ ويتدبر القرآن فقد استهان برسالة ربه ، واستهان بمن أرسلها ، ولينظر المعرض عن كتاب الله عمن أعرض ومن يقاطع ؟ ومع من يسيء الأدب ؟ وبرسالة من يستخف ؟ انها رسالة ربه ومولاه فينبغي قراءتها بما يناسبها من الاجلال والاحترام والإنصات قال تعالى : ﴿ **وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً** ﴾ (سورة مريم) وقد وصف الله قلوب الذين لايتأثرون بالقرآن ، ولايخشون آيات الله ، ولاتلين قلوبهم الى ذكر الله بالقساوة فقال : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ (سورة الزمر) .

فالويل لمن نأى عن النور الذي يهديه ويجلو عن بصيرته ظلام الشرك والكفر ، والويل لمن لم يحذر ما يشقيه إذا خيم عليه ظلام الجهل فلم يعرف الحلال من الحرام فيسقط في حمأة الاثام قال تعالى : ﴿ **وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ..** ﴾ (سورة الأنعام) .

فالبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله ، والبعد عن الله هو عين البعد عن الحق ، والبعد عن الحق ضلال ، والضلال هلاك . قال تعالى : ﴿ **وقد آتيناك من لدنا ذكرا من اعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا** ﴾ (سورة طه) .

أصبحت قلوب المسلمين معرضة لخطرات الوساوس والأوهام من هجرهم للقرآن ، فالذي يثبتها على الحق ويدفع عنها الشكوك والحيرة ويربطها

باليقين هو القرآن الكريم . أصبحت قلوب المسلمين معرضة للإلحاد والكفر التي تظلم منها النفوس ، وتقسوا منها القلوب فتحجب عنها الحقائق ، وتطمس عنها سبل العرفان من هجرهم للقرآن ، فالذي يزيل عنها الظلام المتراكم ويجلو عنها تلك الاصداء المتكاثفة ، ويوضح لها الحق من الباطل هو القرآن الكريم .

قلوب المسلمين معرضة للضعف عن القيام بأعباء التكاليف ، وما نحن مطالبون به من الأعمال من هجرهم لكتاب الله ، فالذي يبعث فيها القوّة والنشاط هو القرآن الكريم ، فحاجتنا الى تجديد تلاوته وتدبر آياته أكيدة جداً لتقوية قلوبنا باليقين ..

المسلمون لما هجروا القرآن أصبح لاهمَّ لهم إلا أنفسهم ودنياهم وشهواتهم ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ (سورة الحشر) استخفوا بالدين والاخلاق ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ (سورة المجادلة) .

لقد طغت الاباحة وعلا صوتها في أوساط المسلمين على كل صوت يدعو الى الله ، فضاعت الحقوق وانتهكت الحرمات ، وغلب العقوق على الامتثال ، وتخاذلت الهمم ، وفسدت الأمم بإعراضها عن كتاب الله ، وهضم الغني حق الفقير ، واندثرت الفضائل ، وإنتثرت الرذائل فهذه نوادي ومسارح فاتنة ، ومراقص ماجنة ، وأفاعي كاسية عارية تتلوى ، ولحوم بشرية في الشواطيء متراكمة ونفوس دنيئة تتهافت على مجاري القذارة تعب منها في نهم متزاحمة ، ورجال يقفزون في حلبات الرقص كقرود لاهثة ، وزعم الاسلام من لايعرفه ونبذ أوامره في سبيل شهواته ، وزعم الايمانَ من ترك الصلاة وأصر على المعصية لينال مبتغاه ، ولم يخش غضب ربه ، وزعم التقوى والصلاح من اتخذ الموتى أولياء من دون الله . هذه عواقب من ترك كتاب الله واتبع هواه واغراه الشيطان بطاعته ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ (سورة الرعد) فإلى النجا أيها المسلمون ، بادروا الى تدبر القرآن ، واسعوا

ما استطعتم إلى فهمه ، والعمل بأوامره ، والوقوف عند حدوده ونواهيه ، وأنيروا قلوبكم بنوره وحكمه ، واشكروا ربكم على فضله ونعمه ..

لقد آمن المسلمون الأولون وحسن إيمانهم ، فمكن الله لهم في الأرض ، وأن الذي مكن لهم على قلّتهم لقادر أن يمكّن لنا إذا آمنا وحسن ايماننا . ذلك وعد الله لعباده ومن أوفى بعهده من الله ؟ ..

وأن المسلمين يتحدثون عن الاسلام صباح مساء ويعربون في كل مناسبة عن تعظيمهم للقرآن واعتزازهم به ، ولكن لايقرأونه ولايقيمون أحكامه ، ولايعتنون بتعاليمه ، ولايوجد شيء منه في واقع حياتهم .

فاحكامه استبدلوها بقوانين وضعية أجنبية ، وتعاليمه ضربوا بها عرض الحائط وحدوده عطلوها ورموها وراء ظهورهم ، ومع هذا إنهم يعتزون بالقرآن ، فالآيات القرآنية تكتب بخط جميل أنيق تزين بها جدران المنازل ، وتعلق في رقاب الأولاد والمرضى والمصاحف الضخمة فوق مكاتب الحكام والقضاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله . هل هناك تكريم للقرآن أفضل من هذا التكريم ؟

يا قومنا إن القرآن أنزل ليكون شرعة ومنهاجا لحياتنا فيجب أن نسير على هديه لاندعوا إلا بدعوته ولانعمل إلا بأوامره .

يا قومنا لم ينزل القرآن ليكون أنغاما وألحانا يتغنى به المطربون ، لم ينزل القرآن ليقرأ في مجالس العزاء على بخار السجاير ، وإنما أُنزل ليحكم بيننا بالحق ، ويهدي قلوبنا الى معرفة الخالق لنعبده ونشكره على ما أولانا من النعم التي لاتعد ولاتحصى ..

يا قومنا منذ تركنا أحكام القرآن ، وابتعدنا عن أوامره العادلة ، ونحن نتخبط في الفتن ونتقلب في الفوضى ونتجرع الظلم ألوانا ، ونشرب الذل كئووسا ، واللهِ لاخلاص لنا مما نحن فيه إلا بالرجوع الى كتاب الله ، واللهِ لايؤمن حاكم يحكم بغيره ، واللهِ لايؤمن قاض يقضي بسواه واللهِ لايؤمن عالم لايبين أحكامه وينشر هديه ، ويجاهد الناس به ، واللهِ لايؤمن من ابتغى

الخير في غيره . إذا دام المسلمون على هجر القرآن وسنة نبيهم محمد ﷺ لابد لهم من يوم يندمون فيه قال تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا** ﴾ (سورة الفرقان) يوم يعض الظالم على يديه حسرة وندامة على تفريطه وعدم اتباعه للحق مع الرسول الذي أرسل اليه ، ويندم عن صحبته لخليله الذي صده عن الإيمان بالقرآن بعدما سمعه ...

ومما يحزن المسلم أن يرى المسلمين يسيرون من ضعف إلى أضعف ، ومن جهل إلى أجهل ، وهم لايدرون السبب في ذلك ، والسبب واضح هو عدم تمسكهم بالشريعة الغراء وتشبثهم بالقوانين الوضعية الأجنبية هذا هو الذي أفسدهم وأورثهم الفرقة والذل والضعف .

فهناك فرق كبير بين المسلمين والإسلام ، فالإسلام يدل عليه كتابه الجامع ورسوله العظيم ، والمسلمون يدل عليهم ضعفهم وتخاذلهم وتفرقهم هذا هو الفرق بينهما .

أيها المسلمون الله الله في دينكم لايفتننكم الشيطان عنه بأقوال المسرفين ، ولاتصرفنكم المدنية الغربية عن تعاليمه السامية فانه ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ (آل عمران) ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين** ﴾ (سورة البقرة) .

يظهر بين الحين والحين بعض المفكرين الذين يعيشون بيننا فيقولون يجب عزل الدين عن المجتمع وأحوال المعيشة ومحاصرته داخل جدران المساجد - حتى المساجد أخرجوه منها كما هو الشأن في أوربا ، وألفت في ذلك عدة كتب وألقيت محاضرات كثيرة إمعانا من هؤلاء على شل الجانب الديني حتى يأخذ طريق الضمور في مسيرته الى أن ينتهي إلى الفناء الذي يريدونه لاقدّر الله .

ولكم صور البعض الاسلام ـأنه دين التواكل والتكاسل ـ وهو دين الاعداد ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ وهو دين العمل والسعي ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ وهو دين العمل ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ وهو دين العمارة ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ « **ومن بات كالاً من عمل يديه بات مغفورا له** » (حديث) تصور كيف يكون هذا الدين دين التواكل ودين التراخي والكسل ، واستدلوا على ذلك بالكسالى العاطلين المنتسبين اليه ، واتخذوا منهم عنوانا على هذا الدين ومثالا لأبنائه ...

وهناك قوة عالمية متحالفة فيما بينها منذ قديم الزمن تعمل على استئصال الاسلام من الوجود ، منها الصهيونية والصليبية ، والشيوعية أخيرا . كلها قوات خطيرة استهدفت الاسلام بطرق شتى ملتوية ، وأساليب متنوعة ماكرة في محو الاسلام من نفوس المسلمين ، وما دام هذا الوضع سائدا على المسلمين لايخلص المجتمع من التشويه والإنحراف والمسخ . يجب على المسلمين أن لايتركوا مكان القيادة ، وأن لايهملوا منهجها ، وأن لايلهثوا وراء الأمم الضاربة في التيه والضلال ... يقول الأستاذ أنور الجندي في مقال له نشرته مجلة رابطة العالم الإسلامي : إن كل المخططات سواء كانت تبشيرية أو استشراقية ، أو ثقافة غربية شيوعية كانت إمَّاصهيونية وإمَّا رأسمالية تتضافر كلها في سبيل غاية واحدة : وإن اختلفت الوسائل فتتلاقى على ضرب الفكر الإسلامي في أصالته ووحدانيته ليظل المسلمون يدورون في الفلك البشري الذي صاغته أهواء الطامعين وعبَّاد الذهب والشهوات ودعاة الجنس والفلسفة ليعجز المسلمون عن تبليغ رسالة الله التي أنزلها رحمة للعالمين ، وليبتعدوا عن الأصالة الإسلامية التي تعصم النفس والعقل لأنها حصانة نفسية وفكرة قادرة على الثبات أمام الأعاصير .

هذه العناصر كلها ـ كانت ولازالت تبث سمومها في المجتمع الاسلامي بدعوى التقدم والرقي ، وساعد على ذلك الخواء الديني والفراغ الروحي ...

نشأ عن هذه المباديء التي تروج في بلدان المسلمين إنحراف عن الإسلام

لأنها هزّت كيانهم وزينت لهم ما بين أيديهم من الصور البراقة ، وشوهت الحقيقة أمام أبصارهم وبصيرتهم .

ألفت الجماهير الكفر والإلحاد والنفاق ، وأصبحت تظن أنَّ ذلك أوضاع اسلامية لاتخالفه في شيء وشاع في أوساطهم أن الاسلام مرن ومتطور يساير الأوضاع الاقتصادية والسياسية الغربية ، فإذا قلت لهؤلاء المنحرفين ان أحكام الاسلام لاتتبدل ولاتتغير ولاتعطل إلا لضرورة أجابوا بقولهم : إن أحكام الاسلام كانت لزمن غير زماننا ، والإسلام يفرض على المسلم أن يجارى عصره ، ويعمل بما يلائم زمانه . هذا صحيح من ناحية التقدم العلمي والتطور الصناعي الحضاري في التكنولوجيا . أما من ناحية القواعد الدينية ، والكليات الأصولية ، وأمهات الأحكام لاتتغير فإنها من عند الله ..

بدأ المسلمون ينحرفون في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد فكانوا يبررون نظام البنوك الربوية ، والشركات المساهمة والتعامل معها بما حرم الله بدعوى الضرورة ، وأن الإسلام يقبل بها لأنه مَرِنٌ ، وأباحوا اختلاط النساء بالرجال بدعوى أن ابتعاد المرأة عن العمل يتضرر من ذلك الاقتصاد الوطني ، وينكرون على الشريعة تعدد الزوجات ، وقطع يد السارق ، ورجم الزاني المحصن إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة الغراء .

وكم أصاب المسلمين من بلاء ومحن بسبب المباديء الغربية التي اعتنقوها ؟ وكم طعنوا في شرفهم وكرامتهم ؟ وكم أوذوا في نفوسهم بسبب إعراضهم عن الإسلام ؟ وكم لدغوا من الفرقة وعدم الإتحاد ، ومن السياسة المرتجلة مرات ومرات - ولكنهم لم يتعظوا ؟ أليس من شأن المؤمن أن لايلدغ من جحر مرتين ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء** ﴾ (سورة الأنعام) ليت المسلمين يلقون السمع لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ الذي جاءهم بالهدى ودين الحق ..

أصبح المسلمون يرددون أقوالا جوفاء بلا اعتقاد ولا أعمال ، ولهذا زحزحوا عن الإسلام وكادوا يخرجون عنه قال تعالى : ﴿ **يآأيها الذين**

آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (سورة الصف) .

وهنا يبدو من هذا العرض أي عرض المباديء الغربية التي غزت الأمة واضحا جلياً أنها دفعت الأمة إلى الهاوية وحققت أهدافها الإيجابية في غياب الإسلام ، وهذا هو السبب الحقيقي في خروج المسلمين عن الإسلام وارتمائهم في أحضان الغرب ، حتى أصبحوا مجزئين بين أرجائه وتابعين له في كل شيء .

والحقيقة التي غابت عن المسلمين ، وفي مقدمتهم المسيّرون أن ليس أقوى في توثيق العرى الإجتماعية من الشعائر الدينية إذا هي خرجت من محيط الشكل إلى محيط الجوهر والروح ، وانطلقت من ظلام التقليد والجهل إلى نور المعرفة والإدراك ...

لم يبلغ المسلمون الأولون ما بلغوا من رقي وتقدم وحضارة إلا بالوحدة الإجتماعية ، والمشاركة الوجدانية ، ولم يكن لهم ذلك إلا بوعيهم للدين وقيامهم بشعائره خير قيام ، فسيرة كل واحد منهم كانت تعد مدرسة مثالية للتربية الإجتماعية الرشيدة والتهذيب الإنساني الصحيح وتنمية المحبة والمودة والتعاطف ...

الإسلام شريعة كاملة اشتملت على العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، فأهمل المسلمون أحكامها ، وعطلوا سلطان مفعولها ، فأدى ذلك إلى الإنصراف عنها إلى القوانين الوضعية .

الشريعة الإسلامية لها دعائم قوية وأحكام تفصيلية تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، فأما أمر صلاحيتها فإنها تكفلت بذكر القواعد العامة في القرآن الكريم وتركت ماوراء ذلك من أحكام تفصيلية فرعية للإجتهاد بحسب ظروف البيئة والزمان إذا توافرت شروط الاجتهاد المعلومة ودعت الضرورة لتوسيع قاعدة بناء على شبيهات لها من قواعد الشريعة الغراء .

العقائد التي أشتملت عليها الشريعة يجب الإيمان بها لقيام الدليل اليقيني عليها كالتَّوحيد ، وإرسال الرسل عليهم السلام ، وإنزال الكتب ، والبعث والجزاء وما اشتمل عليه اليوم الآخر إلى غير ذلك من قواعد الإيمان لكي يعود المسلمون إلى ما كانوا عليه من مجد وسؤدد . يجب عليهم أن يهتموا بالناحية الروحية والفكرية ، وهذه نظرة العقلاء من المسلمين منذ زمن بعيد وهم ينادون بذلك ، يجب أن يقادوا قيادة إسلامية لاقيادة عاطفية ولاتقليدية في تفكيرها ونظامها الداخل والخارج لاريب أن المسلمين اليوم في حاجة أكيدة إلى أسلوب جديد للدعوة ، وجيل جديد من الدعاة ، وقد مرت بالمسلمين فترة عصيبة توقف خلالها أسلوب الدعوة المجدي الفعال ، ولم تبق منه إلا العبارات المتكررة الجوفاء ، فلا تمس قلوب المسلمين ولاتحرك عواطفهم ...

نريد من دعاة المسلمين أن يبرزوا تعاليم القرآن إلى نشاط وحركة وتطبيق . لم ينزل الله القرآن زينة يوضع فوق الرفوف ، ولاتعاويذ ولاترانيم ولا أنغاما ولكنه قانون حياة وعمل قامت عليه أمم انبعثت به الى الوجود ، وما لم تتحول تعاليم القرآن إلى أعمال إيجابية وسلوك محكم دقيق فليس ثمة مسلمون ، وليست ثمة إصلاح لهذه الشعوب ...

التكاليف الشرعية العامة :
منها العينية والكفائية

كيف يكون الانسان مؤمنا ؟ وما هو العمل الذي يتطلبه منه الاسلام ؟

ان العمل الذي يتطلبه الاسلام من المكلف هو إيجاد الشخصية الإسلامية التي تتمثل في العقيدة والأخلاق والسلوك ، ثم ايجاد المجتمع الاسلامي الذي يلتزمه المسلم فكرا وعملا ، ثم إيجاد الدولة التي تطبق الاسلام شريعة ومنهاجا ودستورا ، وتحمله دعوة هادئة لإقامة الحق والعدل في العالم ..

إن هذا العمل وما يتقيد به المسلم من أوامر الدين وما يتصل به ويتفرع عنه وما يتطلبه هو واجب إسلامي شرعا لايسقط عنه حتى تقوم السلطة التي تتولى القيام بهذه المسئولية بحيث ترعى شئون المسلمين ..

وإذا كانت السلطة غير موجودة ، فإن كل تقصير من العاملين بالاسلام هم في شرع الله آثمون لايرفع عنهم الإثم الا المبادرة السريعة للنهوض بتكاليف العمل للاسلام ، ومما يؤكد وجوب العمل أنه تكليفي شرعي وليس عملا تطوعيا كون وجوبه يقينيا ..

العمل للإسلام واجب لأنه مناط التكليف للناس جميعا ، يقول الله تعالى : ﴿ **يأأيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ (سورة البقرة) ، والسنة المطهرة تزخر بما روى عن رسول الله ﷺ من أحاديث كثيرة تحض على الدعوة الى الحق ومكافحة الباطل ومنها قوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان** » ..

العمل للاسلام واجب شرعا لأن تعطيل شرع الله في الأرض وهيمنة النظم والتشريعات الوضعية على المجتمعات البشرية تجعل قانون الاسلام غير صالح للحكم وذلك عكس للحقائق تماما ، ولهذا يفرض الاسلام على المسلمين العمل بشريعة الله العادلة لإقامة مجتمع اسلامي ، لتستأنف الحياة الاسلامية على قوانين الله التي أنزلت من السماء لتبين للناس عقائدهم وعبادتهم وأخلاقهم ونظمهم ، ولايقبل الله إلا حكم الاسلام بدليل قوله عز وجل : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ ، (سورة النساء) فتحقيق الحكم الاسلامي في المجتمع واجب بذاته ، فيصير العمل به واجبا بدليل القاعدة الأصولية : « ما لم يتمْ الواجب إلا به فهو واجب » .

الدول الاسلامية المعاصرة لم تحكم مجتمعاتها بكتاب الله ولا بسنة رسوله الكريم ﷺ ، وانما تحكمها بالنظم الوضعية الأجنبية ، وواجب المسلمين أن يتركوا هذه النظم ، ويرجعوا الى حكم الاسلام العادل لأنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يعود للإسلام القيادة والقوامة .

العمل بالاسلام واجب لمواجهة تحديات العصر ، ومؤامرة أعداء الاسلام ، ووقف التيارات الإلحادية ، ومواجهة المادية العاتية ، وزحف الايديولوجيات من كل جانب حتّى أصبحت تهدد الوجود الاسلامي بالاستئصال ، والزوال . فنظرة واحدة فاحصة إلى الأوضاع التي تعيشها الأمة الاسلامية سواء في الشرق أو الغرب ـ تؤكد ضرورة قيام مجابهة إسلامية . والقيام بهذا العمل تكليفيٌ شرعيٌ لا يجوز السكوت أو القعود عنه ، أو التهاون فيه . فهناك أقطار إسلامية تشكو من سيطرة غير المسلمين عليها ، وهناك أجزاء من العالم الإسلامي تشكو من تسلط أحزاب إلحادية عليها .

وفضلا عن هذا وذاك فإن العالم الإسلامي يعيش في حالة ضياع وفوضى ، فوضى سياسية ، فوضى إجتماعية فوضى إقتصادية لا ترابط بين أجزائه ، يعيش تدهورا مريعا في الأخلاق والقيم ، وكذلك في الأفكار والمعتقدات . إن مسؤولية العمل بالاسلام من حيث هي واجب تكليفيٌ

شرعيّ ، ولو كانت مسؤولية فردية شأنها شأن كل الواجبات التي يترتب عليها الثواب كما يترتب على تركها العقاب ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (سورة المدثر) .

الإسلام يشرك الناس جميعا . في عملية البناء والتعمير بناء الحياة على الحق وإعمارها بالخير ، الإسلام جعل كل إنسان مسؤولا عن البذل والعطاء في حدود إمكانيته وطاقته ما دام المسلم بالغا قادرا عاقلا مما يجعل المجتمع خلية حية نابضة ، وإذا كان العمل بالإسلام واجبا فرديا ، فهو ايضا واجب جماعي ، وهذا غير قابل للجدل والمناقشة .

إن تكاليف العمل بالإسلام أكبر من أن يتصدى لها إنسان بمفرده ، فيجب أن يقضى على الإنحراف والإلحاد ، وإقامة الاسلام مكانها ، وهذا يتطلب من التكليف الجهد والإمكانيات ما يعجز عن القيام به فرد ، بل لا يقوى على النهوض به مع المكابدة والمعانات إلا بتنظيم حركي يكون في مستوى المواجهة وعيا وتنظيما . وقدرة .

إن عمل الرسول ﷺ في مواجهة الجاهلية وإقامة مجتمع إسلامي ، واستئناف الحياة الإسلامية لدليل شرعي على وجوب الجماعة ، وهذا ما ينطق به واقع السيرة النبوية في جميع المراحل ، وعلى وجه كل صعيد فالتحديات التي تعترض سبيل الإسلام هي غالبا من سكان المعمورة ، والقوة التي تتربص به فهي كثيرة وهذا ما يفرض على المسلمين أينما كانوا تنظيم صفوفهم وتوحيدها ، فإذا كانت نياتهم صادقة فالنصر حليفهم لا محالة .

إن العقيدة الإسلامية لا تكاد تمس قلب الإنسان مسا صحيحا حتى تحدث فيه إنقلابا في المشاعر ، وفي الحياة ، وعلاقة الأفراد والجماعات على المساوات المطلقة لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى والعمل الصالح .

والعقيدة الإسلامية تقوم على العدالة لا تطيق البغي من أحد ، ولا ترضى بالبغي على أحد ، ولا يكاد يحس بها المسلم حتى يندفع في سبيلها

بكل ما يملك من قوة فما يطيق صبرا ولا سكوتا إلى أن يتم له تحقيق ما اشتملت عليه ذلك تأويل أن الاسلام عقيدة ثورية .

الذين يؤمنون بالله حق الإيمان هم الذين يجاهدون في الله حق جهاده لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الله لا تتحقق إلى أن يرفع البغي من هذه الأرض فيصبح الناس سواسية كأسنان المشط .

الإسلام يهاجم الظلم والظالمين دائما من أيّ كان ، وفي كل مكان وزمان . بخلاف المباديء الوضعية لا تستطيع أن تكافح المظالم بجميع أنواعها كما يكافحها الإسلام ، أو تقف بجانب المظلوم كما يقف الإسلام ، ولا يمكن لهذه المباديء الوضعية أن تصرخ في وجوه الطغاة والمتجبرين كما يصرخ الاسلام .

إن الإسلام في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة ، ولا يدخل الإسلام قلب أحد ثم يدعه مستسلما خاضعا لسلطان الأرض . فإذا رأيت المظالم تقع ، وإذا سمعت المظلومين يصرخون ، ثم لم تجد المسلمين حاضرين لدفع الظلم وتحطيم الظالم فلك أن تشك مباشرة في وجودهم ، لا يمكن أن تحمل القلوب الإسلام عقيدة ، ثم ترضى بالظلم نظاما ينبغي أن يكون إسلام أولا إسلام .

الإسلام كفاح لا يهدأ ، وجهاد لا ينقطع ، واستشهاد في سبيل الحق والعدل والمساواة ، أولا إسلام فهو مهمهة بالأدعية ، وطقطقة بالمسابيح ، وتمتمة بالتعاويذ ، واتكال على أن تمطر السماء عليّ الأرض صلاحا وحرية وعدلا ، وما كان الله لينصر قوما لا ينصرون أنفسهم ...

وإذا كان الاسلام هو الدين الذي اختاره الله لعباده بقوله عز وجل ﴿ شهد الله أنه لااله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قآئما بالقسط لااله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام ﴾ (سورة آل عمران) هذا الدين المختار وقد بدأ بالتوحيد ، وانتهى به ، والتوحيد هو التسليم المطلق لله ، والتفويض التام له سبحانه وتعالى .

والاسلام شريعة يمزج بين الدين والدنيا ، وبين المسجد والدولة ، فهو دين ودولة ، وعبادة وقيادة . إذا أراد المسلمون أن يحققوا الخير للناس ، وأن يمكنوا للدين في الأرض ، فعليهم أن يسيروا على المحجة البيضاء التي سار عليها الرسول ﷺ من قبل ، إيمان بالله وعمل بالاسلام متواصل ، ومحبة لله ولرسوله دائمة ، واخاء بين المسلمين متين ، دون تفريط أو افراط ، قال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ (سورة يوسف) .

السؤال المطروح أمام المسلمين جميعا : هل يقف المسلمون مكتوفي الأيدى حتى يصل مجتمعهم إلى عهد الجاهلية فيهدر دينهم وتذهب قيمهم وأخلاقهم أدراج الرياح ؟ وقد جرفهم تيار الفساد والالحاد وظهرت جماعة منهم تحمل العداء السافر لهذا الدين الرباني ..

يجب على كل مسلم مكلف سواء كان مسئولا أو عاملا بسيطا جاهلا كان أم مثقفا أن يتحمل مسئوليته التي سيحاسب عنها يوم القيامة ، فالحاكم مسئول عن هذا الدين ، والوزير مسئول والمدير راع ، والرجل راع ، والمرأة راعية ، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن هذا الدين الحنيف ، وكل واحد من أفراد الأمة المسلمة سيتحمل مسئوليته أمام الله والتاريخ ، فالله سبحانه وتعالى سيسأل الجميع عن هذا الدين القويم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ...

إن الله لا يحب أي شريعة إلا شريعة الاسلام ، فشريعة الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والشرائع الأخرى بعكس ذلك ، وهذا ما يقوله الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ لاصحابه « **كيف بكم إذا فسد شبابكم وطغى نساؤكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشد منه سيكون . كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشدمنه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟** ﴾ (صدق رسول الله ﷺ ، فهذا كله موجود في المسلمين المعاصرين ..

قال عليه الصلاة والسلام : لا تزال لاإله إلا الله تنفع من قالها ، وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها قالوا يا رسول الله وما الإستخفاف بحقها قال ﷺ يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير . وقال : تركت فيكم ما ان تمسكتم به فلن تضلوا من بعدي أبدا كتاب الله وسنتي (1) .

إذا وما العمل ـ أيها المسلمون ـ ليس هناك ملجأ أو نجاة ، أو نصر أو حياة إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله . دوروا أيها المسلمون حيث دار الاسلام .

المؤمن الحقيقي لا يبطره النصر إذا انتصر ولا تقنطه الهزيمة إذا انهزم ، إنَّ الهزيمة والنصر يستفيد كل منهما وكلاهما يدخلان الجنة . ان انتصر المسلمون فالفضل لله وحده ، وإن انهزموا بحثوا عما قصروا فيه من طاعة الله أو مخالفته ولا تكون الهزيمة للمسلمين إلا إذا فرطوا في شيء مما أمرهم الله به ، أو عطلوا حدا من حدوده ، ولم يتوبوا ، ألم تضق الأرض بالمسلمين بما رحبت في غزوة حنين وقائدهم رسول الله ﷺ حين ظنوا ان النصر إنما هو في جانب الكثرة ، واعجبوا بكثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا لولا أن تداركهم الله برحمته الواسعة ، وكذلك زلزلوا في غزوة أحد لأنهم خالفوا ـ بنية طيبة وقصد سليم ـ أوامر رسول الله ﷺ واجتهدوا ولكن لا اجتهاد مع النص ، ولهذا أدبهم الله تأديبا أدركوا بعده قيمة مخالفة أوامر الرسول ﷺ ووقفوا على عواقب ذلك الخلاف ...

رَسَمَ النبي ﷺ لأصحابه ثلاثة مشاعر انطبعت عليها قلوبهم ، وبهذه المشاعر الثلاثة ظلت راية الإسلام مرفوعة : المشعر الأول هو أن ما جاء به ﷺ هو الحق ، وما عداه هو الباطل ، وأن رسالته أكمل الرسالات ، ومنهجه أفضل المناهج ، ونظام شريعته أحسن النظم فهي التي تحقق السعادة للناس أجمعين ، المشعر الثاني : إن المسلمين ما داموا أهل حق وما داموا حملة رسالة النور ، وما دام بينهم هدى السماء لارشاد الناس فيهدونهم

---

(1) من خطبة الوداع عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه (رواه مسلم) .

إلى الخير والى سـواء السبيـل فـلا بـد أن ينـالـوا سعـادة الـداريـن .. المشعر الثالث : ما دام المسلمون مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسـابهم إليـه فـإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم يؤيـدهم بروح منـه إذا تخلى عنهم النـاس ، ويدفع عَنْهُمْ إذا أعوزهم النصر وهو معهم أينما كانوا وإذا لم يكن معهم جنـد الأرض فينزل عليهم المدد من السماء .

ولما أخذت هذه المشاعر الإيمانيـة بقلوبهم إعتزوا وانتصروا في كل ميـدان ولـمـا ضعفت في نفـوس المسلمين خفت أصـواتهم واهتز يقينهم فضعفـوا عن مقاومة أعدائهم ...»(1)

---

(1) للتوسع راجع رسالة التعاليم .

بماذا يكون ايمان المكلف ؟

وما هي الوسائل التي يستعملها ليكون مؤمنا ؟

الوسائل التي يعرف الانسان بها ربه متعددة ومتنوعة ، منها : النظر في مخلوقاته ، (بالعقل المجرد من الهوى) أو بنور يقذفه الله في قلب المؤمن لا يقدر على دفعه ، أو بالتقليد (وهي أسوأ الطرق وأفسدها) التوحيد هو أساس الطاعات ونبراس العبادات ، وكلمته الطيبة الدالة عليه ، وهي : لااله إلا الله انها مقصورة على ألوهيته وحدها ، فكل مخلوق يجب عليه أن يعبد الله ويطيعه وحده لا شريك له لأنه هو النافع والضار على الاطلاق ، وهو خالق كل شيء ، وكل من لا يكون نافعا ولا ضارا فليس بخالق يستحق العبادة لأن العبادة هي الطاعة والخضوع والانقياد لله وحده سبحانه وتعالى .

أما الكلمة الطيبة - وهي لاإله إلاالله - قد دلت على ألوهيته الثابتة له تعالى ثبوتا مستمرا ، وقال حجة الاسلام الغزالي في باب « الصدق » من (الاحياء) « **كل ما تقيد به العبد فهو عبد له ، كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا** » وقال نبينا محمد ﷺ :

« **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، وعبد الحلة وعبد الخميصة** »(1) ، وكل من تعلق قلبه بشيء فهو عبد له ، قال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ الهه هواه** ﴾ (سورة الجاثية) وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد ظهر لنا أن الشارع لأمر ما جعلها مفتاحاً للدين ومهداة الانام .. وفي حديث أخرجه ابن النجار عن دينار عن أنس : أنه عليه الصلاة والسلام قال :

« **لاإله إلا الله دالة على الله تعالى من قالها مخلصا استوجب الجنة** » وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لااله إلاالله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة** » ، وحديث

---

(1) رواه احمد وابن ماجه والحاكم من حديث صالح بن صالح .. ورمز السيوطي إلى صحته

البطاقة أشهر من أن يذكر وكذلك الحديث القدسي المروي عن علي الرضا عن ابائه عليهم السلام : « **وجاء من كان آخر كلامه من الدنيا لااله الاالله دخل الجنة بلا حساب** » وما هو الفرق بين ذلك وبين من قالها ولم تكن أخر كلامه في الدنيا .

أجمع المسلمون على معرفة الله تعالى وان اختلفوا في الوسائل شرعا وعقلا أما النظر في معرفة الله تعالى لا خلاف بين أهل الاسلام لوجوبه ، لأنه أمر يتوقف عليه الواجب ، وكل أمر يتوقف عليه الواجب فهو واجب شرعا كما رأى الصحابة (ض) . وعقلا ان كان عقليا كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المحال .

أما كون النظر الذي يتوقف عليه التوحيد ليس ضروريا بل هو نظري ومحل الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدم وجوبه في غير معرفة الله تعالى أما النظر فيها فواجب إجماعا كما ذكره سعد الدين التفتزاني ورجّح هذا القول الإمام الرازي والآمدي وقال بعض العلماء في ذلك : إن المطلوب هو اليقين لقوله تعالى عز وجل لنبيه ﷺ : « **فاعلم أنه لااله إلاالله** » وقال أيضا للناس : « **اتبعوه لعلكم تهتدون** » . ولا يتم اليقين إلا بحصول النظر ولهذا لم يجوّز بعض العلماء التقليد في الأصول والبعض منهم أجازوه لكن بشرط العقد الجازم لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي من الناس بنطق الشهادتين تحت ظلال السيوف إذا كان معتقدا لمضمونها على وجه الإدعان ، وعدم كونه معتقدا لها احتمال عقليّ .

والذي أوجب النظر من المحققين لم يرد به النظر عن طريق المتكلمين بل صرح بعضهم أن المعتبر في النظر هو طريق العامة ، ويكفي دليلا على صحة إيمان المقلّد . كان رسول الله ﷺ يكتفي هو وأصحابه من عوام العجم وأجلاف العرب بمجرد الإقرار بالشهادتين ولو كان الاستدلال فرضا لأمروا به بعد النطق وللقّنوه لهؤلاء الأجلاف كما كانوا يلقنونهم الواجبات الشرعية ولم ينقل أحد من الصحابة أنهم أمروا ممن دخل في الاسلام بالاستدلال وترديد النظر ولاسألوه عن دليل تصديقه ولاأرجأوا أمره حتى النظر .

فلو كان النظر واجبا على الأعيان ولو إجماليا على طريق العامة لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والأجلاف بمجرد الإقرار ، لأن النبي وأصحابه لا يقرون أحدا على ترك الواجب من غير عذر . إذ أن المقلد غير آثم على ترك النظر بل إيمانه ثابت وصحيح ويشهد لذلك ما قاله النبي ﷺ لأسامة بن زيد « عند اعتذاره عن قتل » مرداس بن نهيك « من أهل فدك وغيرهم من الأخبار الكثيرة قال عز وجل : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام** ﴾ وقد روي مرفوعا أنه ﷺ سئل عن شرح الصدر فقال : « **نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح صدره** »(1) . فصرح أنه نور لا يحصل من دليل وإنما يقذفه الله تعالى في قلبه من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال .

وقد صرح بعض المحققين بأن توحيد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو علم ضروري وجدوه في أنفسهم لم يقدروا على دفعه .

ومن أهل الفطرة من وجد فيه الايمان كذلك بل قد صرحوا بأن الايمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه فكم من آمن بلا دليل . وقال الامام الغزالي حجة الاسلام في كتابه « فيصل التفرقة » ومن أشد الناس غلوا ونكراً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررنا بها فهو كافر ..

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جعلوا ما تواترت به السنة وراء ظهورهم ، وظهر في عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة باسلام على طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الأوثان ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها ومن ظن أن الايمان بالكلام والادلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد النجعة بل ان الايمان نور يقذفه الله في قلب عبده عطية وهداية من عنده تارة بسبب رؤيا في المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين سرى نوره اليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينه حال .

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم ، رواه عبد الرزاق

فقد جاء أعرابي الى رسول الله ﷺ جاحدا منكرا فلما وقع وجهه على طلعة النبي ﷺ البهية وغرته الغريرة السنية فرآها يتلالأ منها نور النبوة ، قال : والله ما هذا بوجه كذاب ، وسأله أن يعرض عليه الاسلام ، فأسلم . وجاء آخر فقال : أنشدك الله بعثك الله نبيا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : بلى اني والله ، الله بعثني نبيا . فصدقه بيمينه وأسلم . فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ..

ولم يشتغل أحد بالكلام وتعلم الأدلة بل كانت تبدو أنوار الايمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد وضوحا واشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة كتلاوة القرآن وتصفية القلوب . ليت شعرى من نقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة احضار أعرابي ولقنوه الدليل على أن العالم حادث لأنه لا يخلو عن الأحداث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وان الله عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد عن الذات الى غير ذلك من رسوم المتكلمين ..

بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من أجلاف العرب أو غيرهم يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسرى يسلمون واحدا واحدا بعد طول الزمان أو على القرب منه . وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا الى صنيعتهم لرعاية الغنم أو غيرها ، لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان في حق بعض الناس ، ولكن ذلك ليس بمقصود عليه وهو نادر . وساق الكلام الى أن قال والحق الصريح ان كل من اعتقد ان ما جاء به الرسول ﷺ ، وما اشتمل عليه القرآن فهو الحق اعتقادا جازما فهو مؤمن وان لم يعرف أدلة .

فالايمان المستعار من الدلائل الكلامية ضعيف جدا مشرف على التزلزل لكل شبهة بل الايمان الواضح ايمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا وأثر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها ـ انتهى ـ

لا تكليف إلا بشرط العقل

العقل في الاسلام له دور فعال في الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وفي الحياة ونظامها ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحثّ المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها على إهماله ...

ولقد حدّد الإسلام دور العقل ، فمن وظيفته أن يفهم الرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ فيتلقى عنه دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق .

العقل ليس أصلا لثبوت الشرع ، فإن الشرع منزّل من عند الله ثابت بنفسه . سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه وهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا إلا أنّنا محتاجون إليه حتى نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع صار عالما ، وإذا لم يعلمه كان جاهلا . والمنقول الصحيح من الآيات والأحاديث لا يعارضه العقل كمسائل التوحيد و (عقائد) صفات الإله ، والنبوات والمعاد والرسل عليهم السلام . لا يخبرون بمخالفة العقل ، وإنما يخبرون بما عجز عنه ، وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول والرفض بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ، إلاّ انّه ملتزم بأحكام الدين إذا بلغت اليه عن طريق صحيح ...

إن الاسلام دين العقل بمعنى أنّه يخاطبه بمقتضاه ومقرراته ، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال فيها إلى الاذعان ، ويخاطب العقل بمعنى أنّه يصحح له مناهج النظر ويدعوه الى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان والنظر في الأنفس والآفاق ، ويخاطب العقل بمعنى أنّه . يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه ، فاذا وصل العقل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات ، ولم يعد أمامه إلاّ التسليم بها فهو مؤمن ، وعدم التسليم بها فهو كافر .

العقل ميزان صحيح غير أنّك لا تستطيع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكلّ ما وراء الطبيعة ...

وإذا تبين ذلك ، فلعلّ الأسباب إذا تجاوزت في الاتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت على أن تكون مدركة فيتيه العقل في بيداء الأوهام ، وينقطع فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب ، وهذا معنى ما نقل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « العجز عن الادراك إدراك » ويقول ابن خلدون التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب .

سأل دعلب اليماني عليا - كرم الله وجهه - هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فأجابه : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال دعلب : وكيف تراه ؟ قال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه العقول بحقائق الإيمان ، قريب من الأشياء ، غير ملامس ، بعيد منها غير مباين لها ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، بصير لا يوصف بحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ، تعنو الوجوه لعظمته وتجل القلوب من مخافته . وقول الإمام الهاشمي - كرم الله وجهه - « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه العقول بحقائق الإيمان » إشارة إلى أن الادراك ليس إدراكا عقليا مباشرا ، وانما هو إدراك لما يقع في الشعور والحس من إيمان لا يدرك بالعقول .

ووظيفة العقل هي إدراك ما يقع له من مظاهر الوجود ، وقد ينتج الإدراك معرفة ، ولكن الايمان أكبر من الادراك ، وأعلى من المعرفة . وسئل الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بم عرفت ربك فقال : عرفت ربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي ، فقيل له وهل يتأتى لبشر أن يدركه ؟ فقال العجز عن الإدراك إدراك ويعلق العز بن عبد السلام على هذا الخبر بقوله : « ومعنى هذه الإشارة الصديقية : إن الحواس الخمسة التي هي آلات الإدراك لسائر المحسوسات لا وصول لها لإدراكه فإذا علمت أن الحق سبحانه منزّه عن إدراك الحواس لكن ذاته وصفاته لعجزها عن إدراكه ، فقد عرفت الحق ... ربما يفهم من القول : بأن العجز عن الإدراك إدراك » أن الإيمان المستولد من العجز عن الإدراك إيمان باهت وأنه ليس بشيء والحق أنّ العجز عن الحقيقة الكبرى حقيقة الوجود العليا ليس هو العجز الذي يعقبه اليأس ويتبعه القنوط ، وإنما هو إلهام

روحي ، ومن أجل هذا كان الإيمان بالله عز وجل لا يرتاد إلا النفوس التي حلّ بها الطهر وزكاها العلم . ولا يكون إلا في النفوس التي خلت من الشك والريب ، وسلمت من الزيغ ...

الاسلام يطرح العقيدة على العقل على أساس النظر والفكر ليستقر الإيمان في نفس المخاطب ، وجذور هذه العقيدة ضاربة في الكون والنفس والبشر ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق** ﴾ (سورة فصلت) .

كما هي مودعة في الكتاب الكريم ﴿ **هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان** ﴾ (سورة البقرة) ﴿ **إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ (سورة ق) .

إنّ الايمان بالله عز وجل وما اشتمل عليه قضية خطيرة قضية تحديد قوّة عليا تستوعب الزمان والمكان والانسان قضية تحديد حياة أخرى لا تقاس بملايين السنين إنه الخلود ، ومن تسنى له أن يخوض هذه القضية الكبرى - أي قضية الايمان - عقليا فيغدُو مؤمنا حقا ويكون قد مرّ بتجربة فكرية أكتسبته مرانا رائعا على التجرد من العقائد الزائفة ، ومن شأن هذا المران أن يطبع العقل الانساني بطابع التثبت والاتزان ، والمؤمن الذي يراقب الله يحذر من التسرع قال الله عز وجل : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ (سورة الاسراء) فإذا آمن الناس بالحقيقة الكبرى إيمانا عقليا وآمنوا برسوله وكتابه إيمانا عقليا أليس من المعقول أن يسلّم العقل فيما تعجز عنه حواسهم الحسيّة من النصوص الواردة من القرآن والحديث في الجنة والنار والملائكة والشياطين ؟ سيّما وقد قبلوا الأصول الكبرى عن طريق العقل ، وهذه التفصيلات الغيبية محدودة في النصوص الصحيحة ..

لقد عرض الله قضية الايمان على العقل ، وأخذ بيده إلى الكون ، وخاطبه بالبرهان . ولكن المؤمنين غافلون عن حقيقة إيمانهم ، فأصبحوا لا يستخدمون عقولهم في معرفة العقيدة حتى يعرفوها معرفة جيّدة ،

وكلما أمعنوا النظر والتفكر في الكون والمخلوقات المشاهدة إلاّ وازدادوا إيمانا بالله عزّ وجلّ ، وعلما به ، وخشية منه ، ولكن لا يبحثون عنها بدعوى أنّها مقدسية لا تمس ، أو بدعوى أنّها تتعالى عن العقول ، ولو قدّر الناس حرية العقيدة الدينية لما تململوا من البحث والنقاش فيها ، وهذا النقاش ليس من الجدل المحظور التي وردت فيه الأحاديث الشريفة بالنهى عنه .

قضية العقيدة خطيرة جداً لأن خطأها يطبق على الإنسان طول العمر ، وفي ظلمات القبر ، ومن بعد ذلك يأتي البعث والحساب في عالم الخلود .

كيف لا يفكر الانسان في قضية المعاد ؟ وإننا نرى الموت تقصم رقاب الجبابرة والطغاة والظلمة الذين لم تزل قلوبهم عن الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن الضياء إلى ظلمة اللّحد ، ومن ملاعبة النساء إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن الانس إلى وحشة القبر ، ومن صحة الذات وتنعمها إلى تشويهها وتمزقها ...

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر بالبقاء ، وسبحان من جعل الموت مخلصا للأتقياء ، والقبر سجنا للأشقياء ..

من كان الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقرّه ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنّة أو النّار مورده ، كيف لا يفكر في قضية البعث والحساب ؟ كيف لا يذكره ولا يستعد له ، ولا يتدبر في مصيره ولا يهتم به ؟ كيف لا يعد نفسه من الموتى ، وهو يرى كل يوم يحمل إلى القبور من أهله وذويه وأقربائه وأصدقائه . قال رسول الله ﷺ : « **الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** » (1) وقساة القلوب يغفلون عن الموت حتى يهجم عليهم فجأة ، وإذا ذكروهم به نفروا منه ، هؤلاء هم الذين قصدهم القرآن بقوله : ﴿ **إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم** ﴾ ما دام هناك ايمان

(1) رواه احمد وابن ماجه والحاكم والترمذي قال : حديث حسن . عن شداد بن أوس

بذلك اليوم الموعود ينتفع الانسان من استعمال عقله في تثبيت الايمان في قلبه وصيانته ، ولكن ذوي العقول الممتازة العارفين بالله هم الذين يستطيعون مجاهدة الأهواء . وأخلص مراتب التوحيد التي بنيت على النظر والاستدلال كما يقال ...

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد الكفر جَحْدُ الحقِّ - والحقّ هو الله سبحانه وتعالى ، فمن طلب الحق خاليا من الغرض والهوى فقد بريء من الكفر ..

أما المغضوب عليهم والضآلون ، فهم ممن وصفهم القرآن بقوله : ﴿ **وجحدوا بهاواستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾ (سورة النمل) وقال أيضا : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ (سورة الأنعام) .

من ثمرة العقل معرفة الله الضرورية والمكتسبة

من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته وعلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« **العقل ثلاثة أجزاء : جزء معرفة الله ، وجزء طاعة الله ، وجزء الصبر عن معصية الله** »(1) ، وقال عليه الصلاة والسلام :

« **الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء ، وماله العفة ، وثمرته العلم** » .

فمعرفة الله العامة مركوزة في النفس وهي معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلا فعله ونقله .

وأما معرفة الله المكتسبة ، فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات وما يجب أن ينفى عنه ، وهذه المعرفة هي التي دعت اليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا قالوا كلهم : قولوا لاإله إلا الله ، ولم يدعوا إلى معرفة الله تعالى ، بل دعوا الى توحيده ، وهذه المعرفة هي المكتسبة ، وتكون على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : لا يكاد يدركه إلا نبي وصديق وشهيد ومن داناهم وأنها تكون بالنور الالهي بحيث لا يعتريه شك كما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا** ﴾ (سورة الحجرات) .

والوجه الثاني : يدرك بغلبة الظن ، أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى : ﴿ **الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون** ﴾ (سورة البقرة) .

الوجه الثالث : يدرك بخيالات ومثل وتقليدات فيقول الله في حق هذا الصنف من الناس : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ (سورة يوسف) .

---

1) رواه أبو نعيم عن أبي سعيد مرفوعاً ـ وفي اسناده ـ سليمان بن عيسى ـ وضاع

فالوجه الأول يجري مجرى ادراك الشيء من قريب ولذا قال الله في حقهم : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ (سورة ق) والثاني يجري مجرى إدراك الشيء من بعيد ، وقد تعتريه شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ (سورة الاعراف) .

الثالث يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله : ﴿ **إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين** ﴾ (سورة الجاثية) .

ولأجل معرفة الله على الحقيقة يجب أن يتخلص من آفات الشرك ، قال تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ (سورة يوسف) وقال تعالى : ﴿ **قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ (سورة الزمر) ، وقال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ (سورة البينة) ، وقال تعالى : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾ (سورة الزمر) ، وقال عليه الصلاة والسلام :

« **من قال لاإله إلا الله مخلصا دخل الجنة** »(1) . وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات وجواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصحة وأنها محدثة وأن محدثها ليس اياها ولا مثالها بل هو الذي يصح ارتفاعها مع بقائه تعالى : ولا يصح بقاؤه وارتفاعه ، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق (ض) « سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » ، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

« **تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله** »(2) .

---

1) رواه البزاز عن ابي سعيد ـ صحيح ـ

2) رواه إبو نعيم في الحلية ـ عن أبي هريرة ـ وهو حسن ـ

ولما كانت معرفة الله تصعب على كل إنسان لقصور فهمه جعل له من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه ما هو موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر ، وفي الليل أو في النهار ، فان نشط وتفرغ الى العلم نظر في العالم الكبير ليعزز علمه ويتسع فهمه وعقله وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه ، ولذا قال الله عز وجلّ : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (سورة الذاريات) .

قال ابن الخطيب في تفسير هذه الآية : لو تأملتم في أنفسكم لوجدتم العجب العجاب ، أنظروا مثلا كيف أنشأكم ابتداء من طين ، ثم كيف خلقكم من نطفة في قرار مكين ، بل أنظروا إلى النطفة نفسها ، وكيف يتكون منها الجنين الذي لا يتكون إلا من الاتحاد بين جرثومة الذكر وبويضة الأنثى وبذلك تتكون الخلية ، يحدث انقسام بينها إلى خليتين ، ثم انقسام آخر لكل من الخليتين ، ثم آخر للمنقسمين ، وآخر ، وآخر ، وهكذا دواليك إلى أن يصل العدد إلى أربعين خلية من الخلايا ، حتى يزيد مجموع الخلايا التي يتكون منها الانسان الواحد عن سكان الكرة الأرضية أكثر من ألف مرة . وكل خلية من هذه الخلايا تعيش بمعزل عن هذه الخلايا كل منها بمثابة مصنع للانتاج . فمنها ما ينتج الشَّعر ، ومنها ما ينتج الأظافر ، ومنها ما ينتج العظام ، ومنها ما ينتج الدم وهكذا ...

ومتى نضجت هذه الخلايا ، واكتمل نموها ، تخصص كل منها في تكوين نوع واحد من الأنسجة والأعضاء .

ومن هذه الخلايا ما ينتج الجهاز العصبي الذي يتوقف عليه إيصال الرسائل من الحواس والأعضاء المختلفة إلى المخ ، ومن المخ تنتقل إلى الرسائل التي هي بمثابة أوامر وأحكام إلى العضل والأطراف التي تتحرك بموجبها تبعا للظروف المحيطة بالإنسان وإلى الغدة الجمة ، فتفرز سائلا معينا وفقا للحالة التي يجابهها الشخص كالدموع واللعاب .

مثال ذلك : إذا أبصر إنسان لصا أمامه بيده خنجر : فإن الجهاز الشخصي يوجه إلى المخ إشارة بذلك الخطر المحدق ، فتتلقى الجوارح من

المخ إشارة بما يجب اتباعه وقد يشير المخ تبعا لسلوك شخص الإنسان بالفرار من اللص ، أوبالهجوم عليه ، وانتزاع الخنجر من يده ، أو بمبادرته بطلقة من مسدس ، أو ضربة من عصا ونحوها على أن الزمن الذي تستغرقه هذه الرسائل الذاهبة والآتية - يدق على أي آلة أو أداة لا سلكية لا يتجاوز ذلك الزمن إلا جزءا من مائة جزء من الثانية الواحدة . فعلاقة الحواس بالمخ علاقة ثابتة ما ثبت الوعي والإدراك اللذان يتفرع منهما التمييز والتصور والذاكرة ، والتعليل والطموح ، وإدراك الهدف .

ولا يخفى ما في خِلقة المخ من أعاجيب وغرائب ، فمن أعجب الأعاجيب إختزان العلوم والمعارف والمدارك والمحفوظات ، واستخراج ما يريد من ذلك من سجلاتها المرتبة المبوَّبة في ظرف ربما لا يتجاوز ارتداد الطرف فبواسطته وذبذباته يعجز اللسان عن وصفها ويضيق الجنان عن الإحاطة بها .

هذا وقد دلَّ الفحص المجهري على أن عدد الخيوط العصبية في المخ يتجاوز عشرة آلاف مليون .. كل واحد منها تدب فيه الحياة ، ويحمل وظيفة عضوية يؤديها على أكمل وجه . وعلى هذا المنوال تؤدي أجسامنا - بما احتوت عليه من أعضاء - وظائفها ذات الأهداف المتباينة بغير وعي منها ، الأمر الذي يدل دلالة قطعية على أن هناك إرادة عليا تسيِّرها وتوجِّهها .

ولو لم يكن في بديع صنع الإنسان : سوى أنه يأكل الطعام ، ويشرب الشراب في مدخل واحد ثم يخرج كلاهما من مخرج منفصل عن الآخر . لكفى ذلك عجبا . وناهيك بما يفعله الجسم بالطعام والشراب حين يهضمها ويأخذ أطايبها ثم يلقى بنفايتها بعد أن يستنفد وقوده ، ويأخذ حاجته ويستوعب كفايته .... فتبارك الله أحسن الخالقين ....

ولو تأملتم حواسكم لوجدتم أعجب العجاب . أنظروا إلى حاسة اللمس وكيف أنكم تستطيعون بها الفرق بين الناعم والخشن ، والبارد والحار ، واللين والرخو ، وانظروا أيضا الى حاسة الشم ، وكيف تستطيعون بواسطتها

معرفة زكي الرائحة من رديئها وطيب النهكة من فاسدها ، وانظروا أيضا الى حاسة الذوق ، وكيف تستلذون بواسطتها على تذوق الأصناف والطعوم ومعرفة الحلو والحامض ، والمر والمالح . وكذلك البصر وانطباع المرآة عليه وانعكاسها على صفحة المخ لتترك آثارها . وكذلك السمع ، وانقلاب المسموعات إلى مفهومات وانطباعها في حافظة المخ لتزودكم به وقت حاجتكم اليه . وهكذا سائر الأعضاء بما وهب لها الله تعالى من مزايا يضيق الخاطر عن حصر فوائدها ومنافعها .

فإذا ما فكر الإنسان في خلقة نفسه ، ودقة حواسه ، وتأمل هذه الآيات والأدوات التي صاغها الخلاق العليم ، وبرأها المدبر الحكيم .

وهل يستطيع الإنسان بما أوتي من علم ومال ، وجاه وسلطان أن يستعيض عن أحدها لو سلبها أو أن يردها بعد تلفها . أو أن يفهم كنهها ، ويعرف سر تركيبها .

حقا لو تأمل الإنسان بعض ذلك لما وسعه إلا أن يقول .. ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ .

ومع هاتيك الدلائل المتظاهرة على وجود الله تعالى واستناد عالمنا في نشأته على قدرته جل جلاله . ومع إطراد البراهين على أن الدين حق وأن تعاليمه مناط الرشد ، وطوق النجاة . ومع ذلك كله فبين الحين والحين نسمع أمرأ مهزوز الرأي ، والضمير يهرف بما لا يعرف ويظن الناس أن من أعلن الكفر بالله واليوم الآخر إنَّه في عداد العباقرة ذلك أن الطريقة التي تكوَّن بها الجسم ، والتي يحيا بها آنا بعد آن أروع وأبدع ألف ألف مرة من أعظم المنجزات ، والكشوف التي عرفناها في هذا الزمن وغيره .

البحث عن معرفة الله سبحانه وتعالى

هو علم أصول الدين وهو أشرف العلوم ، وهو الفقه الأكبر بالنسبة الى فقه الفروع وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة . لأنه لا حياة للقلوب إلا بمعرفة ربِّها وبأسمائه الحسنى وبصفاته وأفعاله ، ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ربِّها على التفصيل ، ولهذا بعث الله الرسل معرفين به وداعين إليه ، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين ... ومن الأسباب الموصلة الى معرفته تعالى هو هذا الوجود الذي تمخر بنا سفينة الحياة عبابه ، وتنقلنا بين أغواره وشطآنه ، وتتدافع بنا في سكونه واضطرابه . هذا الوجود أغرى الإنسان منذ استهل في الحياة بالنظر إليه ، والتأمل فيه والبحث عن أسراره الكامنة في كل كائن من كائنات الوجود . مع أن الوجود ، كتاب يستطيع كل إنسان أن ينظر فيه ، وأن يقلب صفحاته إلا أن كثيرا من الناس يمرّون بآيات هذا الكون دون أن يصل شيء منها إلى عقولهم ، ودون أن تحرك فيهم شعورا ، وتثير عاطفة ، قال تعالى : ﴿ **وكأيِّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ (سورة يوسف) . وقد رأى المعرّي أن الحياة حين تدب في الكائن الحي تكون أشبه بالدخان ، ثمّ تشتد فتكون نارا ، ثم تخمد فتصير رمادا هكذا يقول :

تبدأ ضئيلة خافتة ، ثم تقوى شيئا فشيئا حتى تبلغ غايتها ، ثم ينتهى أمرها إلى الخمود فتكون رمادا ...

في هذا السبيل حشدت الإنسانية كل ما تملك من قوى الإدراك لكشف الطريق إلى تلك الحقيقة . كانت المهمة الأولى رسالات الرسل ، ودعوات الأنبياء ، فما كانت تلك الرسالات إلاّ تصحيحا لعقيدة الناس في الإله أو شرحاً لها في المحصول الذي خلفه العلماء في مختلف الأمم في جميع الأجيال من المذاهب والأراء التي تدور حول الإلهيات وما يتصل بها .

وسائل البحث عن الله سبحانه وتعالى العقل ، فهو الرائد بمسالك الطريق الدالة على الله ... وما الإنسان إلا بهذا العقل الذي اختصه الله به

وكرّمه ، ورفع به منزلته بين المخلوقات وبهذا العقل قد استأهل أن يكون خليفة الله في الأرض وأنه يرى في نفسه القدرة على حمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... والعقل الذي يحمله الإنسان هو سلاح ذو حدّين قد يكون مصباحا يضيء أو شهابا يحرق أو يحترق يستطيع العقل أن يعرف الله معرفة واضحة إذا وقف من هذا الوجود موقف المتأمل البصير الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، ويستدل على الخالق بالمخلوق فتلك هي وظيفة العقل في التعرف على الله ، وبهذا العقل المتزن الرشيد عرف العارفون ربهم وتعرفوا عليه وآمنوا به ..

كيف يبحث الإنسان عن معرفة الله في هذه الكائنات ؟ لهذا الوجود المحيط بنا وجهان ، وجه ظاهر يلقاه المرء بحواسه ويتجاوب معه بمشاعره ، ووجه آخر خفي لا يقع في مجال الحس والمشاهدة فلا يستجيب لدعوة الحواس ، ولا يكون في متناول العقل ، وإنما يحس به الإنسان ببصيرته ...

هذا الوجود بوجهيه الظاهر والخفي قد شغل الإنسان بالبحث منذ برز إلى الوجود عن مالك هذا الوجود ومدبّر أمره ومصرف شؤونه . وفي الإنسان نوازع نفسية تدعوه إلى البحث عن الله وهو إذ يستجيب لهذه النوازع إنما يستثير كل قواه ، ويستخدم كلّ ملكاته الى أن يتعرّف إلى الله سبحانه وتعالى ... فالإشارات التي تشير إليه إنما تنبعث من كل موجود من النبتة الصغيرة الى النخلة الباسقة ، من النملة التي تدب على الأرض إلى النسور المحلقة في الهواء ، ومن كل كائن في الأرض إلى كل كوكب ونجم في السماء ، ففي كل كائن من هذا الوجود أكثر من إصبع تشير الى الخالق العظيم وتدعو إليه .

فالطريق إلى الله إذاً متعدد المناهج والمسالك فإذا أردنا أن نتعرف إلى الله فلا نجد أكمل من هذا المنهج الذي يجعل الوجود كله كتابا يقرؤه الإنسان في حروفه وكلماته وأسطره وصفحاته وفصوله وأبوابه فكل هذه الآيات تدل على وجود الله وتتحدث عن جلاله وعظمته وقدرته وحكمته .

فهذا الكتاب ـ أي كتاب الطبيعة ـ واقع تحت أنظار الناس جميعا ليس لأحد عذر إن هو أغلق حواسه ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة كي لا يعرف الله ، ولا يتعرف اليه ، فمن فعل هذا أهدر آدميته وتنكر لإنسانيته وأسقط حسابه من عالم الناس ، ودخل إلى عالم الحيوان الأعجم ...

إنَّ منهج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله والإستدلال عليه ، والتعرف عليه هو هذا المنهج الفطري الذي سلكه الإنسان . فقد دعا الإسلام إلى النظر في ملكوت السموات ، والأرض وجعل هذا النظر والتفكر هو المنهج القويم لمن يريد أن يعرف الله ويؤمن به . وقد أشار القرآن الكريم إلى أكمل الناس عقلا وأرشدهم سبيلا فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ (سورة آل عمران) وقال أيضا مشيرا إلى أسرار حكمته وكمال قدرته : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ (سورة الغاشية) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البينة التي تدعو العقل الى استعمال حقه في هذا الوجود الذي نشاهده .

آثار الله سبحانه وتعالى تتجلى لنا في هذا الوجود الذي تعمل فيه حواسنا وعقولنا دون أن تقع في مجال الحس والإدراك ، ولهذا فرض الله سبحانه وتعالى معرفة ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله على العباد من خلال آثاره في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين للناس جميعا أنه الحق .

فبذلك نعرف الخالق العظيم .

فكيف يكون الموقف مع الخالق العظيم ، والمصور المبدع وما أبدع وصوّر في هذا الوجود من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى ، فماذا تأخذ ، وماذا تدع ؟ ومن أين تبدأ ، وكيف تنتهي ؟ فتجد نفسك بعد النظر في

المخلوقات ،والتأمل فيها متشوقة الى رؤية هذا الخالق العظيم . إذا أردت أن تعرفه فادرس هذا الوجود عندئذ تتعرف إلى الله سبحانه وتعالى ، فالله قد مهّد للناس الطريق إليه ، وأقام على جوانبه معالم الهداية والرشاد فنظرة الى البحر فيها كل معالم الجلال والعظمة تكفيك عن هذا الوجود كله .

أما إذا كنت ممن يتعمقون في بحث المخلوقات فبحسبك قطرة ماء ، قطرة واحدة بالتحديد ، وعالجها بوسائل العلم الحديث فسترى أنها عالم كبير مليء بالأسرار .

إن أدنى المخلوقات منزلة وأهونها شأناً وأصغرها جرماً لتحمل كل آيات الإبداع للمبدع الذي تذهل له العقول وتحار فيه الألباب ولست أجد أروع وأبلغ من القرآن الكريم في الدفاع عن قضية الألوهية ، وإفحام المجادلين وآتي بمثالين منه :

الأول : أدعوك أيّها القاريء ـ أن تنضمّ الى هذا المجتمع الذي يجتمع فيه الناس جميعا الذي تحمله الآية إلى كل عقل ، وأدعوك ثانيا أن تجهّز نفسك لهذا الجمع فلا تذهل عن وجودك ، فإنك مطالب بأن تسمع وتعي ، وأن تنتهي إلى رأي فيما سمعت ووعيت أمستعد أنت ؟ فهذا صوت الحقّ يهتف بك وبالناس جميعا استمع الى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ (سورة الحج) . ذبابة واحدة لا غير إنها تقف وحدها في جبهة والناس جميعا في الجبهة المقابلة لها إنها توضع في كفة الميزان والناس جميعا في الكفة الأخرى ، وإنها لترجح بهم جميعا . الذبابة تتحدى الناس جميعا في كل أمة ، وفي كل زمان تتحدى العلم الذي صعد بالناس إلى كواكب السماء ، هؤلاء الناس لن يخلقوا ذباباً واحداً ولو اجتمعوا له . هذا أنتم أيها الناس ، وهذه الذبابة هاتوا ما عندكم من علم ، واجمعوا ما عندكم من العلماء ودوروا مع الزمن دورات ودورات فلن تخلقوا ذباباً . هذا الذباب إن سلبكم شيئا عَلِق برجلهِ أو بجناحه ، أو بفيه ماذا أنتم صانعون

معه ؟ لن تستطيعوا أن تستنقذوه منه لقد أفلت بصيده - إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .

الذباب، ضعيف كيف يسلبكم شيئا تعجزون عنه ضعف الطالب والمطلوب .

المثال الثاني : بيّن الله سبحانه وتعالى نشأة الانسان وتكوينه وتطويره حتى أبرزه إلى الوجود على هذه الصورة البُديعة الشكل في آيات بينات من القرآن الكريم ، وعرضها على الإنسان ليعرف عنصره المادي الذي خلق منه وهو التراب ، ومنه ينمو ، وركّب الميول فيه إلى الذي تتطلبه ذاته فكانت هذه الآيات الكريمة مظهرا من مظاهر عظمته وقدرته وحكمته ، لعل هذا الإنسان يثوب الى رشده ويتدبرما في الكون من آيات الله ، وفي نفسه وهذا أقرب باعث على إيقاظ الإيمان بالله والإعتراف به قال تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ يكفي أيّها الناس أن تنظروا إلى أنفسكم فإنها عالم رحيب وكون فسيح تمعنوا في حياتكم من وجودكم نطفة الى أن صرتم رجالا تجدون آيات بيّنات دالات على قدرة الخالق العظيم .

تدبروا كيف كان هذا الإنسان نطفة ؟ وكيف خلق ؟ ومن ثمّ عمّر الأرض وتسلط على حيوانها ونباتها وجمادها وكيف كان قبل وجوده ، وما هو عليه الآن من الصنع العجيب والتركيب المحكم والحواس المرهفة المتناسقة في إحكام بديع وإتقان عجيب ؟ وكيف زود بالعلم والمعارف والإحساس والشعور حتى صار يرى الأشياء المخفية عليه بعقله ؟ من الذي جهزه بهذه الأشياء كلها وخصّه بوسائل الإدراك حتى فضل على سائر المخلوقات الأرضية وكيف نفخ فيه الروح ؟ .

يجب على الإنسان أن ينظر الى أصل نشأته وتطوره في الحياة ، فإنه يرى أن يداً حكيمة قادرة أوجدته من العدم إلى الوجود على هذه الصورة الرائعة من الحسن والجمال التي لا وجود لشبه بينه وبين التراب وقد جعله الله خليفة على هذه الأرض . كيف لا يولي هذا المخلوق وجهه إلى فاطره ومصوره ولا يدين لخالقه بالطاعة والولاء ؟ قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا**

الإنسان من سلالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (سورة المؤمنون) السلالة هي صفة ماء مني آدم وهو من طين ، أو السلالة هي أصل الإنسان ، وهي السلسلة التي يمتد بها أصل الشيء حتى يصل ما بين مبدئه وغاياته ، والآية الكريمة تشير إلى أن الانسان في تكوينه وتطويره وخلقه قد مر بأطوار كثيرة بين عالم التراب والنبات وسار مسيرة طويلة في سلسلة منتظمة الحلقات، من الطين الى الحمأ المسنون كما قال سبحانه وتعالى على لسان إبليس لعنه الله ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون** ﴾ (سورة الحجر) قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾ .

ما الإنسان إلا هذه النطفة وما اشتملت عليه من قوّة عاقلة ناطقة مبصرة سميعة مريدة . كانت النشأة الأولى لهذا الإنسان من التراب ، وفي هذا التراب كانت تكمن جرثومته الأولى كما تكمن النطفة في قرار مكين ، ولكن شتّان ما بين الجرثومة التي تكمن في التراب والنطفة التي تستقر في الرحم ، فالجرثومة من مادة التراب والنطفة كائن بشري . وفي مواجهة المراحل الكثيرة التي مرّ عليها الإنسان كان كالنبات حيث تخرج الحبة نباتاً مثل النبات جاءت منه النطفة التي خلق منها الإنسان وإن بدت في مرأى العين مجرد ماء فهي في حقيقتها ماء مشوب بأشياء أخرى أودعتها فيه قدرة الله جل وعلا ، كما أودعت في البذرة صورة الشجرة ولون زهرها ، وطعم ثمرها كذلك هذه النطفة قد حملت في كيانها صورة الإنسان ولونه ومستوى إدراكه ، ومستودع عواطفه ومشاعره بحيث يتميز كل إنسان على غيره من بني جنسه في طباعه وعواطفه . قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** ﴾ . الأمشاج هي الأخلاط مزج الشيء خلطه . خلق الإنسان للإبتلاء ، ولم يخلق عبثا لأنه حمل أمانة التكاليف التي لم تستطع السموات والأرض حملها فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .

هذه النطفة تخرج من بين الصلب والترائب . صلب الرجل هي فقار ظهره والترائب هي موضع القلادة من صدر المرأة . قال تعالى : في (سورة الطارق) ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ كل إنسان معه عقله فلينظر بهذا العقل الى قدرة الله في ذاته والأشياء مودعة فيها من العقل والسمع والبصر وتراكيبها المحكمة ، فإنه لو نظر بعين عقله لعرف طريق الحق وسلك مسلك الهدى . فمن أين خلق الإنسان والعقل والتفكير ؟ خلق من ماء دافق ...

هذه النطفة خلق منها الذكر والأنثى قال تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من مني تمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى** ﴾ (سورة القيامة) هذه الآية الكريمة دليل من الأدلة الكاشفة على قدرة الله هي بعث الموتى من القبور . الإنسان الكافر ينكر البعث ويستبعده ، فلينظر إلى قدرة الله كيف خلقته ؟ ليعلم من أين بدأ ؟ وكيف صار ؟ والى أين ينتهي ؟ فخلق فسوى خلق الله تلك العلقة صورا وأشكالا فسواها في تركيبها العجيب المحكم وسوّاها حالا بعد حال ، وخلقا بعد خلق حتى كان منها هذا الإنسان العاقل المفكر الذي يملأ الدنيا خيرا وشرا ، وبعد ما ينتهي أجله فيموت ، وينتقل من هذا العالم الى العالم الباقي عالم الجزاء والحساب قال تعالى : ﴿ **ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة** ﴾ (سورة الحج) حيث كنتم لا وجود لكم ولا أثر يدل عليكم . ثم خُلِقْتُمْ من تراب كما تنبت الشجرة ثم كان تناسلكم في الأرض كما تتوالد وتتناسل الكائنات ...

قال تعالى : ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ (سورة المؤمنون) عبر القرآن بلفظ ﴿ **جعلناه نطفة** ﴾ والجعل دون الخلق إذ هو وظيفة من وظائف المخلوق تتحرك النطفة نحو غايتها إلى تكوين مولود بشري سوي بالتنقل من النطفة إلى علقة إلى مضغة الى

هيكل عظمي معرّى من اللحم إلى هيكل بشري يكسوه اللحم إلى جنين إلى طفل ...

من المتوقع أن تكون الحركة للنطفة من الجعل لا من باب الخلق لأن النطفة مجعولة ، وكل ما تعطيه هو من المجعول ولكن القرآن عبّر عن لفظ الجعل بلفظ الخلق ، فالنطفة لم تجعل علقة ، وإنما خلقت علقة ، ثمّ ﴿ **خلقنا النطفة علقة** ﴾ والعلقة لم تجعل مضغة وإنما خلقت مضغة ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما** ﴾ والمضغة لم تجعل عظاما وإنما خلقت عظاما فما سرّ هذا ؟ والله أعلم أن كلّ عملية من هذه العمليات هي خلق جديد لا يملكه إلاّ الله الخالق جل وعلا ، وهذا الخلق مما استأثر به الله سبحانه وتعالى وحده ، أبى على خلقه أن يشاركوه في هذه الصفة ، وإن كان بعض المفسرين يفسرون الخلق بالصيرورة بمعنى خلقنا النطفة علقة أي صارت النطفة علقة . قال تعالى : ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ إشارة إلى نفخ الروح فيه بعدما وصل إلى هذه الصورة .

وقوله : ﴿ **تبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ وهو تمجيد لله وتسبيح لجلالته وعظمته ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميّتون** ﴾ هذه حقيقة واقعة يعلمها جميع الناس وهي تنبيه وإيقاظ للنائمين الذين هم في خوض يلعبون والموت ليس هو نهاية الحيّ ، بل انه مرحلة من مراحل وجوده وموقف يتحول به من عالم الى عالم آخر فيه حساب وجزاء ...

خاطب الله الإنسان المكذّب بالبعث بقوله : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدّرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ (سورة المرسلات) هذه الآية الكريمة دعوة إلى هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث أن يعيدوا النظر في موقفهم هذا حتّى يخلّصوا أنفسهم من هذا الويل المطل عليهم فتلك هي فرصتهم الأخيرة ، وإلا أقلعت سفينة النجاة وتركتهم يغرقون في أوهامهم حتى يدخلوا النار ، كيف يستبعد هؤلاء المكذبون البعث ؟ ألم يخلقهم الله من ماء مهين ؟ فما الفرق بين خلقهم من هذا الماء المهين ، وبين بعثهم من التراب .

الماء المهين هو ماء الرجل ليس كما يبدو في ظاهر الأمر شيئا محقرا أشبه بفضلات الإنسان ، وإنما هو في حقيقته حياة تضم في كيانها هذه المخلوقات البشرية . لهذا صانه الله وأودعه القرار المكين الذي أعدّ لحفظه ، قال تعالى : ﴿ **فقدّرنا فنعم القادرون** ﴾ أي أحكمنا مسيرة هذه النطفة في الرحم وتقلبها فيه من طور الى طور وذلك بقدر معلوم ، ﴿ **فنعم القادرون** ﴾ هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على ذاته الكريمة التي لا يحسن الثناء عليها ولا يوفّيها حقّها إلاّ هو سبحانه وتعالى وفي هذا يقول الرسول ﷺ في تمجيد ربّه والثناء عليه : « **سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك** » (1) .

---

1) أخرجه مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ ـ والترمذي والنسائي عن عائشة

ـ أقسام التوحيد ـ

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

1 ـ توحيد الربوبية 2 ـ وتوحيد الألوهية 3 ـ وتوحيد الأسماء والصفات .

1) توحيد الربوبية : الرب له أربعة معان : هو الإله والسيد ، والمالك والمصلح ، كل هذه الأسماء موجودة في رب العالمين ، ومعنى العالمين أن يراد به كل موجود سوى الله . وتوحيد الربوبية هو الإقرار بأن الرب خالق كل شيء مثل الخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، وتدبير الأمور وإنزال الغيث ونحو ذلك .

وهذا النوع من التوحيد قد أقرّ به الكفار على عهد محمد ﷺ ولم يدخلهم في الإسلام قال تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله** ﴾ (سورة المؤمنون 75) . ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ (سورة لقمان 24) . يعترفون بأن هذه الأشياء خلقها الله ولكنهم لا يؤمنون به ، ويعبدون أوثانا ويقولون تقربنا إلى الله زلفى . وليس للعالم صانعان متكافآن في الصفات والأفعال ...

والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى جميع مصالحه ومنافعه التي بها كماله وسعادته في الدارين يهديه إلى اجتناب المضار التي فيها فساده وهلاكه فيجتنبها . وهذا التوحيد توحيد الربوبية حق لا ريب فيه ... وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تنتظم هذا الإسم الجليل قال تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ (سورة الفاتحة) . وقال : ﴿ **لاإله إلا هو عليه توكلت ، واليه متاب** ﴾ (سورة الرعد 31) . وقال : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ (سورة هود 161) . وقال : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت** ﴾ (سورة الفرقان 58) . وقال : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، ربّ المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾ (سورة المزمل 8) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ربوبيته .

2) توحيد الألوهية : هو توحيد الله بأفعال العباد التي تعبدهم بها ، وشرعها لهم مثل الدعاء والذبح والنذر والإستعانة والإستغاثة الى غير ذلك وهذا النوع من التوحيد هو الذي جحده الكفار وكانت الخصومة فيه بين الرسل وأممهم من لدن نوح إلى نبينا محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ (سورة الزمر 62) .

والشرك أنواع : يجب أن يكشف الغطاء عن هذه الأنواع . والله عز وجل ما أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى إلا ليعرف ويعبد ويوحّد ، ويكون الدين كله لله ، والطاعة كلها له ، والدعاء له وحده . قال تعالى في (سورة الذاريات) ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ . وقال : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق** ﴾ (سورة الحجر) . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على توحيده وقدرته . ولقد أوجب الله على المسلم المكلف أن يعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأن يعبده وحده لا يشرك به شيئا وأن يقوم الناس له بالقسط ، والقسط هو العدل ، ومن أعظم العدل التوحيد ، ومن أقبح الظلم لله سبحانه وتعالى الشرك . قال تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ (سورة لقمان 12) . والشرك بالله أكبر الكبائر لا يغفره الله . وإذا عرفت أن التوحيد هو العدل ، والشرك هو الظلم والجورفحينئذ تعرف أحكم الحاكمين وأعلم العالمين . وتعلم أيضا أن ما فرضه الله على عباده من العبادات والطاعات حق ، وما حرم عليهم من الفواحش والمخالفات لأحكامه فهو في صالح الناس وتفاوت الطاعات والمعاصي يكون على حسب مراتب الإيمان فلما كان الشرك منافيا للتوحيد كان أكبر الكبائر على الإطلاق . وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله لأهل التوحيد . وأبى الله سبحانه وتعالى أن يقبل من المشرك عملا ، أو يقبل فيه شفاعة ، أو يستجيب له في الآخرة دعوة . إن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له ندا من خلقه ، وهذا غاية في القبح والظلم . هل يشرع الله

سبحانه وتعالى التقرب إليه بالشفعاء والوسائط كما يفعل الناس مع ملوك الدنيا ؟ هذا يستحيل على الله قال تعالى : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (سورة المدثر 38) . يمتنع أن تأتي به شريعة سماوية ولهذا لا يغفر الله الشرك من دون سائر الذنوب كما قال في كتابه الكريم : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ (سورة النساء 47) ...

الشرك أنواع : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله هذا الشرك يسمى شرك . ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما وصفه به رسوله الكريم ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . شرك التعطيل هو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون ، إذ قال لسيدنا موسى عليه السلام : وما رب العالمين ؟ وقال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه كاذبا** ﴾ (سورة غافر 37) . فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل .

والشرك الثاني هو شرك الدعوة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون** ﴾ (سورةالعنكبوت 65) . وأما الشرك الثالث فهو شرك المحبة ، قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبُّونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله** ﴾ (سورة البقرة 164) . والشرك الرابع : شرك الإرادة والقصد ، قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** ﴾ (سورة هود 15) . وينقسم الشرك إلى أكبر وأصغر : الشرك الأكبر هو اتخاذ الند إلى الله سبحانه وتعالى بأن يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كمحبة الله ، أو يذبح له أو ينذر له ؛ أما الشرك الأصغر فهو اتخاذ كل وسيلة يتطرق بها إلى الشرك الأكبر ، كقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت ، وكذلك الرياء في العبادات والأعمال

والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وهـذا من الله ومنـك وأنـا بـالله وبـك . ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك .

والفرق بين الشرك الأكبر والأصغر : هــو أن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبـه ، وأمـا الشرك الأصغر فتحت مشيئـة الله . والشرك الأكبر محبـط لجميع الأعمال . وأما الشرك الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قـارنـه الشرك الأكبر مخرج من الملة الإسلامية ، وأمـا الشرك الأصغر فلا يخرج منهـا . إن صـاحبـه الشرك الأكبر خـالـد في النـار ، وأمـــا الشرك الأصغر فكغيره من الذنوب وقيل إنه لا يغفر لصاحبه إلاّ بالتوبة كالشرك الأكبر والله أعلم ..

3) توحيد الأسماء والصفات

إن توحيد الأسماء والصفـات هو الإيمـان بكل مـا ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحـة من صفـات الله ، التي وصف بهـا نفســه على الحقيقــة ، وعــدم التعرض لهــا بشيء من التكييف أو التمثيـل أو التشبيــه والتأويل أو التحريف أو التعطيل ، وهو الإعتقاد بأن الله ليس كمثلـه شيء وهو السميع البصير . قال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد** ﴾ (سورة الاخلاص) .

مفهوم الألوهية في الشريعة الاسلامية

من المشكلات التي تواجه العقل - مفهوم الاله وتصوره - فقد اصطدم العقل بهذه المشكلة اصطداما كبيرا ، ووقف منها موقف الحائر التائه الذي ضل الطريق وغرق في مجاهل الصحراء .

إن الاستدلال على وجود الله أمر لايعجز أي عقل أن يصل اليه ، وأن يبلغ مرحلة اليقين منه إذ تقوم في مواجهة العقل دلالات واضحة ، وشواهد ناطقة تحدّث عن وجود الله ، وتشهد بجلالته ، وعظمته وقدرته ولكن العقل لا يرضى إلاّ أن يشهد الذات وأن يتعرف عنها ومن أجل هذا أشرف على منطقة الخطر ، وصار يتيه ويدور هنا وهناك بلا جدوى ...

ماذا في القرآن عن ذات الله ؟ الذات الالهية في القرآن ليست ذاتا مبهمة أو مجهولة كما أنها ليست محدودة مجسّدة ... هي ذات لا كالذوات التي يراها الحس أو يتخيلها الوهم، لأنها لو وقعت في دائرة الخيال - مهما امتد واتسع كانت بهذا المعنى محددة مقيدة وذات الله مع أنها فوق أن تدرك، وفوق أن تحدّ - قد وصفت في القرآن بصفات كثيرة ، كالإرادة والعلم ، والقدرة وغيرها ، وهي صفات كاملة الكمال المطلق ... ومع هذا فلا تضاف هذه الصفات إلا لذات الله . جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات كقوله عز وجل : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ . ففي هذه الآيات تعريف بذات الله وأنها تخلق وتعلم وكقوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (سورة البقرة 184) . فالله سبحانه وتعالى مريد ، وبإرادته تتعلق مصائر الأمور وكقوله تعالى : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾ (سورة الرعد 10) . في هذه الآيات يعلم ، فهو عالم ، وهو حكيم ، كل شيء عنده بمقدار ...

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوّي العزيز** ﴾ (سورة الشورى 17) . فالله لطيف وقوي

وعزيز وكقوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ (سورة المجادلة 1) . وذات الإله ذات تسمع كل شيء ... وترى كل شيء ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (سورة آل عمران 66) . وإن أكثر فواصل القرآن تنتهي غالبا بصفة من صفات الله تعالى ، أو بالمزاوجة بين صفتين من صفاته فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليما** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطا** ﴾ . ومن النوع الثاني وهو الأعم الأغلب قوله تعالى : ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ . ﴿ **إن الله كان عليا كبيرا** ﴾ . ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ . ﴿ **لاإله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ . ﴿ **إن الله كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ . وكلما ذكرت ذات الله ذكرت معها هذه الصفات ، وأكثر من هذا فقد جاء في القرآن الكريم آيات تذكر للذات عينا وأيدٍ وأعينا ... قال تعالى : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ (سورة طه 39) . وقوله : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾(سورة الفتح 10) . وقوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ (سورة المائدة 66) . وقوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾ (سورة هود 37) .

كذلك وردت في السنة المطهرة أحاديث تذهب هذا المذهب . كقول الرسول الكريم ﷺ « **خلق آدم على صورة الرَّحمن** » وقوله ﷺ « **لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع ربّ العزة قدمه فيها فتقول قط ، قط . وعزتك فيُزوى بعضها إلى بعض** » (1) وقوله : « **قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء** » (2) ...

---

1) حديث صحيح . كما رواه الشيخان والترمذي ـ عن أنس ـ

2) ورد بغير هذا اللفظ ـ صحيح ـ رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجة . والحاكم ـ عن النواس ـ

فهذه الآيات وتلك الأحاديث وأمثالها لا يمكن أن يقرأها قارىء ، أو يستمع اليها مستمع ، دون أن تتحرك في ذهنه صور لهذه الصفات التي يوصف بها الله ...

وقد كان السلف الصالح من الصّحابة والتابعين رضوان الله عليهم - يتلون كتاب الله ، ويسمعون إلى آيات الكتاب وأحاديث الرسول فما وقفوا موقف تساؤل أو حيرة أمام صفة من صفات الله ، ولا وقع في تفكيرهم أن الذات المقدسة شيء ، وأن الصفات شيء ، أو أنهما وجهان لحقيقة واحدة ، أو غير هذا مما دار حوله الجدل واشتد فيه الخصام بين جماعات المسلمين بعد أن مضى عهد الراشدين ، ودخلت في الإسلام مذاهب وأراء وفلسفات مع الذين دخلوا في دين الله .

يقول المقريزى : « إعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ رسولا إلى الناس جميعا وصف لهم ربهم سبحانه بما وصف به نفسه الكريم في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله ﷺ - أحد من العرب قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة ، والصيام والحج وغير ذلك مما فيه أمر ونهي ، كما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار ...

ولو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه - ﷺ في أحكام الحلال والحرام وفي الترغيب والترهيب ، وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمّنته كتب الحديث ومجامعها ومسانيدها وجوامعها .

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ، ولا سقيم عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم - أنه سئل ﷺ - عن معنى شيء مما وصّف الرب - سبحانه وتعالى - نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، على لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك ،

وسكتوا عن الكلام في الصفات . نعم ... ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ... وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية ، من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا وهكذا أثبتوا - رضي الله عنهم - ما أطلقه الله سبحانه وتعالى على نفسه الكريمة من الوجه ، واليد ، ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا - رضي الله عنهم - بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا .. ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت ...

ولم يكن عند واحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد - ﷺ - سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطريق الكلامية ولا مذهب الفلسفة إنتهى خطط المقريزي .

وهكذا مضى عهد الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - دون أن يجد أحد منهم في صدره ثائرة شك فيما ورد في القرآن والسنة من الصفات ، وصف الله - سبحانه - بها ذاته ... بل صح فهمهم لتلك الصفات على الوجه الذي ينزه الله تعالى عن صفات المخلوقين ، ويجعل لذاته الكمال المطلق ولهذا وقع إجماعهم - دون قصد - على أن يسألوا رسول الله عنها ، وهم الذين لم يدعوا أمرا يتصل بأي شأن من شئون الدين ، لم ينكشف لهم في جلاء ، إلا سألوا الرسول عنه ... فكيف يكون سكوتهم هذا السكوت الإجماعي عن هذا الأمر العظيم الذي هو أصل العقيدة وصميمها ؟

وهذا لايصح لنا أن نسأل : كلّ ما ذكر عن ذاته وصفاته في كتاب الله . وفي حديث الرسول - من الوضوح والجلاء - بحيث لايحتاج الى سؤال أبدا ؟ ونستطيع أن نقول في الإجابة على ذلك : نعم ، فان مفهوم الألوهية حين يعرف الإنسان الطريق اليه ، وحين يتلقاه بقلبه ، ويستقبله بفطرته لواضح أشد الوضوح .. إذ هو الكمال المطلق ، الذي سمح للإنسان أن ينطلق إلى ما لا نهاية له في السمو والإرتفاع بمقام الذات ... وكلما إنتهى إلى غاية مدّ بصره الى غيرها وهكذا أبدًا ﴿ **ليس كمثله شيء وهو**

السميع البصير ﴾ (سورة الشورى) . وفي هذا المفهوم عاش الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - لا يسألون : ما الله ؟ وما عينه ؟ وما قدرته ؟ وما علمه ؟

فلقد هدوا بفطرتهم أن لا جواب لهذه الأسئلة إلا ما يجده المرء في قلبه ، وفي كيانه كله ، من تقديس الله وجلاله ، ونسبة الكمال المطلق كله إليه !

ولقد هدوا بفطرتهم أيضا إلى أن العقل لا يستطيع أن يدرك كنه صفة من هذه الصفات ، ولا أن يمسك بها على أية صورة ، فإن أيّ صورة لن تكون هي أبدا ما دام الكمال المطلق هو صفتها .

إذا كانت فطرة الإنسان على الصحة والسلامة لا تتجه أبدا إلى الجدل السقيم الذي لا يلد شيئا نافعا ، ولا يثمر ثمرا طيبا .

وبهذه الفطرة السليمة إستقبل العرب الاسلام ، وكانت تعاليم الإسلام كلها في العقيدة ، وفي الشريعة جميعا ومن هنا ندرك السّر الذي أمسك به العرب - صحابة وغير صحابة - عن أن يسألوا عن ذات الله وأن يبحثوا في صفاته ، لأن ذلك أمر فوق أن يوجد له جواب ، أو أن يحيط به عقل ...

ومن هنا ندرك السر الذي أمسك بالعرب - مسلمين وغير مسلمين - أن يواجهوا في القرآن وأن تقع منهم محاكاة له .. لأن محاولة كهذه المحاولة عبث وسفه لا يرضاها عاقل ، ولا يتجه اليها خصوصا إذا كان القرآن في مستوى يستحيل على بشر أن يطاوله ...

وإن الإيمان الذي يقوم على هذا الإحساس بالعجز المطلق عن إدراك حقيقة الذات المقدسة هو الإيمان الراسخ الذي لا يتأثر بتيارات الفكر وتقلبات التفكير ، إنه إيمان مستقر في الأعماق ، حيث لا أمواج ولا تيارات ..

☆ معنى الحمد :

ومن الصفات التي اتصف بها الله سبحانه وتعالى الحمد ، والحمد هو الثناء باللسان ، وبالفعل هو تعظيم المنعم على إحسانه إلى عباده وهو الشكر .

وأهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم من محبة الله ما لا يماثلها فيها غيرها ،ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله ، حمدا خاصّا به فهذا حمد الشكر ، أما حمد الفعل فهو خلق السموات والأرض وما بينهما ، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته ، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة ، فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود ، ولهذا كانت العبادة مشتملة على تحميده وتوحيده وأفضل الذكر لاإله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ، الله سبحانه وتعالى له الملك المطلق ، وحقيقة الملك إنما يتم بالعطاء والمنع ، والإكرام والإهانة ، قال تعالى : ﴿ **قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج اللّيل في النّهار وتولج النّهار في اللّيل وتخرج الحيّ من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ (سورة آل عمران 27.26) .
وقال : ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن** ﴾ (سورة الرحمن 27) . يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويكشف غما ، وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغني فقيراً ويجبر كسيراً ، ويشفي مريضا ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويعز ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويعطي سائلا ، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ، ويداول الأيام بين الناس يرفع أقواما ويضع آخرين ، يسوق المقادير التي قدرها إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر ، بل كل منها قد أحصاه كما أحصى كتابه وجرى به قلمه ، ونفذ فيه حكمه ، وسبق له علمه ، فهو المتصرف في الملك كله وحده تصرف مالك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ، ولا يعارض فيه معارض ، فتصرفه في الملك دائر بين العدل والإحسان ، والحكمة والمصلحة ، والرحمة ، فلا يخرج تصرفه عن ذلك .

الملك والحمد في حق الله تعالى متلازمان ، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود في ملكه ، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ، فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك .

فتبارك الله يشمل ذلك كله ، ولهذا ذكر هذه الكلمات عقب قوله ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ (سورة الاعراف 53) . يجب على المؤمن أن يعرف الطريق الموصلة إلى الله عز وجل وهي شريعته المنتظمة لأمره ونهيه ، ثم تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم ، فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ، قال تعالى : ﴿ **يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ (سورة غافر) . وقال تعالى أيضا : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ (سورة الشورى 50) . ولا روح إلا فيما جاء به الرسول ﷺ ولا نور إلا في الإستضاءة به ، وسماه الله شفاء قال تعالى : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ (سورة فصلت 43) .

إن عبادة الله تُبنى على قاعدتين أساسيتين : هما حب لله كامل ، وذل تام له . ومنشأ هذين الأصلين هي النعمة الكبرى التي امتن الله بها على عباده ، وهي بعثة سيدنا محمد ﷺ بهذه الرسالة العظيمة الخالدة الخاتمة لجميع الرسالات السماوية ...

وإذا بنى المسلم سلوكه على محبة الله تعالى ، وخضوع تام له ، لم يظفر به الشيطان إلا على غرة وغيلة ، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ، ويتداركه برحمته . وإنما تستقيم له محبة الله باستقامة قلبه وجوارحه ، والإستقامة تكون بسببين : أحداهما أن تتقدم محبة الله على جميع محاب الدنيا ، وإذا تعارض حب الله مع حب غيره ، فيجب أن يسبق حب الله على غيره ، وما أسهل هذا بالكلام والإدعاء وما أصعبه بالفعل ! ، ونحن نتكلم عن محبة الله دائما ، فإذا تعارضت مع مصالحنا الدنيوية وشهواتنا وأهوائنا قدمناها على محبة الله ، وهذا هو الواقع في المسلمين الحاضرين إلا القليل الذين يقدمون محبة الله وقليل ما هم ، فإنّ محبة الله لم تكن متمكنة

من النفوس ولا هي مؤثرة عليها وسنة الله فيمن هذا شأنه أن ينزع الله من قلبه محبته ، وينقّص عليه محبة شهواته ولا ينال منها شيئا إلا بتنكيد وتنقيص جزاء له على ايثار هواه على الله سبحانه وتعالى ، وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع انّ من أحب شيئا سوى الله عذب به ، وأن من خاف غير الله سلط عليه ، وأن من اشتغل بغير الله كان شؤما عليه ، ومن آثر غير الله لم يبارك له فيه ، ومن أرضى غيره بسخط الله أسخط عليه .

واستقامة القلب تكون بتعظيم أمر الله ونهيه ، فإن الله ذم من لا يعظمه ، ولا يعظم شريعته قال تعالى : ﴿ **ما لكم لاترجون لله وقاراً** ﴾ (سورة نوح 13) . أي ما لكم لا تخافون عظمة الله تعالى ...

والمؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسوله إلى الناس كافة ، ومقتضاها الإنقياد لطاعته ، وطاعة أوامره عندئذ يكون صاحب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق ، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق . ويجب على المسلم أن يعلم أن تفاضل الأعمال عند الله تكون بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وتوابعها ، وهذا العمل هو الذي يكفر السيآت تكفيرا كاملا ...

التوحيد نوعان

التوحيد نوعان : نوع في العلم والإعتقاد ، ونوع في الإرادة والقصد ، ويسمى الأول التوحيد العلمي ، والثاني التوحيد القصدي والإرادي ، لتعلق الأول بالاخبار والمعرفة والثاني بالقصد والإرادة ... (ابن القيم) .

قال عبد الله بن مسعود من أراد أن ينظر الى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا يكلف الله نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ هذه الآيات محكمات من (سورة الأنعام 154) . وفيها عشر مسائل أولها النهي عن الشرك .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : يا معاذ .. أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا ، قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا ـ أخرجاه في الصحيحين ـ

يحتوي هذا الحديث على عدة مسائل منها العبادة لله ،والعبادة من التوحيد من لم يعبد الله لم يكن موحدا ، والثانية التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ .

ليس الإيمان بالظلم وهو خلط به والظلم هو الشرك بالله . الإيمان المصفى من الشرك هو الإيمان الذي يقبله الله من أهله ، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى ويجعلهم في أمن وسلام يوم يكون الكافرون في فزع وكرب . عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من شهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل . أخرجه الشيخان .

ومعنى لاإله إلا الله : طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي ما سوى الله ، ويثبت الاسم الشريف ، وهذا هو حقيقة التوحيد النفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون نفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات ...

من حقق التوحيد دخل الجنة : قال تعالى ﴿ **إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** ﴾ (سورة النحل) إن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده أي يعوض مجتمعا يؤمن بالله بين مجتمعات كلها على الشرك والكفر ، وإن إبراهيم مع ايمانه قانتا لله أي خاشعا لله ، وكان حنيفا أي مائلا عن طرق الضلال والكفر ﴿ **ولم يك من المشركين** ﴾ أي لم يشرك بالله أبدا وقال تعالى في (سورة المؤمنون) : ﴿ **إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ ...

هؤلاء الذين ذكرتهم الآية الكريمة إنهم على صفات تؤهلهم لدخول الجنة ، فهم من خشية ربهم وخوفهم منه على إشفاق دائم من أن يعصوا أو

يفعلوا منكرا . ولهذا يؤمنون بأيات ربهم ويعملون بها ويهتدون بهديها قد خلت نفوسهم من أثر الشرك ، وكانوا على خشية ومراقبة دائمة لله حتى إنهم يفعلون ما يفعلون من خير ويقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات لا تزايلهم الخشية ، ولا يبارحهم الخوف من الله ومن أنهم على تقصير في حقه تعالى ، وفيما يجب له من طاعة وولاء . إنَّ هذه الصفات المذكورة في الآية تلتقي جميعا في قلب المؤمن بالله إلا أن المؤمن على حظوظ مختلفة منها فبعضهم تغلب عليه صفة الخشية من الله ، وبعضهم يؤمن بآيات الله ، ولكن تغلبه نفسه ، فلا تتحقق الخشية كاملة من الله في قلبه ، وبعضهم يعترف بوجود الله ويقر بوحدانيته إقراراً عقليا ، كالفلاسفة ونحوهم . ولا ينقلون عن الرسل عليهم السلام ، ولا يأخذون مما معهم من آيات الله ، وبعضهم يؤمن بالله ، وبآيات الله ، وبرسل الله ثم يؤتون ما أتوا من طاعات وعبادات وهم في صراع مع أنفسهم ، وفي خوف من لقاء الله أن يكونوا قصَّروا فهؤلاء جميعا يمكن أن يتجهوا إلى الخير ويجاهدوا أنفسهم لأنهم يحملون شرارة من الإيمان ، وأنهم على هدى من ربهم وعلى طريق الخير والإحسان ..

عن حصين بن عبد الرحمن قال : « كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت أنا ، ثم قلت : أما اني لم أكن في صلاة ولكني لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت حديث حدّثنا الشعبي ، قال وما حدثكم ؟ قلت : حديثا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لارقية الا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : عرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، اذ رفع اليّ سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، فنظرت فاذا بسواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ

فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال سبقك بها عكاشة . الحديث رواه البخاري مطولا ومختصرا ومسلم والنسائي والترمذي ..

الرقية : هي العوذة التي يرقى بها الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات . قال ابن الأثير : (وقد جاء في بعض الأحاديث جواز الرقية ، وفي بعضها النهي ، والأحاديث في القسمين كثيرة ، ووجه الجمع بينهما أن الرقي يكره منها ما كان بغير لسان العربي ، وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه في كتبه المنزلة ، وأن يعتقد أن الرقي نافعة لا محالة فيتكل عليها .

الخوف من الشرك : قال الله عز وجل : ﴿ **إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ (سورة النساء 47) . وقال الخليل عليه السلام ﴿ **واجنبني وبني أن نعبد الأصنام** ﴾ (سورة إبراهيم 37) . وفي الحديث : « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء** » رواه أحمد . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **من مات وهو يدعو من دون الله ندا (1) دخل النار** » رواه البخاري ومسلم . عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار** » ...

---

1) ندا : النظير المشارك له .

الدعوة إلى شهادة أن لاإله إلا الله

قال الله عز وجل : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ (سورة يوسف 108) . السبيل التي استقام عليها النبي بأمر ربه ودعا الناس اليها وأنه ليدعو إلى الله على هدى ونور من ربه فمن اتبع الرسول فقد عرف الحق فكان على بصيرة من أمره .

وعن إبن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له : إنك تأتي قوما من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لاإله إلا الله . وفي رواية : إلى أن يوحّدوا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (أخرجه الشيخان) ، ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « **لأعطيّن الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . يفتح الله على يديه ، فبات الناس يَدُوكون ليلتهم أيهم يُعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا اليه فأتى به ، فبصق في عينيه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النّعم** » .

قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (1) أيهم أقرب** ﴾ (سورة الإسراء 57) .

شرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب، فيه أكبر مسائل أهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة . قال تعالى : ﴿ **وابتغوا إلى الله الوسيلة** ﴾ .

وحقيقة الوسيلة الى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة والوسيلة الراغب فيها إلى الله تعالى .

والتوسل بالنبي ﷺ هو الإستسقاء به في حياته وثبت التوسل بغيره أي بعد موته ﷺ باجماع الصحابة إجماعا سكوتيا في حديث عمر رضي الله عنه كما قال : « **كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبيك** » ولم ينكر عليه أحد من الصحابة وأما التوسل بغيره فلا يجوز . والأصل هو أن تتوسل إلى الله بالله ، كأن تقول اللهم إنا نسألك بموجبات رحمتك ، أما التوسل بالعباد « فوساطة » يرفضها الإسلام لأنها نوع من الشرك .

الوسيلة : هي ما يتوسل به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة التي ترضي الله وتدني الإنسان من ربه ، وتقوى الله هي مطلوب كل مؤمن بالله ، ورغبة كل طامع في رضى الله ، ساع إلى مرضاته ولهذا فقد أمر الله الذين آمنوا بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ (سورة الحشر 18) . فليس الإيمان هو مجرد الإيمان ، وانما الإيمان هو الذي ينتج التقوى ويستشعر المؤمن ان النهاية عظيمة وأن الحساب عسير إلا على المتقين .

---

1) قال الراغب : الوسيلة التوصل الى الشيء برغبة وهي أخص من التوسل لتضمنها معنى الرغبة .

والتقوى هي اجتناب محارم الله ، وامتثال أوامره ، أو هي كما عرفها بعض العارفين : « **ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفتقدك حيث أمرك** » .

التقوى صعب المنال ، غالي الثمن ، لا يقدر على الوفاء به إلا من رزقه الله قوة الإيمان ، وثبات اليقين ووثاقة العزم تلك هي بعض الوسائل التي يتوسل بها إلى التقوى وما يأخذ به بعض المسلمين من التوسل بالأموات ممن يعتقد في صلاحهم واستقامة سلوكهم في الحياة فيلمون بقبورهم وأضرحتهم طالبين قضاء حوائجهم التي قصرت عنها أيديهم ..

والذي يأباه الدين هو زيارة كثير من الناس قبور الصالحين وتمسحهم بها ومناجاتهم وطلب الغوث منهم حتى كأنّ هذا الرجل الصالح يتصرف في الكون ..

قال الإمام الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية قال : « قد أكثر الناس من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات ... يا سيدي فلان أغثني ، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء ، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك ، وألاّ يحوم حول حماه ، وقد عدّه أناس من العلماء شركا ، وألاّ يَكُنْهُ فهو قريب منه ، ولا أرى أحدا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب ، أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ، ويقدر بالذات ، أو بالغير على جلب الخير ، ودفع الأذى ، وإلاّ لما دعاه ولا فتح فاه ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ..
فالحزم التجنب عن ذلك وعدمَ الطلب إلا من الله القوي الغني الفعال لما يريد » انتهى .

ومن وقف على سر ما رواه الطبراني في معجمه من أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق ـ أبو بكر رضي الله عنه ـ هيا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاءوا إليه ، فقال : ﷺ « **إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله** » (1) من عرف

1) رواه الطبراني في معجمه .

سر ذلك فلا يستغيث بالموتى ولا يطلب منهم شيئا وإنما يستغيث بالله ويطلب من الله .

قال عز وجل : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين** ﴾ (سورة الزخرف) . فاستثنى خليل الرحمن من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البرآءة وهذه الموالاة هي الشهادة أن لاإله إلا الله فقال : ﴿ **وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ (سورة التوبة) . بين الله سبحانه وتعالى أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في غير معصية لا دعائهم إياهم أربابا فهذا هو عين الشرك ..

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **من قال لاإله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل** » وهذا من أعظم ما يبين معنى (لاإله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ عاصما للدّم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه .

من الشرك لَبْسُ الحلقة والخيط ونحوهما

قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره . أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ (سورة الزمر 36) . وفي هذه الآية الكريمة تشنيع على المشركين ، الذين يعبدون آلهة من دون الله وتسخيف لعقولهم المريضة لأنهم يعتقدون في أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ولا تملك نفعا ولا ضرا .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه : « **أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صُفْر فقال ما هذه ؟ قال الواهنة ، فقال أنزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا** » رواه أحمد بسند لا بأس به ..

قال ابن الأثير في النهاية الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيرقى منها وقيل هو مرض يأخذ في العضد ، وربما علق عليه جنس من الخرز يقال له خرز الواهنة وهي تأخذ الرجال دون النساء ، ونهاه عنها لعل يعتقد أنها تعصمه من الألم ، فكانت عنده في معنى التمائم المنهى عنها . والحلقة كان المشركون يجعلونها في عضدهم من نحاس أصفر أو غيره ، ويزعمون أنها تحفظهم من أذى العين والجن ونحوها ، والخيط كانوا يعتقدونه ويتقلدون به فنهى عنه لما فيه من شائبة الشرك .

وعن عقبة بن عامر مرفوعا ! « **من علّق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علّق ودعة فلا ودع الله له** » (1) . وفي رواية « **من علق تميمة فقد أشرك** » (2) ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه : أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ (سورة يوسف) .

1) رواه مترح بن عاهان باسناد ضعيف

2) رواه البخاري ، واخرجه أحمد .

الذبائح لغير الله

قال تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ (سورة الأنعام) . قال الحافظ بن كثير يأمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغيره ، أنّه مخالف لهم في ذلك ، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والانقياد بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسُك هو الذبح في الحج والعمرة . قال الإمام ابن تيمية أمر الله نبيه ﷺ أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب أو التواضع والافتقار ، وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب الى الله والى عبادته ، عكس حال أهل الكبر والأنفة وأهل الغنى عن الله تعالى الذين لا حاجة لهم في صلاتهم الى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ولهذا جمع الله بينهما في قوله : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي** ﴾ وعن علي رضي الله عنه قال :« **حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غيّر منار الأرض** » رواه مسلم .

اللعن : هو البعد عن مظان الرحمة ومواطنها ، واللّعين هو الملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها . قال صاحب النهاية (أصل اللعن الطرد والابعاد من الله ، ومن الخلق السّب والدعاء ، وفي الحديث جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين ، وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان : أحدهما أنه جائز إختاره ابن الجوزي وغيره ، والثاني أنه لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام رحمهما الله تعالى ، وهو المتجه جميعا بين الروايات ، وقوله : (محدثا) روي بكسر الدال المهملة وبفتحها ، فعلى الأول معناه نصر جانبه وآواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين من يقتص منه ، وعلى الثاني هو الأمر المبتدع نفسه ومعنى إيوائه الرضا به ، والصبر عليه ، فإنه إذا رضي بالبدعة ، وأقرّ فاعلها ، ولم يترك عليه فقد

أواه ، ومنار الأرض بفتح الميم علامات حدودها ومعالمها يفعل ذلك ليغتصب من جاره أرضه والله أعلم .

من الشرك النذر لغير الله

قال تعالى : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه** ﴾ . الآية تدل على وفاء النذر ومدح من فعل ذلك ، فالنذر من العبادة وصرفه لغير الله شرك ، فإذا أنذر طاعة وجب عليه الوفاء بها ، والنذر قربة إلى الله تعالى ، ولهذا مدح الموفين به ، فإن نذر لمخلوق تقربا إليه وتشفعا منه له عند الله ، أو ليكشف ضرّه ونحو ذلك فقد أشرك في عبادته سبحانه غيره ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك . ووجه الدلالة من الآية الشريفة على هذا المعنى أن الله مدح الموفين بالنذر ، والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك حرامٍ ، وذلك هو العبادة ، فمن جاء به لغير الله تقربا إليه فقد أشرك .

قال ابن كثير : يخبر الله تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته بأوفر الجزاء للعاملين به إبتغاء وجهه . إذا علمت ذلك فأعلم أن هذه النذور الواقعة من عبّاد القبور تقربا بها اليهم وليقضوا لهم حوائجهم ، أو ليشفعوا لهم شرك في العبادة بلا ريب كما قال تعالى : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون** ﴾ (سورة الأنعام) . قال الشيخ قاسم في شرح درَرُ البحار النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للانسان غائب أو مريض ، أو له حاجة فيأتي إلى قبر بعض الصالحين ويجعل على رأسه سترة ويقول يا سيدي فلان إن رد الله غائبي ، أو عوفي مريضي ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من المالَ كذا ، أو من الشمع كذا ، أو الزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه . منها أنه نذر لمخلوق ، والنذر له لا يجوز لأنه عبادة والعبادة

لا تكون لمخلوق . ومنها أن النذر لميت والميت لا يملك شيئا ، ومنها أنه ظنَّ أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر إلى أن يقال إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربا اليهم محرم باجماع المسلمين نقل ذلك عنه ابن نجيم في البحر الفائق ، ونقله المرشدي في تذكرته وغيرهما عنه وازدادوا وقال في شرح المنهاج قريبا من هذا . وكلام العلماء أهل المعرفة في هذا الباب كثير ، وكتاب الله وسنة رسوله يغنيان عن ذلك كله والله أعلم .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه** » معناه أن نذر المعصية لا يجوز .

الاستعاذة بغير الله شرك

قال تعالى : ﴿ **وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ (سورة الجن) .

1) قال ابن كثير : الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجانبه من شر كل شر ، والعياذ يكون لدفع الشر ، وطلب الخير ، وهذا تمثيل ، والا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدي الرب والافتقار اليه ، والتدلل لديه أمر لا تحيط به العبارة .

2) كان الرجل من العرب إذا أمسى بواد ، وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن قال مجاهد . كانوا إذا هبطوا واديا يقولون نعوذ بعظيم هذا الوادي . فزادوا كفرا وطغيانا . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا أي خوفا وارهابا وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم .

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك** » رواه مسلم

3) في هذا الحديث دليل على أن الله شرع لأهل الاسلام أن يستعيذوا بكلمات الله بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ومعنى (التامات) كما قال القرطبي الكاملات التي لم يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر ، وقيل معناه الكافية الشافية قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق وذلك شرك ، بل الله يعيذ المستعيذين ويعصمهم من شر ما استعاذوا به .

وكان النبي ﷺ يستعيذ ويقول : « **أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك** » (1) فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وكان يستعيذ بعزة الله فيقول : « **أعوذ بعزة الله وقدرته** » (2) وقوله : « **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات** » (3) ولا يستعيذ النبي بمخلوق أبدا ، ولا يستعيذ إلا بالله ، أو بصفة من صفاته ، وجاءت الاستعاذة باسم الرب تارة وباسم الملك وباسم الاله في سورتي المعوذتين ، وقد جاء في الأثر أن الله سبحانه وتعالى يدعى بأسمائه الحسنى . كل طالب يسأل باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبي ﷺ في حق سورتي المعوذتين : « **إنه ماتعوذ المتعوذون بمثليها** » فلا بد أن يكون المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه . فيستعاذ من الشرور وأسبابها كالمعاصي ، والشرك والكفر وأنواع الظلم ، وهل زالت نعمة عن أحد قط إلا بشؤم معصية ؟

إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

ومن تأمل ما قص الله في كتابه الكريم من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه ، إنما هي مخالفة أمره ، وعصيان رسله ، وكذلك من نظر في أحوال عصره ، وما أزال الله عنهم من نعمة ، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل : إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم . فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه ، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس .

---

1) رواه مالك في موطنه - باب الدعاء - ×

2) أخرجه مسلم . ورواه مالك في الموطأ عن عثمان بن ابي العاص - صحيح -

3) اخرج القصة ابن هشام بطولها ، عن ابن اسحاق عن زياد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي مرسلا . ورجاله ثقات

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين ، فكل ما استعاذ منه ، أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم ، وإما سبب يفضي اليه ، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهي : « **عذاب القبر ، وعذاب النار فهما أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال** » (1) وهذان هما سببا العذاب المؤلم ، فالفتنة سبب العذاب وذكر الفتنة خصوصا ، وذكر نوعي الفتنة ، لأنها إما في الحياة ، وإما في الممات ، ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة بعد الموت ، فيتصل بها العذاب من غير تراخ ..

فهذه الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير ، وأوجبه ابن حزم في كل تشهد ، فإن لم يأت به فيه فبطلت صلاته ، واستعاذ رسول الله ﷺ من ثمانية أشياء فقال : « **اللهم إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع (2) الدين وغلبة الرجال** » (3) وتعوذ ﷺ « **من المأثم والمغرم** » (4) فإنها سببا الألم العاجل ومن ذلك قوله : « **أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك** (5) » فالسخط سبب الألم ، والعقوبة : هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

---

1) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة . ـ صحيح ـ
2) أي ثقله .
3) الحديث لاحمد في مسنده ، ومسلم والنسائي عن زيد بن ارقم ـ وهو صحيح ـ
4) شطر من حديث رواه مسلم رقم 588
وأبو داود رقم 183 والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة
5) رواه مسلم ومالك ، وغيرهما . ـ عن محمد بن ابراهيم الحارث ـ

الاستعاذة بالله من شر ما خلق

نتكلم عن الشر ﴿ **من شر ما خلق** ﴾ (ما) هنا موصولة ليس إلاّ . والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب الذي هو فعله وتكوينه ، فإنه لا شر فيه بوجه ما . فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ، ولا في أفعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى فإن ذاته لها الكمال المطلق ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ، لا شر فيها أصلا ، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسما ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ولعاد إليه منه حكم ، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك ، ولكنه تعالى يلهم النفس البشرية خيرها وشرها ليمكنها بعد ذلك المفاضلة والاختيار في صراع الايمان والضلالة ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وما يفعله الله سبحانه وتعالى من العدل بعباده ، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض ، إذ هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون بالنسبة إلى العباد ، فالشر وقع في تعلقه بهم ، وقيامه بهم ، لا في فعله القائم به تعالى ، ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة ، فإنه خالق الخير والشر وملهمها النفس إعداداً للتكليف .

وينبغي أن نعرف جيدا : أن ما هو شر ، أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا ، لا يكون لله تعالى ، ولا فعلا من أفعاله . ذلك أن مقياس الخير والشر مقياس نسبي معياري له دائما وجهان ، فالشرُّ الذي ينزل على فرد واحد في شكل عقوبة مثلا يحقق خيرا عميا للمجموعة التي يعيش فيها ذلك الواحد ، ويحقق له هو نفسه نجاة من النار .

مثال : إنّ السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة اليه ، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرا وحكما ، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموما ، بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه

يذلك ، وأمره به مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له ...

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله ، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به ؟ أليس في عقوبة هذا الصائل خير محض ، وحكمة وعدل ، وإحسان إلى العبيد ؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي .

فالشر ما قام به من تلك العقوبة ، وأما ما نسب الى الربّ منها من المشيئة والإرادة والفعل ، فهو عين الخير والحكمة فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم ، والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق الى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته ، وإحسانه إلى خلقه وأنه سبحانه كما أنه هو البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العادل ، فلا تناقض حكمته رحمته ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته .. وبعض الطوائف يقولون : إنّ الأمرين ـ الخير والشر ـ بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة .

يرد القرآن على هذه الأفكار ، وإنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الرّب نفسه عنها كقوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ . وقوله كذلك ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ . فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيّء ونزه نفسه عنه تعالى عما يشركون .

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة : إن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته والوهيّته لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا .

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والإنتقام في موضع الرحمة والاحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة ، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الاحسان والرحمة والاكرام في موضع العقوبة والانتقام ، كمن إذا جاء الى من يسيء الى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الاكرام ، ورفعه وكرمه ، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه من فعله ، هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها ..

فما للمعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة ؟ وإنّها لو أوليت النعم لم تحسن بها ، ولم يلق هذا التأويل بالفطر السليمة ولظهرت مناقضة الحكمة ...

قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو** ﴾ (سورة الكهف) فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا كيف صدره بإخبارنا ، إنه أمر إبليس ـ لعنه الله ـ بالسجود لأبينا فأبى ذلك ، فطرده ولعنه ، وعاداه من أجل ابائه عن السجود ، لأبينا ثم أنتم توالونه من دوني ، وقد لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم ، وجعلته عدوا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني ، أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم ؟ ويوم القيامة يقول تعالى : ﴿ **أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا ؟** ﴾ .

فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة : إذا ذهبوا مع

أوليائهم ، وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم ربهم ويقول : **« ألا تذهبون حيث ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم ، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده . فيقول هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم إنه لا مثيل له فيتجلى لهم ، ويكشف عن ساق فيخرون له سجدا »** .

فيا قرة عين أوليائه بتلك الموالاة ، وما أفرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم ، وبقوا مع مولاهم الحق فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه ان أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون .

فما أحوج القلوب إلى معرفة ربها ، ونزولها منه منازلها في الدنيا لمتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

من الشرك أن يستغيث المكلف بغير الله أو يدعو غيره

الإستغاثة هي طلب الغوث ، وهي إزالة الشدة ، والاستعانة : طلب العون ، قال بعض العلماء : الفرق بينها وبين الدعاء أنّ الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب والدعاء أعم منه ، فيجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة ، فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة ، والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، فدعاء مسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدا من دونه ممن لا يملك ضرا ولا نفعا كقوله تعالى : ﴿ **قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً** ﴾ ...

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه في الرسالة السنّية : إذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب الى الاسلام ومرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة بهذه الأزمان قد يمرق أيضا من الاسلام لأسباب : منها : الغلو في بعض المشائخ كما غالت النصارى في المسيح عليه السلام فكل من غلا في نبي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان أنصرني وأرزقني وعافني ، أو أنا في حفظك وحمايتك ورعايتك ، ونحو هذه الأقوال ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فإن تاب وإلاّ قتل ، فإن الله سبحانه إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوه وحده ، لا شريك له ولا يدعون معه إلها ، والذين يدعون مع الله إلها آخر مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعبدونهم ويعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله فبعث الله سبحانه رسله تنهى أن يدعو أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة واستعانة : قال ومن جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعا ، نقله عنه صاحب الفروع ، وصاحب الانصاف ، وصاحب الاقناع وغيرهم ..

قال ابن تيمية رحمه الله : اعلم أن الاستغاثة في الاسباب الظاهرية العادية في الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه تجوز ، كقولهم يا لزيد للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة وأما الإستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية في الشدائد ، كالمرض والغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه ، فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره ، والله أعلم .. نقلوه عنه في الرد على ابن جرجيس ...

قال الله عز وجل : ﴿ **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين** ﴾ . وقال : ﴿ **وإن يمسسك بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ . وقوله : ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وإليه ترجعون** ﴾ وقوله : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ...

وقوله : ﴿ **ولا تدع من دون الله ...** ﴾ الآية ، قال ابن جرير : في هذه الآية : ولا تدع يا محمد من دون معبودك ولا خالقك شيئا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يضرك في دين ولا دنيا - يعني بذلك الآلهة - يقول : لو عبدتها راجيا نفعها ، أو خائفا ضرها ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، فإن فعلت ذلك ودعوتها من دون الله فإنك إذا من الظالمين ، أي المشركين بالله ، والله أعلم ، وحاشا الرسول أن يفعل ذلك إلاّ أن الخطاب خاص اللفظ عام المعنى ، فالله تعالى لا يخاطب الرسول ﷺ وإنما يخاطب من حوله من الناس ، ودلت هذه الآية على أنه سبحانه هو المتفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع دون كل ما سواه ، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك النفع والضر ولا يملك ذلك ولا شيئا مما هنالك غيره كائنا من كان من أوليائه أو أعدائه ، فهو المستحق للعبادة والدعوة وحده دون من لا يضر ولا ينفع . فالخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ ولكنه عام للأمة .. والمقصود

سبب ذلك ن الرسول ﷺ معصوم من الشّرك بل معصوم من الصغائر وعصمة الأنبياء والرسل من مسائل العقيدة في التوحيد .

وقوله تعالى : ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ أمر الله عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون سواه ممن لم يملك لهم رزقا من السموات والأرض . قال الحافظ ابن كثير : (معناه ابتغوا عند الله الرزق لا عند غيره ، لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئا من ذلك . أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له واشكروه على ما أنعم عليكم ، إليه ترجعون ، فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله** ﴾ الآية : فيه نفى سبحانه أن يكون أحد أضل غيره منه ، وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه الى يوم القيامة ، والآية تعم كل من يدعو من دون الله ، والله أعلم .

وقوله عز وجل : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** ﴾ أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه هو الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك وأنه القادر على دفع الضر ، والقادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك ، فإذا تعين - جل ذكره - خرج غيره من ملك ونبي وولي وغير ذلك .

وروى الطبراني باسناده : « **أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين** فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « **إنه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله** » ؟!

قول الله عز وجل ﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ وقوله : ﴿ **والذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير(1)** ﴾ .

1) قشرة النواة .

قال المفسرون في هذه الآية وهي قوله ﴿ **أيشركون** ... ﴾ فيها توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئا وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكا للخالق في العبادة التي خلقهم لها ، وبيّن أنهم لا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ، وهذا برهان ظاهر ودليل باهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله . وهذا وصف كل مخلوق حتى الملائكة والأنبياء والصالحين وأشرف الخلق محمد ﷺ كان يستنصر ربه على المشركين ويقول :

« **اللهم أنت عضدي وأنت نصيري ، بك أجول وبك أصول ، وبك أقاتل** » (1) .

وفي الصحيح عن أنس قال : شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته ، فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزل ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الحديث رواه البخاري تعليقا ووصله مسلم والنسائي والترمذي والامام أحمد بن حنبل ، قال ابن اسحاق في المغازي : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج وجنه ، وجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله الآية .

وذكر ابن هشام في السيرة من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . فأخذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بيد رسول الله ﷺ ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائما ، ومسح مالك بن سنان أبو سعيد الخدري

---

1) رواه إبو داود (في الجهاد) . والترمذي (في الدعوات) . ورواه أحمد في مسنده ـ واسناده صحيح ـ وحسنه الترمذي ـ

رضي الله عنه الدم عن وجه رسول الله ﷺ ثم ازدزده ، فقال رسول الله ﷺ : « **من مس دمه دمي لم تصبه النار ...** » .

قال النووي : وفي هذا وقوع الاسقام والابتلاء بالأنبياء عليهم السلام لينالوا جزيل الأجر والثواب ، ولتعرف أممهم ما أصابهم من أهل الشر فيتأسوا بهم ، قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر مخلوقون تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسادهم ما يطرأ على أجسام البشر ، ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا تفتن بما أظهر الله على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم ، والمؤمنون لهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ بالصبر على الأذى الحاصل من الملحدين والمارقين وليجاهدوا وليثبتوا ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين** ﴾ .

العقيدة الاسلامية

تقوم العقيدة الاسلامية على ثلاث دعائم كلها يسلّم العقل بها ، ويقوم الدليل المستمد من البديهة عن صحته ، وليس فيه مجال لوهم ولا خرافة هي : الوحدانية والايمان بالغيب ، والرسل أجمعين ...

فأول هذه الدعائم ـ الايمان بواحد أحد هو الفرد الصمد ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير هو منزه عن مشابهة الحوادث لأنه غيرها ، ولاتتحقق هذه المغايرة إلاّ إذا كان من غير جنسها . هو خالقها ومبدعها ، والشيء لا يخلق بعضه بعضا ، فهو ليس جسما من الأجسام ، وليس عرضا من الأعراض لأنه خالقها وخالق كل شيء ، وهو فوق كل شيء ، وليس له مكان يحدّه ، لأن المكان هو الذي يحدد الأجسام وليس مركبا من أجزاء كما نتركب ، فهو واحد في ذاته ،وواحد في صفاته ، قد اختص وحده بالأشياء والتكوين ، فهو بديع السموات والأرض ، ليس بوالد ولا مولود ، وقد خلق الأسباب والمسببات ، ونظم الكون بحكمته ، وسيره بإرادته ، وأبدع نواميسه بقدرته ، وهو وحده المستحق للعبادة ، وليس في خلقه ما يحل هو فيه لأنه ليس جسما يحل في غيره .

التوحيد هو العماد الأول والأقوى للإسلام وتعاليم القرآن ، والذي شغلت الدعوة إليه وتقريره حيزاً كبيراً ينادي بتحرير الإنسان من سيطرة الأوهام والخرافات والخضوع لما لا يملك ضرا ولا نفعا ، والتوسل بالوسائل الزائفة لحماية نفسه ، واتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله كما هو بارز في آيات عديدة من القرآن ، قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (سورة آل عمران) ، وقال في (سورة الزمر) : ﴿ **أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهدى الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام . ولئن سألتهم من خلق السموات**

والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

وقال أيضا في نفس السورة ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون** ﴾ :

وذلك لما في عبادة غير الله والخضوع له والتوسل به من تسخير لقوى الإنسان ، وتعطيل لمواهبه وإذلال نفسه إذلالا من شأنه أن يظل راغبًا خائفا جزعا مما لا يبعث في الحقيقة على شيء من ذلك ، في حين أن التوحيد والإيمان بالله (بآله) واحد متصف بجميع صفة الكمال والحق والعدل والخير والقوة واعتبار كل ما عدا الله صغيرا مهما كبر فالله أكبر منه والانسان ضعيفا مهما قوى فالله أقوى منه ، وعاجزا مهما قدر فالله أقدر منه ، وفقيرا مهما غنى فالله أغنى منه ، فلا يتجه أحد إلى غير الله ، ولا يستشعر بخوف ، ولا رهبة من أحد غيره ، ولا يدل نفسه في حاجة لأحد غيره ، وناهيك بهذا قوة هائلة محررة لما أودعه الله في الإنسان من قوى الخوف وموجهة لها نحو الخير والصلاح والكمال في هذه الحياة ، ومساعدة له على القيام بواجباته الاجتماعية والانسانية ، ثم حافزة له على عدم الرضا بالظلم والقهر ، والتجبر والمرد على البغاة والمتجبرين والمتكبرين ، وبالاضافة إلى هذا فإن الدعوة إلى الله وحده قد انطوت على تقرير ما في الايمان بالله وحده ، والاتجاه إليه وحده بالعبادة والدعاء ، من فوائد عظيمة متصلة بشؤون الحياة الدنيا صلة وثيقة من حيث توكيد استجابة الله لداعيه وذكره لذاكريه ، وقدرته وحده على تفريج ما يحل فيهم من خطوب ، ومنحهم ما يرجونه من رغائب ، وتحقيق ما يأملونه من مطالب كما هو واضح في الآيات الآتية : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ (سورة البقرة) . وقال في (سورة النمل) ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم**

خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

بعض معالم التوحيد في العقيدة

معالم التوحيد في الأخلاق هو ألا يصدر الإنسان ولا يرد في سلوكه الشخصي ، أو في سلوكه الاجتماعي الا عن توجيه إلهي .

ومعالم التوحيد في النية أن يكون الإنسان في كل ما يأتي وما يدع قاصدا وجه الله تعالى ، وأن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها ، وإنما الممات أيضا .

والتوحيد على العموم : هو أن يهب الإنسان نفسه لله في قيامه وجلوسه ، في نومه ويقظته ، في غضبه ورضاه ، في صداقته وعداوته ، في بيعه وشرائه ، في عمله وراحته ، في أفكاره وآرائه ، في توجيهه وإشارته ، في نصائحه وتحذيراته ، في كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

وإن توحيد الإنسان هو أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له ويقترب الإنسان من المثل الاعلى الإسلامي بمقدار قربه من هذه المعاني عقيدة وأخلاقا ونية ، وقوله تعالى ﴿ **ألا له الدين الخالص** ﴾ إنما يشير بنا إلى خلوصه من كل شائبة شرك سواء أكان الشرك في العقيدة ، أم كان في الأخلاق والنية ، والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا لله ولغيره فإنّ الله سبحانه بريء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكا لله فالله بريء منه ..

علاقة الله بالإنسان

ليس من العجيب أن تكون علاقة الله بمخلوقاته ـ القائمة على العبودية إفراداً وإخلاصاً ودواماً وثباتاً ـ ، أو علاقة الانسان به هي محور للعقيدة الاسلامية التي عرضها القرآن ..

فقد وصف القرآن الكريم باعتبار ذاته : بأن الأول والآخر والظاهر والباطن ، والقيوم والواحد والحي والمتعالي ، والغني والقادر ، والباقي ، والعظيم والقهار ، والحميد والمجيد ، والقوي المتين والعليم واللطيف ، والحكيم والسميع والبصير ، والملك القدوس ، والبر الرحيم ، ونور السموات ، والحق إلى غير ذلك من الصفات التي تصور الله غنيا بنفسه أبديا ، واسع القدرة والمعرفة ، محيطا بكل شيء ، وأنه الحق وحده ...

وباعتبار صلته بمخلوقاته تحدث عنه بأنه الخالق ، وبأنه المبدىء والمعيد ، والباريء ، والمصور والمحيي والمميت ، والوارث والباعث ، والحافظ ومالك الملك ، والولي والمقتدر ، والجبار ... إلى غير ذلك من النعوت التي تبين أنه الخالق المطلق ، المدبر الحاكم ، والملك . الذي لا قوة غير قوته ، ولا سلطان غير سلطانه في الوجود .

وباعتبار علاقته بالإنسان : وصفه بأنه الرحمن الرحيم والغافر والغفور والغفار ، والعفو والحليم والشكور (الذي يجازي الناس على حمدهم) والصبور والرؤوف الودود الرقيب والشهيد .

وباعتبار علاقة الإنسان به : نعته بأنه المهين والهادي والوكيل ، والولي والوهاب ، والرزاق والمجيب والمعطي والمغني يبسط الرزق لمن يشاء إلى غير ذلك من الأوصاف التي تدل على أن صلة العبد به صلة احتياج . فالعبد محتاج إلى عفوه وتدبيره ، والله هو الرقيب والحسيب عليه المهين على العباد جميعا يعينهم ويهديهم ، **فهو مصدر** الرزق بأوسع معانيه ...

والله إذن هو الفاعل لكل شيء في الوجود ، وإرادته هي سبب ما في الوجود كله .. هو يضل من يشاء ويهدي من يشاء ... والإنسان المؤمن

لا يستطيع إزاء ذلك غير أن يرجو الله ويدعوه الهداية ، وأن يسأله ألا يجعله من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . وكانوا في الآخرة من الخاسرين ..

هذا الاعتقاد في الله جل جلاله على هذا النحو ، كان واضحا عند رسول الله ﷺ ، وعند جماعته من المهاجرين والأنصار ، وكانوا يبشرون به ، ويدافعون عنه . وإذا تليت آي الذكر الحكيم قالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، لم يلجأوا الى تفتيش عن المتشابه فيه ، ولم تكن بهم حاجة إلى تأويله ... كان ذلك عنوان الجماعة المسلمة ومظهر إيمانها على عهد رسول الله ﷺ ، وكان حال المؤمنين حقا ..

ننقل بعض المعاني لأسماء الله الحسنى ، لابن قيم الجوزية من تفسيره لفاتحة الكتاب

دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات. وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها ، وهي : الله ، والرب ، والرحمان والرحيم ، والملك فمبني على أصلين :

أحدهما : أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله ، فهي مشتقة من الصفات ، فهي أسماء وصفات وبذلك كانت حسنى ، إذ لو كانت ألفاظا لا معنى فيها لم تكن حسنى ، ونفي معاني أسماء الله الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى : ﴿ **وذر الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ (سورة الأنفال) . ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها ، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها ، وأثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله ، كقوله تعالى ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ فعلم أن القوة من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة ، وكذلك قوله : ﴿ **فلله العزة جميعا** ﴾ فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويا ولا عزيزا .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ « **إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ،**

وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لاحترقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه (البصير) ، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها **« الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات »** ، وفي حديث الإستخارة **« اللهم إني استخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك »** فهو قادر بقدرة ، وقال تعالى لموسى : ﴿ **إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي** ﴾ فهو متكلم بكلام ، وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في الصحيح عنه ﷺ يقول الله تعالى :

« العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي » ، وهو الحكيم له الحكم ﴿ **فالحكم لله العلي الكبير** ﴾ وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو بصره ، أو قوته أو عزته ، أو عظمته إنعقدت يمينه ، وكانت مكفرة لأن هذه صفات كماله التي انشقت منها أسماؤه ..

لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسع أن يخبر عنه بأفعالها ، فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فان ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها ، فاذا انتفى أصل الصفة إستحال ثبوت حكمها ..

روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿ **الذين يلحدون في أسمائه** ﴾ قال : يكذبون عليه ، وهذا تفسير بالمعنى ، وحقيقة الإلحاد فيها : العدول عن الصواب ، وإدخال ما ليس من معانيها عليها ، وإخراج حقائق معانيها عنها ، هذا حقيقة الإلحاد ، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله ، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب ، وهو غاية الملحد ، في أسمائه تعالى ، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها ، وخرج بها عن حقائقها أو بعضها ، فقد عدل بها عن الصواب والحق ، وهو حقيقة الإلحاد ، فالإلحاد : إما بجحودها وإنكارها وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة .

الأصل الثاني : إن الإسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة ، فإنه يدل دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم ، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك على الذات المجردة عن

الصفة ، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم . فان إسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن ، وكذلك اسم (العلي) واسم الحكيم وسائر أسمائه ، فان من لوازم اسم (العلي) العلو المطلق من جميع الوجوه : علو القدرة ، وعلو القهر وعلو الذات ، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه (ألعلي) .

وكذلك اسمه الظاهر من لوازمه : ألا يكون فوقه شيء كما في الصحيح عن النبي ﷺ « **وأنت الظاهر فليس فوقك شيء** » بل هو سبحانه فوق كل شيء فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم إسمه (الظاهر) ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدرة فقط ، كما يقال : الذهب فوق الفضة ، والجوهر فوق الزجاج ، لأن هذه الفوقية لا تتعلق بالظهور ، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق ، فيها . ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط وإن كان سبحانه ظاهرا بالقهر والغلبة لمقابلة الإسم (بالباطن) وهو الذي ليس دونه شيء ، كما قابل الأول ، الذي ليس قبله شيء ، بالآخر ليس بعده شيء .

وكذلك اسم الحكيم من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ، ووضعه الأشياء في مواضعها ، وإيقاعها على أحسن الوجوه ، فانكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه ، وكذلك سائر أسمائه الحسنى ..

التعريف باسم الجلالة

إذا تقرر هـذان الأصلان : فـاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى ، والصفات العليا بالدلالات الثلاث فإنه دال على الوهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له ، مع نفي أضدادها عنه .

وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال ، وعن العيوب والنقائص ، ولهذا يضيف الله تعالى إلى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾ ويقال : الرحمن والرحيم ، والقدوس ، والسلام والعزيز والحكيم ، من أسماء الله ولا يقال الله من أسماء الرحمن ، ولا من أسماء العزيز إلى غير ذلك .

فعلم أن اسم (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالاجمال . وللأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الالهية التي اشتق منها اسم الله ، واسم الله دال على كونه **مألوها معبوداً تؤلهه الخلائق محبة** وتعظيما وخضوعا وفزعا إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك ، والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله اذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحيّ ، ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أفعاله فصفات الجلال ، والجمال أخص باسم الله . وصفات الفعل والقدرة ، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة ، وكمال القوة ، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم الرب .

وصفات الاحسان ، والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف ، أخص باسم الرحمن وكرر إيذانا بثبوت الوصف ، وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ، فالرحمن وصفه الرحمة ، والرحيم : الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ ﴿ **إنه بهم رؤوف رحيم** ﴾ ولم يجيء رحمان بعباده ، ولا رحمان بالمؤمنين مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به ألا ترى أنهم يقولون : غضبان : للممتليء غضبا وندمان وحيران وسكران ،

ولهفان لمن مليء بذلك ؟ فبناء فعلان للسعة والشمول ولهذا يقرر أستواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا كقوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ﴿ **ثم استوى على العرش الرحمان** ﴾ . فاستوى على عرشه باسم الرحمن ، لأن العرش محيط بالمخلوقات قدر وسعها ، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات . فلذلك وسعت رحمته كل شيء ، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **لما قضى الله الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده موضوع على العرش : إن رحمتي تغلب غضبي** » وفي لفظ « **فهو موضوع عنده على العرش** » .

فتأمل خصائص هذا الكتاب بذكر الرحمة ، ووضعه عنده على العرش ، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقوله ﴿ **ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا** ﴾ ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم .

وصفات العدل ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، والعطاء والمنع ، والاعزاز والاذلال ، والقهر والحكم ونحوها : أخص باسم الملك وخصه بيوم الدين ، وهو الجزاء بالعدل لتفرده بالحكم فيه وحده ، ولأنه اليوم الحق ، وما قبله كساعة ولأنه الغاية ، وايام الدنيا مراحل اليه .

ارتباط الخلق بالاسماء الثلاثة

تأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي : « **الله ، الرب ، الرحمن** » كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم ؟ فلها الجمع والفرق .

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات . فهو رب كل شيء وخالقه ، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته ، وتحت قهره ، فاجتمعوا بصيغة الربوبية ، وافترقوا بصفة

الالهية ، فألهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إلـه إلا هو الـذي لا تنبغي العبـادة والتـوكل ، والرجـاء ، والخـوف . والحب والاذابـة والإخبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له .

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين : ـ فريقا مشركين في السعير .
ـ وفريقا موحدين في الجنة .

فـالالهيـة هي التي فرقتهم ، كما أن الربـوبيـة هي التي جمعتهم فـالـدين والشرع . والأمر والنهي ، مظهره وقيـامـه : من صفـة الالهيـة . والخلق والايجاء والتدبير والفعل : من صفة الربوبية . والجزاء بـالثواب والعقـاب ، والجنة والنار من صفة الملك وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بالهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم ، وأثابهم وعـاقبهم بملكـه وعـدلـه ، وكل واحـدة من هـذه الأمـور لا تنفـك عن الأخرى ... وأمـا الرحمـة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده فالتالية منهم لـه ، والربوبيـة منـه لهم . والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده . بهـا أرسل اليهم رسـالـه وأنزل عليهم كتبـه ، وبها هداهم ، وأسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافـاهم وأنعم عليهم ، فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة ...

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائـه على عرشـه برحمتـه ﴿ **الرحمن على العرش استـوى** ﴾ مطـابـق لقـولـه ﴿ **رب العـالمين الرحمن الرحيم** ﴾ فـإن شمـول الربـوبيـة وسعتهـا بحيث لا يخرج شيء عنهـا أقصى شمول الرحمة وسعتها ، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته .

تنزيه الله جل جلاله

إنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا في التقدير ، ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر . ولا تحله الجواهر ولا بعرض ، ولا تحله الاعراض ، بل لا يماثل موجودا ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء وانه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون والسموات .

وانه استوى على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش ، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ، ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان . كما تقدس عن أن يحده زمان . بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان . وهو الآن على ما عليه كان . وانه بائن من خلقه بصفاته ، وليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ..

وأنه مقدس عن التغيير والانتقال ، لا تحله الحوادث ولا تعترضه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفي صفة كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ... وانه في ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئي الذات بالابصار ، نعمة منه ولطفا بالابرار في دار القرار ، واتماما للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم .

القدرة : وأنه حي قادر ، جبار قهار ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك

والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، السموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون في قبضته .

وأنه المتفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالايجاد والابداع خلق الخلق وأعمالهم ، وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، ولا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته .

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات . محيط علمه بما يجري في تخوم الأرضين الى أعلى السموات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر في جوف الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر وخفيات السرائر يعلم بعلم قديم أزلي ، لم يزل موصوفا في آزال الآزال لا بعلم متجرد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال ...

الإرادة : وأنه مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، لا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقص ، طاعة أو عصيان ، كفر أو ايمان ، إلا بقضائه وتقديره ، وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناضر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد من معصيته ، إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة على طاعته الا بمحبته وإرادته ، لو اجتمع الانس والجن ، والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا عنه .

وان إرادته قائمة بذاته ، في جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها ، مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها ، فوجدت في أوقاتها ، كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبديل ولا تغيير ، دبّر الأمور لا بترتيب أفكار وتربص زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن :

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير ، يسمع ويرى ، ولا يعزب عن مسموعه مسموع وإن خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق ، لا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، اذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق .

الكلام : وأنه متكلم آمر ناهٍ ، واعد متوعد ، بكلام أزلي قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس من انسلال الهواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا حرف منقطع باطباق شفة أو تحريك لسان .

وان القرآن والتوراة والانجيل والزبور ، كتبه المنزلة على رسله ، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب بالمصاحف محفوظ في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم ، قائم بذات الله تعالى . لا يقبل الانفصال والفراق بالانتقال ، في القلوب والاوراق ، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى من غير جوهر ولا عرض ، ومن كانت له هذه الصفات كان حيا عالما ، قادرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما ، بالحياة والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والكلام لا بمجرد الذات ...

الأفعال : وإنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها ، واتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ولا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملك حتى يكون تصرفه فيه ظلما ...

فكل ما سواه من إنس وجن ، وشيطان وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات ، وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس ، حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه بعد إن لم يكن شيئا ، إذ كان في الأزل موجودا

وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعده إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ، وحق في الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته .

وأنه تعالى متفضل بالخلق والإختراع والتكليف ، لا عن وجوب ، ومتطاول بالانعام والاصلاح ، لا عن لزوم وله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، اذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، ولم يكن قبيحا ولا ظلما .

وانه يثيب عباده على الطاعات ، بحكم الكرم والوعد لا بحكم الإستحقاق واللزوم ، إذ لا يجب عليه فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ...

وحقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه ، لا بمجرد العقل ، ولكنه يبعث الرسل ، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم بما جاءوا به .

الإيمان بالغيب

الإيمان بـالغيب هو الـدعـامـة الثـانيـة من دعـائم العقيـدة الإسلاميـة ، والإيمان بالغيب هو الدعامة في كل دين ، لأن وراء هذا العـالم المـادي عـالم آخر غيره ، فمن لم يؤمن به فقد جحده ، ولا يمكن أن يكون إيمان بالله من غير إيمـان بـالغيب ، ولـذلـك يقـول الله في أوصـاف المؤمنين ﴿ **الـذين يـؤمنـون بـالغيب ويقيمـون الصـلاة ، وممـا رزقنـاهم ينفقـون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلـك وبـالآخرة هم يـوقنـون** ﴾ . الغيب مـا خرج عن متنـاول الحـواس ، وإدراك العقـل ، والإيمان بما يجيء من عالم الغيب ، لا معتبر لـه إلا إذا كان مسنـد إلى جهـة لا يتطرق اليها الكذب ، وإلا كان التصديق بما يخبر بـه العرافون والكهنـة وغيرهم ممن يـدعون علم الغيب ، ايمـانـا ، وهـو ليس من الإيمـان في شيء ، وإنما المراد بالإيمان هنا ما يخبر به رسل الله وأنبياؤه أقوامهم من أمر الآخرة التي لا علم للناس بها .

فأول صفة من صفات المتقين هي الإيمـان بـالغيب التي يخبر بهـا الرسل عليهم السـلام حيث تلقوا الأخبـار عن تلـك الغيبيـات وحيـا من الله ، وهم الأمناء على ما أوحى اليهم من ربهم ...

فـلا إيمـان لمن لا يـؤمن بـالله ، ولا إيمـان لمن لا يـؤمن برسـل الله ، ولا إيمان لمن لا يؤمن بما يحمل رسل الله من رسالات وما يبلغون من أوامر ونواهي . ومـا يبلغون من أخبـار ، وملاك التقوى هو الإيمـان ، فلا تقوى لمن لا إيمان له ، فإذا جاء الإيمان على تلـك الصورة ، كان داعيـة لأن يقيم الإنسـان على طريق التقـوى ، وأن يـؤهلـه لتلـك الصفـات التي وصف الله سبحـانـه بهـا المتقين ، الـذين يقيمـون الصـلاة وينفقـون ممـا رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزل على محمـد ﷺ ، إيمـانـا مفصلا ، وبمـا أنزل على رسل الله من قبله إيمانا مجملا ، ثم ينتهي بهم ذلك الإيمان الى الإيمـان بـاليوم الآخرة ، والإيمان بـالملائكـة وهي الأرواح المطهرة ، والإيمـان بكل المخلوقـات المغيبـة عن حسنا ، والإيمان بأن هذه الحياة الدنيا هي الحياة الفانية ، وما بعـدهـا

هي الحياة الباقية ، وهي الأخرى ، وأن الإيمان بالحياة الأخرى هو لبّ الدين ، يجازي فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ..

وأن الإيمان بالغيب والنشور والحساب والعقاب والثواب من شأنه أن يعلو بالإنسان من مرتبة الحيوان ولا يجعل حياته عقيمة لا تنتج ، ويدفع عنه التشاؤم النفسي ، فهي إن لم يسعد في الحاضرة رجا السعادة في الآخرة ، والمؤمن يتربى فيه الوجدان والاحساس بالتبعية إذا آمن بالآخرة ...

ولقد كان العبيد والفقراء يقاومون السادة والأغنياء ويرضون بالعذاب ولا يبالونه لأنهم مؤمنون بما عنده في اليوم الآخر ، فالإيمان باليوم الآخر ذخيرة إنسانية ومن حرمها فقد حرم خير زاد يعلو به الإنسان ، ويقاوم أحداث الزمان .

ولا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبرت عنه السنة بعد الموت من سؤال منكر ونكير في القبر وهما ملكان مُهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد ، فيسألانه عن التوحيد ، والرسالة ويقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وهما فتانا القبر ، وسؤالهما أول فتنة القبر . وأن يؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق ، وحكمه عدل ، على الجسم والروح على ما يشاء ...

ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى سواء كانت كبيرة أو صغيرة مثل مثاقيل الذر ، والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتطرح صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان ، على قدر درجاتها عند الله ، بفضل الله تعالى ، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى ...

وأن يؤمن بالصراط فهو حق ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، تزلّ عليه أقدام الكافرين بحكم الله تعالى ، فيهوي بهم الى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين ، فيساقون الى دار القرار ...

وأن يؤمن بالحوض المورود حوض سيدنا محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل حوله أباريق عددها عدد نجوم السماء فيه ميزابان يصبان من الكوثر ، ويؤمن بيوم الحساب ، وتفاوت الخلق فيه ، إلى مناقش في الحساب ، وإلى مسامح فيه ، والى من يدخل الجنة بغير حساب ، وهم المقربون ...

فيسأل من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدعة عن السنة ، ويسأل المسلمين عن الأعمال ...

ويؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد قضاء ما عليهم فيها ، حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى . ويؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، ثم سائر المؤمنين كل على حسب جاهه ومنزلته ، وشفاعة هؤلاء جميعا لا تكون إلاّ بإذن الله ، فهي ليست شفاعة قدرة من العباد بل هي شفاعة تكريم الله لبعض الاتقياء ومن بقي من المؤمنين لم يكن له شفيع أخرج بفضل الله تعالى ، ولا يخلد في النار مؤمن ، بل يخرج منها من كان في قلبه ذرة من الإيمان ...

وأن يعتقد فضل الصحابة وترتيبهم ، وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليّ رضي الله عنهم ، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم أجمعين ، فكل ذلك وردت به السنة ، وشهدت به الآثار ، فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به ، كان من أهل الحق وعصابة السنة ، وفارق رهط الضلال والبدعة ...

الإيمان بالرسل آجمعين

الإيمان بالرسل السابقين جزء من العقيدة الإسلامية وقد صرح القرآن الكريم بذلك قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين الى آخر الآية** ﴾ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير ...

الإسلام يطوي في عقيدته الخالصة كل عقيدة صحيحة في الأديان كلها لأنه دين الوحدانية الإنسانية .

إن الله بعث النبي الأمي محمد ﷺ برسالة الإسلام الى كافة الخلق من الإنس والجن بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فنسخ بشرعه الشرائع السابقة إلا ما قرره ، وفضله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر ، وجعل كمال الإيمان بشهادة التوحيد لاإله إلا الله وقرن إليها شهادة محمد ﷺ ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من الدنيا والآخرة وأنه لا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر عنه بعد الموت فحكمة الله سبحانه وتعالى تقتضي بأن يتخير لهذه السفارة خلاصة الانسانية وهامتها ، فلا تصطفي لها في أي عصر إلا الرجل الأول في الكمال الإنساني ، فيكون هو الإنسان الذي تتمثل فيه كمالات الجنس البشري لعصره بحيث يكون وصلة ما بين السماء والأرض ، وسفيرا بين الله والناس .

محمد ﷺ لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكمل دعوة قام بها رسول ، إنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس ، هي الكلمة الأخيرة ، الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ، فليس بعدها كلام إنها الخاتمة ...

محمد ﷺ هو خاتم النبيئين ليس بعده نبي ، وليس وراءه بشير ولا نذير ، وإذا كان ذلك كذلك فإن لنا أن نقول ان محمدا هو منتخب الإنسانية كلها وهو مجتمع كمالاتها في أكمل حالاتها وأتم صورها ...

كانت رسالات الرسل - قبل محمد ﷺ - رسالات محلية أشبه بالوصاية على الأفراد ، يظهر الرسول في جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ،

يقوم لهم وجودهم المعوج ، ويضيء لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم رسول ، ويخلفه رسول وهكذا ...

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد للناس أن يستقلوا بوجودهم وأن يفكروا لأنفسهم بعدما بلغوا الرشد ، وصاروا في عداد الرجال كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وخاتم النبيئين ...

ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة عقلية منطقية تخاطب العقل ، وتقنعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الإستدلالية التي يستقيم تفكير الناس جميعا .

إن الرسالة الإسلامية لم تستند الى معجزة قاهرة تطغى على عقول الناس ، وتغتال تفكيرهم ، وتشل إرادتهم حين لا يملكون لها ردا ، ولا يستطيعون لها نقضا ، وإنما استندت الى الكلمة ، وما فيها من عقل منطق . فلم تطلب من الناس أكثر من أن يتفكروا ، وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد بينهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف بل انهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد إذا فكروا وأخلصوا التفكير ...

﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾ (سورة سبأ) .

هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها استخدام العقل ، واحترام معطياته . ليستعمل الإنسان عقله وليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مفردات ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه متأملا متعمقا أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه ، مؤيدا أو معارضا إنه في كلا الحالين سيصل إلى مقررات ان لم تكن حقا خالصا فهي أقرب شيء إلى الحق .

فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر وأن يتحرك في كل مجالاته غير مقيد بشيء ، أو مشدود إلى شيء ، بل إن الرسالة

الإسلامية لتغري العقل إغراء على التفكير بما تنـادي بـه من دعوات عـاليـة الى إيقـاظ العقل وتنبيهـه ، وبمـا تقـدم اليـه من صور ، ومـا تفتح لـه من مجالات ، تدعو أكثر الناس بلادة وغباء الى استخدام عقولهم ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** ﴾ (سورة يونس) .

النبوة رحمة

النبوة رحمة راحمة حيث كانت ، وخير غدق حيث أصابت لأنها تحمل كلمة السماء الى الناس محمّلة برحمة الله الى عباده ، موقرة بالخير لمن اتصل بها ، وفتح قلبه لها ... فما بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله إلا والناس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض ممطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق الى الخير والحق . وعلى لسان كل كلمات ربانية ترسم للناس مناهج العمل لغايات الخير والسعادة يقول الله سبحانه ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (سورة الحديد) .

ويقول سبحانه ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ **وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ ، فأنبياء الله ورسله هم حجة الله على عباده انهم يحملون الى الناس أطواق النجاة حين تضطرب بهم سفينة الحياة وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق الى شُطآن الأمن والسلامة ، فمن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق وأطواق النجاة سلم ونجا وكان من الفائزين برحمة الله ورضوانه ومن أبى واستكبر أن يمد يده الى هذا الحبل الممدود لنجاته واستنقاذه من الهلاك المطل عليه فلا يلومنّ إلا نفسه ؟ ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها ، إن أنبياء الله ورسله هم رحمة خالصة ، لا أجر عليها ، ولا منّ معها إنها من الله والى عباد الله ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجري إلا على الله** ﴾ فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئا من شأنه أن يضيق به الناس ، أو يشقوا به ، انها دعوة تحمل الى الناس الحياة لأموات القلوب والهدى لضلالات العقول كما يحمل الغيث الحياة لصنوف الأحياء . وأما من شأنه أن يكون في الأحياء ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج**

منها ... » نعم قد يضيق بعض المنحرفين والمتسلطين بدعوات الأنبياء لان انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا في ظلها ، اذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضي على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

ومن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويصدون الناس عنهم هم دائما أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، اذ يحسبون في هذا الذي تحمله الدعوة النبوية الى الناس من عدل وإخاء تضييعا لما معهم من سلطان وجاه ، وذهابا لما بين أيديهم من مال وحطام .. أو هو على أقل تقدير ازعاج لما هم فيه من حال رضوا بها واطمأنوا اليها .

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا ينزع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ مالهم ليضيفه الى نفسه ، فما جاءت رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور ، والاستكثار من الحشم والخدم ، ان دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل وليس له من شيء الا ما تفضل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة ولما لقي في سبيلها من عنت وأذى ان أجرى إلا على الله ... ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والاحسان والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجه الغني إذا كان يؤدي حق الله ، وحق السائل المحروم .

ومن كمال حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يخلق الخلق ويتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولهذا نزّه نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ، ويقول ما أنزل الله على بشر من شيء فإنه ما عرف الله حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمته ، ولا قدّره حق قدره بل نسبه الى ما لا يليق به ، ويأباه حمده ومجده ...

كون الله سبحانه وتعالى إلهاً ، فان ذلك مستلزم لكونه معبودا مطاعا ، ولا سبيل الى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله وكونه ربا ، فان الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم وجزاء محسنهم باحسانه ،

ومسيئهم باساءته . هذه حقيقة الربوبية وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة .

وكون الله رحمانا رحيما ، فان كمال رحمته : أن يعرّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم اليه ، ويباعدهم منه ويثيبهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى ، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة ، فكانت رحمته مقتضية لها والله سبحانه وتعالى ملك ، والملك يقتضي التصرف بالقول كما أن الملك يقتضي التصرف بالفعل ، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء ، والله له الملك فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل وتصرفه نوعان : تصرفه بكلماته الكونية ﴿ **كن فيكون** ﴾ وتصرف بكلماته الدينية ، ولهذا أرسل رسله الى الناس ليعرفوهم ربوبيته . وملائكته والايمان بهم لأنهم رسل الله في خلقه ...

وهناك يوم الدين ، وهو يوم الجزاء الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرا وشرا ، وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة وقيام الحجة التي بسببها يدان المطيع والعاصي ...

وان الله سبحانه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا سبيل للخلق الى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله ، فانكار رسله انكارا لكونه معبودا ، وأنه هاد الى صراط مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو الطريق الوحيد الموصل الى طاعة الله ، ولا يعلم ذلك إلا من جهة الرسل .

والله سبحانه وتعالى منعم على أهل الهداية ، فإن انعامه عليهم انما تمّ بارسال الرسل إليهم ، وجعلهم قابلين للرسالة مستجيبين لدعوته ، وبذلك ذكّرهم منّته عليهم وانعامه في كتابه .

انقسام خلقه الى منعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين فان هذا الانقسام ضروري بحسب معرفتهم للحق والعمل به : الى عالم به عامل بموجبه وهم أهل النعمة ، وعالم به معاند له ، وهم أهل الغضب ، وجاهل به ، وهم أهل الضالين ، وهذا الانقسام انما نشأ بعد الرسل فلولا الرسل لكانت أمة واحدة ، فانقسامهم إلى هذه الاقسام مستحيل بدون الرسالة ، وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع فالرسالة ضرورية ..

الرسالة المحمدية

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمات وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ﷺ رحمة شاملة ، وبركة عامة للناس جميعا من كل أمة ، ومن كل جنس على مدى الأيام والدهور ...

انها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان ، فهي ليست للعرب وحدهم وليست لعصر النبوة وحده . فما العرب فيها إلا لسانها وترجمانها وما عصر النبوة إلا مطلعها ، ومجلى أنوارها ، ثم هى بعد ذلك رحمة مشاعة في الناس كلهم وحظ مقسوم لجميع الأزمان ﴿ **قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ، الذي له ملك السموات والأرض لاإله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته** ﴾ (سورة الأعراف) ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله الى الناس كافة إذ كانت الآية شارحة لقضية الانسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ، فليس لأمة ولا لشعب ، فضل أو امتياز في الأصل والنشأة ، ولا في الدم ، أو الوطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق** ﴾ فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء وتفتح بها رسالته ، الله هو الخالق لكل شيء ، والانسان هو من مخلوقات الله ، قد خلق (الانسان) من علق ...

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : الانسان .. الانسان مطلقا في أي زمان ، وفي أي مكان ...

القرآن الكريم كله في أحكامه وتشريعاته ، وفي أمره ونواهيه وفي نصائحه ووصاياه يخاطب الناس جميعا ، ويدعو الناس جميعا بهذه الكلمة العامة الشاملة ﴿ **ياأيها الناس** ﴾ أو ﴿ **يا بني آدم** ﴾ أو ﴿ **يأيها الانسان** ﴾ ولم يختص العرب وحدهم أو قريشا بخطاب أبدا ، فلم يقل ياأيها العرب ، أو يا بني اسماعيل ، أو يا بني عدنان وقحطان . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله في أقوامهم ، ومن أرسلوا اليهم ، فكان كل نبي

يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك في قصص الأنبياء : ﴿ **انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم اني لكم نذير مبين** ﴾ الى غير ذلك من الآيات التي تخاطب أقوام الأنبياء .

هذه رسالة محمد ﷺ قد حملها صاحبها ـ بتدبير السماء ـ الى الناس كافة ، فآذنهم من أول يوم بما أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : ﴿ **ياأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا** ﴾ وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة للانسانية كلها : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** ﴾ ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ ﴿ **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾ ﴿ **يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** ﴾ وهكذا تكررت دعوة الاسلام على لسان الرسول ﷺ ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعا لا يلتبس بها شيء من التخصص بأمة دون أمة أو جيل دون جيل فهي خير مطلقا للناس جميعا ورحمة مبسوطة لكل من يتعرض لها ويمد يديه إليها .

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للاسلام ، فدخل فيه العبيد والاحرار ، والعرب والعجم ، فكان بلال العبد وسلمان الفارسي من أول الناس اسلاما . سئل الرسول ﷺ من أول من بايعك على الاسلام ؟ قال : « **حر وعبد** » . قيل أن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال رضي الله عنهما ..

وكان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقياصرة والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي ﷺ بكتبه ومبعوثيه الى النجاشي

ملك الحبشة والى كسرى ملك الفرس ، والى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعا الى الايمان بالله ، والاستجابة لله ولرسوله ، فالملوك والسوقة ، والاحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعوون الى الايمان بالله ، والاستجابة لداعي السماء . ثم انه لم تمر سنوات على الدعوة الاسلامية حتى دخل في دين الاسلام كثير من الأمم والشعوب من جميع الاجناس ومن مختلف الأمم ، وكان مكانهم في الاسلام بمنزلة واحدة لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ إن الله عليم خبير** ﴾ (سورة الحجرات) .

الرحمة التي جاء بها محمد ﷺ ، فالقرآن الكريم تكلم عليها في غير ما موضع فقال مخاطبا النبي الكريم ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ . وقال سبحانه ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعا ، وليس لشيء في باب الرحمة بالناس أفضل من استنقادهم من الضلال وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس ، ان ذلك يعادل الحياة بعد الموت ، والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ ؟ ورسالة محمد ﷺ تحمل للناس جميعا الهدى في رفق ، وفي لين ، فليس فيها البريق الذي يخطف الأبصار ثم يخبو ، وليس فيها العنف الذي تنقطع له الانفاس ، وينقطع دونه جهد كثير من الناس إنها ليست رسالة عذاب كما كانت كثير من الرسالات قبل مجيء محمد ﷺ ، فكان اتباع الرسل قد تطبعوا بطبائع الوحوش الكاسرة ، ولم يمتثلوا لما جاءتهم به رسلهم الكرام وتمادوا في طغيانهم فتنتهي حياتهم بالبتر الحاسم والتدمير الكامل بالمجتمع المريض ، فقد شهد كثير من الرسل مصرع أممهم ، واستئصال فروعهم وأصولهم ولم ينج منهم الا قلة تعد على رؤوس الأصابع قال تعالى : ﴿ **الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال**

وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾ ﴿ **وأنه أهلك عادا الاولى ، وثمودا فما أبقى ، وقوم نوح من قبل ، انهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾ فالهلاك الجماعي والابادة العامة ، والاستئصال الشامل لهؤلاء المنحرفين داعية من دواعي التأمين للانسانية ، وحمايتها من عدوى هذا الانحراف الذي لا يرجى له شفاء ! والذي ان عاش في الناس امتد عدواه الى غير المصابين به ..

أما الرسالة المحمدية فانها لم تجيء من أجل أمر عارض ولا لحالة طارئة في جيل من أجيال الناس ، وانما جاءت للناس جميعا في جميع أحوالهم وأزمانهم ...

ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الاجراءات السريعة الحاسمة التي تنهي الموقف بين النبي وقومه في لحظة واحدة ، ينتهي فيها كل شيء ، ويسكن فيها كل شيء ﴿ **هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا** ﴾ بل ان تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، واعطائهم الدواء جرعة بعد جرعة على فترات متفاوتة ، ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على غير التدبير والتقدير لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

والذي ينظر الى رسالة محمد ﷺ يجدها أنها تناولت الحقائق العامة ، والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس في جميع الظروف والأحوال ولم تقف عند الحالات التي لا تقع الا في النادرة الشاذة من الحياة ...

ولك أن تأخذ أيّ مبدأ من مباديء الاسلام ، وأيّ حكم من أحكامه ، وأن تنتقل به عبر الأزمان ، وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبوا على الحياة أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفا عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به ـ فلك أن تسيء الرأي بهذا الدين ، وأن تنضم الى الجهة المعادية له ، وأنا زعيم لك ان أنت نظرت فأحسنت النظر ، وقدّرت فأحسنت التقدير وحكمت فعدلت في الحكم ،

ووقفت الى جانب الحق ـ وأن تعود بعد هذا وملء كيانك ايمانا بأن هذا الدين هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ...

تلك هي الرسالة التي تلقاها محمد ﷺ من ربه ، ونصّب نفسه لها ، وجاهد في سبيلها واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضر من أجلها ، فكان له هذا النصر المبين ، وكان لرسالته هذه الثمرات الطيبة المباركة في الحياة ، بما غرست في القلوب من ايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وبما رسمت للناس من مناهج الحق ، والخير والاحسان ، وتلك عقبى الدعوات الصادقة ، والنيات الخالصة ، لا يخطئها النجاح أبدا ، وان قامت في وجهها العواصف ، واعترضت طريقها المعاثر ، فان يد الله قائمة عليها تشد أزرها وتثبت خطاها ، وتمكن لها أسباب البقاء في الحياة .

البعثة المحمدية على صاحبها
أفضل الصلاة وأزكى التسليم

بعث الله تعالى نبيه الكريم ، ورسوله العظيم سيدنا محمدا ﷺ ، على حين فترة من الرسل وفي جاهلية جهلاء لا تعرف من الحق رسما ، ولا تقيم للعدل وزنا ، لقد اصطفاه الله ليكون رسولا للعالمين ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا حاملا معه مختتم الرسالات السماوية الى الناس كافة ، وقد أمده الله بالصبر واليقين والعزم ، فواجه بها كفار قريش كلهم بصلفهم وكبريائهم وجبروتهم وعتوهم وغرورهم فلم يحفل بتهديدهم ووعيدهم ، ولا لان لهم ، فعارضوه ورموه بالزور والبهتان ، وبالكذب تارة ، وهو الصادق المصدوق لم يجربوا عليه كذبا قط ، وتارة يتهمونه بالسحر وهم يعلمون أنه لم يكن من أهله ، وتارة يقولون انه مجنون وهم لا يشكون في كمال عقله ، وحاولوا مرارا أن يستنزلوه على طريق عبادتهم ليظفروا منه بالموافقة على الاعتراف باعتقاداتهم الفاسدة ، فأبى عليه الصلاة والسلام الا الثبات على أوضح طريق الحق ..

حمل الرسالة السماوية ، وواجه بها الناس جميعا متحديا عقائد فاسدة ، ومتصديا لقلوب مريضة وعقول مظلمة ، وطبائع صلدة متحجرة ، فما وهن صلى الله عليه وآله وسلم ، وما ضعف عن حمل هذه الرسالة ، وصبر على ما تنوء به الجبال من الاحمال الشاقة ، فلكم لقى من السفهاء والحمقى والطغاة الظالمين من بغي وعدوان ؟ كيف به وقد بلغ بصبره وجهاده وعزمه ما أراد الله لدعوته أن تبلغ ؟ وهكذا ما آنفك يدعو الى الله فيأتي اليه الواحد بعد الواحد متسللين مختفين خوفا من اعتداء الكفار عليهم ، ولما اشتدت معارضة كفار قريش لدعوة الاسلام ، وتكالبت على الرسول وأصحابه قوى الشر والطغيان خاف على الدعوة أن يمسكها المشركون على أن تبلغ غايتها ، وتملأ أسماع الناس بهديها ، وتفتح مغالق القلوب بنورها ، فخرج مهاجرا من البلد الحرام حاملا لهذه الرسالة الربانية ثم خاض غمار الحروب في سبيلها ، فكان ﷺ يتقدم صفوف الأبطال والفرسان ..

وقد لقى مكر اليهود في المدينة بلطف ووداعة ، حتى اذالجوا في الضلال ، وتمادوا في الكيد والبغي صدمهم صدمة ألقت بهم خارج الجزيرة العربية كلها ، فبلّغ رسالة ربه ، وجاهد في سبيلها حتى اجتمع الناس عليها ، ودخلوا في دين الله أفواجا .

لقد امتنّ الله على العالم عامة وعلى العرب خاصة ببعثة سيدنا محمد ﷺ ، فبها انتقل من الضلال الى الهدى ، ومن الظلام الى النور ، ومن الجهل الى العلم ، ومن القسوة الى الرحمة ومن الظلم الى العدل ، ولم يتذوق العالم طعم المدنية الصحيحة ولا الانسانية الكاملة ، ولا الحرية والعدالة الحقيقيتين إلا بعد البعثة المحمدية التي غيّرت مجرى تاريخ البشر وتفكير العالم ووجهته أحسن توجيه .

البعثة المحمدية صححت العقول الفاسدة ، والمفاهيم الخاطئة للناس ، وسمت بهم ، فأصبحوا لا يؤمنون إلا بالله ربا ، ولا يعبدون إلا الاله الواحد القوي العزيز الذي لاإله إلا هو ...

فبهذه البعثة الميمونة تحرر الضعفاء من الاستبداد والاستعباد والأفكار والعقائد من القيود والخرافات والأوهام ..

نجحت الدعوة الاسلامية في مكة وربوعها ، وعلى العرب المتعصبين الضالين ، ومن بعد نجحت في العالم شرقا وغربا ، وسرُّ نجاحها وتغلبها على العقبات والصعاب ، يرجع الى المسلمين الذين تمسكوا بالعقيدة تمسكا قويا ، بالإخلاص لها والتفاني في سبيلها ، فقد كانوا يقدمون على المعركة في سبيل الله وهم أقلة في عددهم وعدتهم يجابهون كثرة من الأعداء ، وهم في صلفهم وغرورهم بخلاف المؤمنين الذين يلقون أعداءهم مستبسلين يرجون رضاء الله ، ولا عليهم في ذلك أعادوا الى الديار سالمين منصورين أم فاضت أرواحهم الى ربها راضية مرضية .

وأول معركة في الاسلام هي غزوة بدر الكبرى انتصر فيها التوحيد على الشرك ، والحق على الباطل وغلبت الفئة المؤمنة الصابرة الكثرة المتعجرفة ، ما هي إلا دليل على الاخلاص والصبر .

وقعت هذه الغزوة المباركة في السابع عشر من شهر رمضان المعظم في السنة الثانية من الهجرة ... كان الاسلام المهاجر لا زال خافض الجناح في المدينة وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا زالوا تحت البلاء يمتحن الله صبرهم بالالم ، ويختبر ايمانهم بالفتنة ليجتبيهم لنشر دعوته ويعلم الذين يصطفيهم لتبليغ رسالته ، فلما أراد الله لدينه أن يسود ولمجده أن يعود ، ولنوره أن يتم ، أرسل جنوده الثلاثمائة نفر الى وادي بدر يعتقبون على سبعين بعير ، ويستعينون بصبر المجاهد على قلة الزاد وبعزة المؤمن على الذل ، وبعفة الزاهد على الفاقة ، كانوا يسيرون الى بدر في استغراق الصوفي الى ما وعدهم الله احدى الطائفتين ـ العير أو النفير ، أو إحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد .

فموقف غزوة بدر من الشرك كان موقف محنة ، فاما أن يقود محمد ﷺ زمام البشرية في سبيل الله فتنجو ، واما أن يردها أبو جهل الى مجاهل التيه والضلال فتهلك ...

وقفت مدنية الانسان بأديانها وعلومها وراء محمد ﷺ وراء القليب ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكثيب ، فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان فاما أن يتمزق تراث الانسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله في هذا القفر ، واما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذا البئر ، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذا الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه المعركة الفاصلة ...

كان النبي ﷺ أمام العريش يدعو ربه ووجهه الى القبلة ، ويداه الى السماء ، ورداؤه من الذهول في الله يسقط عن منكبيه فيقول : « **اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة ، فلن تُعبد في الأرض** » (1) فيرد الصديق عليه رداءه ، ويقول بعض هذا يا نبي الله فان ربك منجز وعدَهُ ، وما هي الا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل

---

1) شطر من حديث طويل في غزوة بدر . اخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس

الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون في اشراق عجيب من الايمان لا يرسم في أدهانهم الا الحور العين ولا يصور في أعينهم إلا الملائكة وقد قذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السدّ الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الالهية عن انتصار ثلاثمائة على ما يقرب من ألف جندى من جيش الضلال والشرك ...

غزوة بدر غيّرت وجه التاريخ ، ومكّنت للمسلمين العرب أن يبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الدين ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم والوحي ، لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمرة السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمرة الايمان والصدق ، قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل ، والمثل العليا ، فيها الحب والإيثار فلا تبالي بالعدد الكثير ، ولا ترهب السلاح ، ولا تعرف الخطر ...

بهذا الايمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في غزوة بدر والقادسية واليرموك ، وبهذا الايمان الصادق جعل الله من البادية والعروبة عمرانا صادقا طبق الأرض بالخير وملكا نظم الدنيا بالعدل ، ودينا ألف القلوب بالرحمة .

بهذا الشعور القدسي ، وبهذا اليقين النفسي وقف المسلمون في كل معركة انتصروا فيها عبر التاريخ ، فالدعوة المحمدية تتطلب من المسلمين أن يعملوا لدنياهم ولأخراهم فتريدهم أن يكونوا شجعانا فيما يقولون ، وفيما يعتقدون ، ويفعلون لا يخشون في الله لومة لائم . وليست الشجاعة مقصورة على الحروب والمعارك ، فان الدعوة الى الحق في عالم ضال شجاعة ، والدعوة الى الإصلاح في أمة فاسدة النظم شجاعة ، والاستمساك بالعقيدة شجاعة ، مهما أوذي صاحبها ، والدفاع عن الدين أو العرض أو الجار المضطهد أو الأجير المظلوم شجاعة ، والشجاعة تعد فضيلة لأنها مجازفة بالحياة ، والحياة أغلى ما يملك الإنسان . أما الجبن فانه رذيلة لأن صاحبه يرضى بالمذلة والمهانة ، ونذير باستمرار الضعف والتخلف والفوضى ، ان تاريخ المسلمين لحافل بأعلى

المثل في الشجاعة التي ناصرت الحق على الباطل ، وأزرت الخير على الشر وظاهرت الصلاح على الطلاح ..

كان المسلمون الأولون على أهبة الاستعداد دائما لما عساه أن يطرأ عليهم من الحوادث ، فاذا نزلت حادثة فجأة تجدهم مستعدين لها ، وشجاعة المسلمين في سبيل اقامة شعائر دينهم ، ومسارعتهم في رضى الله لا تحتاج الى برهان ، قال الله عز وجل في حقهم : ﴿ **فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ (سورة آل عمران) .

كان النبي ﷺ شجاعا يقود المعارك ويتقدم الصفوف ، ويتصدى لكل بطل موهوب ، يقول سيدنا علي كرم الله وجهه ، « **إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق إتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدوّ وقد ثبت في غزوة حنين لما تفرق عنه أصحابه ، فكان يسير نحو العدو** » ، وهو يقول : « **أيها الناس تعالوا إلي أنا محمد رسول الله أنا محمد بن عبد المطلب** » (1) ..

وكان أبو بكر رضي الله عنه شجاعا لا ينثني عن عزيمة يعتقد فيها خيراً للاسلام ، فقد فوجيء إثر توليته للخلافة بارتداد العرب عن الإسلام ، وكان هذا الإرتداد ممثلا في رفض الصلاة والزكاة فقال :
« **والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ما تركتهم ، ولو خذلني الناس لجاهدتهم وحدي** » (2)
ولم تكن مشكلة الصلاة والزكاة فحسب ، بل مشكلة الوحدة أيضا التي إنفصمت عراها ، وأصبح المسلمون طوائف متنافرة متناحرة ، فكيف يطيق أبو بكر مشاهدة الأمة التي جمعها الإسلام ، وأنقذها من الكفر تتفرق وأعضاؤها تتناحر ، ووحدتها تتمزق ، وكيف يمكّن للعصاة الثائرين أن

---

1) أخرجه بن هشام ومسنده صحيح .
2) القصة ثبتت في صحيح البخاري . ورواها مالك ـ بلاغا ـ

يحقّقوا أغراضهم ؟ فهذا ما لا يطيقه أبو بكر أبدا وكان سيدنا عمر رضي الله عنه شجاعا في إعلان رأيه متحديا كفار قريش ، ولما تولى الخلافة ربّى المسلمين على خلق الشجاعة وحثهم على أن يعلّموا أولادهم السباحة والرمي وكذلك كان سيدنا علي كرم الله وجهه بطلاً شجاعا منذ نشأته إلى وفاته شجاعا في كل حرب خاضها ، شجاعا في كل رأي أذاعه ، وكل عمل قام به ، هذا الشرف العظيم الذي أحرز عليه المسلمون الأولون لم يأتهم تلقائيا ، أو جاءهم عفوا ، بل قدموا في سبيله الأموال والمهج والتضحيات الجسام ، والقرآن كان يرغبهم في الشهادة بقوله عز وجل : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ (سورة آل عمران) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحث على الشهادة ، ويجد المطلع على سيرة ابن هشام أحاديث للشهادة تطيب لها النفوس ، وتهتز لها المشاعر في كل غزوة غزاها سيدنا ونبينا محمد ﷺ كان يبين للشهداء من الآيات البينات ، وكان يقول : « **الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا** » (1) رواه الإمام أحمد ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجد واطيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلّغ إخواننا عنّا إننا أحياء في الجنة نرزق ألاّ يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عند الحرب ، فقال الله أنا ابلغهم عنكم فأنزل الله الآية السابقة . ولا تحسبن الخ** » (2) وقال عليه الصلاة والسلام : « **والذي نفسي بيده ما من مؤمن يفارق الدنيا لا يحب أن يرجع**

---

1) أخرجه أحمد في مسنده ـ الطبراني ـ الحاكم ـ عن ابن عباس ـ حسن ـ
2) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس ورجاله ثقات وصححه حبان والحاكم ووافقه الذهبي .

إليها ولو ساعة من نهار ، ولو أعطيت له الدنيا وما فيها إلا الشهيد فانه يحب أن يردّ الى الدنيا فيقاتل في سبيل الله فيقتل مرة أخرى » (1) ...

الدعوة الاسلامية كانت في الصدر الأول دعوة ربانية وقيادة في ممارستها وتنظيمها ، تخلف المسلمون يوم تخلفوا عن القيادة الفكرية ، وتقاعسوا عن حملها وأساءوا تطبيقها .

لم يتخلف المسلمون الحاضرون عن الركب الحضاري نتيجة تمسكهم بدينهم ـ كما يقول بعض المغرضين ـ وإنما بدأ تخلفهم يوم تمسكوا بالمبادىء الوضعية ، وسمحوا للعوائد الأجنبية أن تدخل ديارهم وتحتل أذهانهم وتستهوي أبناءهم ، ولن يستأنف المسلمون الحياة الإسلامية إلا إذا حملوا دعوة الاسلام بقيادة فكرية إسلامية ، ويجب أن تحمل الدعوة كما حملت من قبل إقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دون أن تحيد عن ذلك قيد شعرة ، ودون أن يحسب لاختلاف العصور أي حساب لأنها اختلفت فيها الوسائل والأشكال ، أما الحقائق والجواهر لم تختلف ، وينبغي لحامل الدعوة أن يكون صريحا في الحق وجريئا على الباطل ، وقويا بالإيمان ، ويجب على حامل الدعوة أن يدعو إلى سيادة الإسلام سيادة مطلقة بغض النظر عما إذا وافق الناس أم خالفهم ، ويعلن أحكام الإسلام سواء رضي بها الناس أم رفضوها ، فحامل الدعوة لا يتملق ولا يجامل من بيدهم الأمور .

حمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القيادة الفكرية في مكة فلما وجد أن أبناءها لا يحققون الغاية هيّأ أبناء المدينة لذلك ، ثم أوجد الدولة وطبّق الإسلام على المجتمع المدني ، وأحدث فيه إنقلابا في العقيدة ، وتقوية الصلة بالله ...

ويجب على كل من ينتمي إلى الإسلام أن يؤيد الدعاة في مهمتهم كواجب مكلفين به ، وأنهم مسؤولون أمام الله إذا لم يقوموا به ، قال الله :

---

1) ورد بلفظ يقارب في صحيح مسلم . رواه الترميذي من حديث أنس . ورواه النسائي من حديث عبادة بن الصامت

﴿ **قــل هــذه سبيلي أدعــو إلى الله على بصيرة أنــا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ (سورة يوسف) .

لقد نوّه الله سبحانه وتعالى بهذه البعثة الميمونة ، والمنـة الكبرى التي امتنّ بها على العالمين ، والنفحة الربانية العظيمة ، والرحمة المهداة ، ألا وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لولا رسالتـه لما اهتـدينـا ، ولا تحلّينـا بسـائر مكارم الأخلاق ، والخلال الحميـدة التي سعـدنـا بهـا في ديننـا ودنيـانـا أفرادا وأمما .

وضعت هذه الرسالة الإلهية الخالدة حدا فاصلا لعصر الجاهلية وافتتحت عهدا جديدا ، عهد النور والعلم ، والعدل والمسامحة والإتحـاد ، ودعـا النـاس إلى دين واحد ، وعبادة إله واحد ...

هيّأ الله صاحب الرسالة منـذ صغره لحملهـا ، فحلاه منـذ نشـأتـه بـالعلم الذي لا يشوبه جهل ، وبالفضيلة التي لا يعتريها نقص ، وبـالصـدق الـذي لا يخالطه كذب ، فجمع له غرر الفضائل التي فاق بها الأولين والآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم ، ولا تزال على حالهـا منهلا عـذبـا للواردين من أصحاب اليمين والسـابقين ، قـال تعـالى : ﴿ **وعلّمـك مـا لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ (سورة النسـاء) .

فقد جمع له من مكارم الأخلاق ما تفرق في غيره من النبيئين والمرسلين وقـدمـه عليهم بقولـه : ﴿ **واذ أخـذنـا من النبيئين ميثـاقهم ومنـك ومن نــوح وإبراهيم ومــوسى وعيسى بن مريم وأخــذنـــا منهم ميثـاقـا غليظـا** ﴾ (سـورة الاحـزاب) . فصلـوات الله وسـلامــه عليهم أجمعين ...

أكرم الله الأمة الإسلامية بخاتم الرسـالات الـذي زكّـاه ربـه وطهره من أدران الجـاهليــة ، فكان صلـوات الله وسـلامــه عليــه يتقلب في أصـلاب السـاجدين وأرحـام الطـاهرات حتى برز إلى الوجود ، ولم يخرج من سفـاح قط كما أخبر هو عن نفسه ...

فميلادك يا سيدي يا رسول الله كان حادثا سعيدا على البشرية جمعاء ، اهتز له الكون ، وطربت السماء ، وهتفت له الملائكة وابتهجت بـه الرسل ، وتغنت بـه الأطيـار من فـوق أيكتهـا ، وعمّت النـاس البهجـة والسرور ، ومادت الأرض فرحا بأمر ربها وأصغى الكون لمـا ترتلـه عليـه من الآيـات الباهرات ...

فهَا هي رسـالتـك ـ يـا رسـول الله ـ يكتب لهـا الخلـود على الأبـد ، ودعوتك تخرق الحجب الكثيفة ، وتغـذي العبـاد في كل زمـان ومكان وأينما حلّت تـزيـل الظـلام والشرك من طريقهـا ، وتعصف بـالظلم والظـالمين ، ولا زالت تغـزو المجـاهـل والأغـوار والأدغـال ، والصحـاري والبحـار فتثير القلـوب الهـامـدة ، وتهيب بهـا إلى التـوحيـد فتنقـذهـا من رذيلـة الشرك والشك ، وتزيل عنهـا الحيرة والضلال ، وترفع عنهـا الإلتبـاس والغموض ، لا زال النـاس يسيرون على هـديهـا المستقيم وطريقهـا الأمثل بعـدمـا مضى عليها أربعة عشر قرنا من بعثتـك الميمونـة ، وصيحتـك المـدويّـة في الآفـاق لا زالت ترنّ في الآذان إلى الآن وإلى الغد ...

سيدي يا رسول الله ـ سيرتك العطرة لا زالت غضّة طريـة لم يجـد لهـا الزمان بديلا ، فـأخلاقـك العليـا التي شهـد لـك بهـا التنزيل لا زالت محل اندهاش وإعجاب من طرف الأجيال المتعاقبة التي جاءت من بعـدك ، وفي مقدمتهم العباقرة والفلاسفة والعلمـاء ، بل أصبحت شمسـا منيرة في كل قلب طاهر نقي اللّهم إلا ما كان من قلب حاسد فـأعمى بصره وبصيرتـه ، نورك الوهاج فهو لا يبصر النور كالخفافيش التي تعيش في الظلام ، هكذا صاغك ربك ظاهرا وباطنا فكنت سر الوجود .

فمنهاجك الرباني طهّر النفوس من دياجير الشرك ، وأنارهـا بـالتوحيـد فرجّعها إلى فطرتها السليمة التي فطر الله الناس عليهـا ، وأقـام صرح العـدل شامخا ، فأصبح الناس سواسية في هـذه الحيـاة لا تفـاضل بينهم إلا بـالعمل الصـالح النـافـع للبـلاد والعبـاد ، لا زال هـو المنهـج الـوحيـد الـذي يكرم الانسانيـة ، ويحفظهـا من شوائب الظلم والطغيـان ، لم يرق إليـه أيُّ منهج من مناهج النـاس الكثيرة بعـدمـا تقـدم العلم وصـال الفكر في مجـال العلوم

ومعارف الدين الذي جئت به ـ يا حبيب الله ـ ظهر على جميع الأديان كلها قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا** ﴾ (سورة الفتح) ...

هذا الدين حق ، وإن ارتاب فيه المبطلون ، وعارضه المكذبون وكفى بالله شهيدا على استقامته ، وما دام هناك تأييد الله لهذا الدين فلا بد أن يسود ...

تجلت عناية الله بهذا الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه فبعث إليه رسوله الكريم على حين فترة من الرسل بالإسلام الذي هو خلاصة الأديان المنزلة من قبله ، فأنقذ صلى الله عليه وآله وسلم العالم مما كان يتخبط فيه من الجهالة والحيرة والشرك والضلال بعد تضحيات جسام فحقق له ما كان ينشده من إيمان بالله وعبادته وحده ، وعدل ومساواة بين الناس ، وكرامة وحرية وإخاء ...

بهذه الرسالة كان المبعوث رحمة للعالمين ، بهذه الرسالة إلتقت السماء مع الأرض ، والروح مع المادة ، بهذا الرسول الكريم كان خاتما للرسالات السماوية ، وإيذانا بالوحدة البشرية ، الوحدة الشاملة التي لا تفرق بين أبيض وأسود ، الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ...

لما تمت النعمة وكمل الدين ، وبلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رسالة ربه أحس بقرب أجله وخروجه من الدنيا ذكر الفقراء ، وكان طول حياته لا يرغب في المال ، وكان كلما جمع منه شيئا أنفقه في الصدقات ، وقد أعطى لعائشة رضي الله عنها يسيرا من المال لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب في سِنة ، ولما أفاق سألها إن كانت أنفذت أمره ، فأجابته بـ : « لا » ، فأمر بالنقود إلى العائلات المعوزات فوزعت عليهم ،
« عندها استراح ﷺ لأنه كان يخشى أن يلاقي ربه وقد ترك في بيته مالاً لم ينفقه على عباد الله » ..

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي بالناس ، وآخر يوم خرج فيه ، وهو متكيء على الفضل بن عبّاس ، وعلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقصد منبر الخطابة الذي كان يعظ عليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال :

« **أيها الناس تسمعون قولي إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فليتهم من سمعتي وإن كنت سلبت أحدا ماله فإليه مالي يقتص منه ، وهو في حلّ من غضبي ، فإن الغلّ بعيد عن قلبي ، ثم نزل على المنبر وصلى بالجماعة ، ثم دعا لشهداء البقيع ولمن حارب معه ، وطلب الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبي في ذلك اليوم مشهد إجلال ووقار ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يبكي ويقول : هلاّ افتدينا روحك بأرواحنا** » ، ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة رضي الله عنها ، واضطجع تعبا مهزولا ، وبدأ المرض يشتد عليه ، فتخلف عن الصلاة ، قيل له قد جاء وقت الظهر ، فأشار الى أبي بكر ليصلي بالناس ، وأخبرت عائشة عن حالة احتضاره ، فقالت كان رأس رسول الله مسندا إلى صدري وبقربه قدر ماء يقوم ليضع فيها يده ، ويمسح جبينه ويقول : « **رب أغني على تحمل سكرات الموت أدن مني يا جبريل رب اغفر لي ، واجمع بيني وبين أصدقائي في السماء** » ، ثم ثقلت رأسه ، ومال ثانية إلى صدري ، والتحقت روحه الطاهرة بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم .

محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

يجب علينا - أيها المسلمون - أن يكون الرسول المحبوب لنا أسوة حسنة كما قال الله عز وجل : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ، هذه الأسوة تمثلت في أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حتى فاضت على أصحابه لأن الله تولى أدبه كما أخبر هو عن نفسه قال : « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** » (1) وأخبر الله عن أخلاقه في كتابه الكريم فقال : ﴿ **وإنَّك لعلى خلق عظيم** ﴾ وقال أيضا : ﴿ **ولو كنت فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ سئلت السيدة عائشة عن أخلاق الرسول ﷺ قالت كان : « **كان خلقه القرآن** » (2) .

الأخلاق متفاوتة بين الناس ، وأخلاقه في الذروة منها ، وأنها على درجات ، والقرآن يذكر هذه الدرجات فيقول : فمنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، أو ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، أو درجة المقربين السابقين أو العافين عن الناس والله يحب المحسنين . ولاشك أن رسول الله في أعلاها والقرآن الكريم يحدد هذه الدرجة التي تكلمت عليها السيدة عائشة بقوله : ﴿ **وانك لعلى خلق عظيم** ﴾ ما هو هذا الخلق - قيل هو القرآن ، أو الاسلام ، أو الطبع الكريم ، أو لاهمة لك الا الله هل هذا الخلق يشاركه فيه أحد من الأنبياء والملائكة ، أم خاص برسول الله ﷺ كإبراهيم عليه السلام إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب ، أو كسيدنا إسماعيل وكان عند ربه مرضيا ، أو كسيدنا عيسى عليه السلام وقد جعله الله مباركا ، أو الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لكن القرآن يحسم الأمر في ذلك ، ويبين صاحب الخلق الأعلى وهو النبي محمد المبعوث إلى الناس كافة وخاتم الانبياء ، وأول المسلمين على الإطلاق فقال : ﴿ **إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ (سورة الأنعام) هذه

---

1) قال فيه ابن تيمية : المعنى صحيح - لكن لايعرف له اسناد ثابت

2) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة . ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ مشابه

الآية الكريمة تبين درجة الأخلاق الكاملة التي وصل إليها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند ربه ، ولقد بعث ﷺ « **ليتمم مكارم الأخلاق** » (1) فإنه لم يبعث لينشرها فكانت منشورة ولكنها لم تتم ، وعلى هذا كانت الإنسانية ناقصة قبل مجيئه صلى الله عليه وآله وسلم فكانت تريد شخصية أن يزكيها الله ويطهرها ، ويبارك في روحها ، وكان لا بد من هذه الشخصية المباركة ليكمل بها الدين وتتم النعمة ، ولما بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تمت النعمة الكبرى ، وأكمل الله له الدين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ وبعدما تم هذا الدين وتمت النعمة قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ وهكذا كانت هدايته لجميع الناس ، وربطت صفاته الخلقية بينهم برباط وثيق ، وكانت قيادته صلى الله عليه وآله وسلم ملهمة الخير لهذه الأمة ...

كان الصدر الأول من سلفنا الصالح مملوئي القلوب بالمحبة لله ولرسوله مشغولي الجوارح بالطاعة ، طاعتهم ابتهال لله ، وإنابة اليه ، ألسنتهم ذاكرة ، وقلوبهم خاشعة ، وجوارحهم ساعية حافدة ، كانوا ممتثلين لأوامر الله بعيدين عن النواهي فمحبتهم لله ولرسوله كانت مجلوة في مظاهر الإمتثال وإتباع السنة ، والإقتداء الكامل محفوفا بالوقار الشامل . قلوبهم عامرة ، وأجسادهم مجتهدة مجاهدة في كل مظنة قرب من الله ورسوله .

سيدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليك ـ الهدى ما بيّن الله وبيّنت ، وما أمر الله وبلغت فلنذكرك ونعظمك ونقدسك ، وليكن في ذكرنا لك ذكرى لكل قلب منيب ، وليخشى كل مُدعي محبتك أن يبتدع فيما جئت به ، فما قصّرت يا رسول الله في التبليغ ولا كتمت ، ولا تركت حاجة لمبيّن بعدك إلا تذكيرا وتعليما وتبصيرا ، فذكرنا لك يا رسول الله هو أن ننشر هديك ، ونحيي سنتك ، ونسلك سبيلك ، ونحارب البدع التي حذرتنا منها ...

---

1) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في السنن ـ عن أبي هريرة .

الصلاة والسلام عليك يا خير مولود ، ويا خير مبعوث ، حق للعالم أن يفرح بمولدك الشريف كما كانت فرحته العظمى ببعثتك السعيدة . موفقامن ذكرك ، فإن الله لا يقبل أن يذكر ولا تذكر ، موفقا من عمّر أوقاته بالصلاة والسلام عليك واجتلى أنوارك عند كل مناسبة طيبة تذكر فيها .

كان المسلمون الأولون في احتفال دائم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينفذون شريعته ويطيعون أوامره ويرددون ذكره بكل إجلال وتعظيم ، واخلاص ومحبة في كلمتي الشهادة : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، وفي أذان الصلاة ، والتشهد وغيرها من الشعائر الدينية الأخرى يصلون عليه ويسلمون كلما ذكر اسمه الشريف طاعة وامتثالا لله ﴿ **إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ ...

هكذا كان المسلمون الأولون قلوبهم مملوءة بمحبة رسول الله ﷺ ، فإذا قرأوا القرآن يذكرونه ، وإذ يصلون يذكرونه ، وإذ يتحدثون يذكرونه ، فحياتهم كلها كانت ذكرا لله ولرسوله ، وقد اشترط الله فيمن يحبه أن يحب النبي ﷺ قال : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ ...

لقد كان المسلمون الأولون يتجهون دائما إلى الحقائق لا إلى صورها ومظاهرها ، وإلى إصلاح المجتمع بالحق والخير والعدل لا إلى خِداعه بالشكليات التي لا تغنيٰ من الحق شيئا ...

وهل كان المسلمون الأولون يتصورون أن تقام الذكرى للزعماء والعظماء ويجهلون ذكرى نبيهم ، كلاّ ؟ لم يقع هذا ولكن جذوة الإيمان فترت في القلوب ، وشغل الناس بالشقاشق عن الحقائق ، وتزيين الظاهر عن تعمير الباطن . غلبت البدع والأهواء على مسلمي اليوم ، وطرأ ما طرأ عليهم ما طرأ على سوالف الأمم فابتدعوا بدعاً سموها طاعات وظواهر زعموها عبادات مع أن صميم العبادة الاسرار بالذكر وتعمير القلوب بالطاعات ،

والتمسك بالمأمورات والتجافي عن المنهيات . روى عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي** » (1) .

---

1) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه . من حديث ـ أوس بن أوس ـ واسناده صحيح .

التعريف بالايمان

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **من شهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله حرّم الله تعالى جسمه على النار** » **(1)** أخرجه الترمذي . وبقيت الأركان الأخرى فهي من الإيمان أيضا ، وأنها لا تقوم إلا بالشهادتين ، والشهادتان بالنسبة الى الاسلام كالروح بالنسبة إلى الجسد .. فشهادة أن لاإله إلا الله محمد رسول الله هي حياة كل جزء من أجزاء الاسلام ، والشهادتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ، والمسلم عندما يقول : لاإله إلا الله ، فكأنه قال : لا مطمئن إلا اليه ، ولا مستجار إلا به ، ولا محبوب ولا معبود ، ولا مالك ولا مطاع ولا معظم ، ولا معتصم به ولا سيد ولا حاكم إلا الله ، ولا يقوم الإنسان بلوازم لاإله إلا الله إلا إذا آمن برسوله الكريم ، وتعرف بواسطته على الطريق الذي يريد أن يسلكه ليحقق بذلك التوحيد والطاعة لله ، ولهذا كان الإيمان بالرسول شرط في الإيمان بالله لأنه الدال على الطريق الموصل اليه ، إذ لا يقوم أحد بحق الله إلا إذا عرف رسوله ، ولهذا حكم بكفر من لم يؤمن بالرسول بعد أن أقام الحجة عليهم برسالته ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا** ﴾ (سورة النساء) . لاإله إلا الله يصدر عنها منهج الحياة ، والمجتمع الاسلامي يقوم على العبودية لله وحده في جميع أموره وشؤونه ...

الإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، وإن هذه الثلاثة داخلة في مسمى الإيمان المطلق ، فالإيمان المطلق يدخل جميع الدين ، ظاهره وباطنه أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا من جمع ذلك كله ، ولم ينقص منه شيئا ، ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان كان قابلا للزيادة والنقصان فهو يزيد بالطاعة ،

---

1) أخرجه أحمد في مسنده ـ مسلم ـ الترميذي ـ عن عبادة ـ صحيح ـ

وينقص بالمعصية كما هو صريح القرآن قال تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ (سورة فاطر) . الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان في الوجود ، فلا يوجد أحدهما بدون الآخر كلما وجد إيمان صحيح معتد به وجد معه الإسلام وكذلك العكس ، ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر وأما إذا ذكرا معا مقترنين : أريد بالإيمان التصديق والإعتقاد ، وأريد بالإسلام الإنقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان ...

أما الايمان وحده فهو أخص من الإسلام ، وقد يوجد إسلام بدون إيمان كما في قوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ (سورة الحجرات) . فأخبر باسلامهم مع نفي الإيمان عنهم ...

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله** » رواه الترمذي .

الإيمان بالله عز وجل هو المبدأ الوحيد الذي أخذ به المؤمنون في الشرق والغرب ، وفي القديم والحديث بل هو الغاية الوحيدة التي خلق من أجلها الناس قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ (سورة الذاريات) .

الإيمان بالله هو التصديق بالحقيقة الكبرى التي لا تحول ولا تزول ، والإعتراف بوجود الله بواسطة مخلوقاته الكثيرة البديعة الشكل العجيبة الصنع ...

الإيمان بالله هو شعور الإنسان المخلوق بمنزلته المحدودة أمام رب عظيم بيده ملكوت السموات والأرض وكل شيء في هذا الوجود ...

الإيمان بالله هو القوة الباعثة على العمل الصالح ، القوة التي توجه الإنسان فيما يأتي ويدع في جميع شؤون الحياة كلها ...

الإيمان هو مبدأ عام لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين وطنٍ ووطن هو هداية من الله إلى الخلق أجمعين ، هو قوة روحية ، ودعوة إلى قوة مادية ، هو نظام كامل يقدم للإنسانية فكرة شاملة عن الكون والحياة ، ويجعل العنصر الأخلاقي هو الغاية في بناء الحياة الإجتماعية ، ويكون المسلم متشبعا بالعقل والروح لتنبعث الحياة من داخل النفس .

هذا هو الإيمان ، ولكن بعض المسلمين فهموا أن الإيمان ألفاظ جوفاء ، يظنون أن الإيمان هو الإذعان السلبي الذي لا يكلف صاحبه عملا ، ولا يبعث في قلبه خشية ، ولا يؤثر في خلقه تهذيبا ، ولا يدعوه إلى مشاركة في بر أو معاملة في إصلاح ، أو عمل خير ، ويحرص صاحب هذا الإيمان على أداء صور العبادات المفروضة ، والتظاهر بأهل التقوى والصلاح ...

يحسب هؤلاء المسلمون أن هذا الإيمان مقبول عند الله موصول إلى النجاة من عذاب الله ، والسعادة في الدار الأخرى وهم يتلون كتاب الله ، ويعرفون ما وصف الله به عباده المؤمنين في كثير من الآيات .

القرآن يعرّف المؤمنين مستيقنين غير مرتابين ، يعرّفهم مجاهدين صابرين ، ويعرّفهم أصحاب رأي وأهل غيرة على المجتمع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويعرّفهم متحابين لم يفسد قلوبهم الغل ، ولم تفرقهم الأهواء ، ويعرّفهم أقوياء بالحق يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخشون لومة لائم ، ويعرفهم خاشعي القلوب غير مستكبرين على أوامر الله ، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، ويعرّفهم حرّاصا على إقامة الصلاة وعلى توطيد صلتهم بربهم ، وعلى تحصين كرائم أموالهم بإيتاء الزكاة ، ويعرفهم بأوصاف الخير والبر التي لا صلاح إلا بها ولا استقامة الا عليها أولئك هم المؤمنون حقا في نظر القرآن ، وأولئك هم المفلحون ...

السعادة في الإتصال بين الانسان وخالقه ، وليست السعادة في المال كما يعتقد كثير من الناس ، ولا في الجاه والمنصب ، ولا في الأبناء ، هذه الأشياء عارضة تزول لا محالة ، فسعادة المؤمن في طاعة ربه لأن الله معه على الدوام ، لأن المؤمن يترقب دائما رحمة الله ، فبهذا الإيمان يعالج المسلم مشاكله بالحكمة والصبر ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ الإيمان بالله هو رأس مال المسلم الحقيقي ، وهو شفاء وعزاء للقلوب المحرومة من متاع الحياة الدنيا لأن المؤمن لا ينظر نظرة رغبة إلى من يفوقه في المال ، أو في الجاه ، بل ينظر الى ما عند الله من الرحمة والمغفرة ، قال تعالى : ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ وقال أيضا : ﴿ **إنّ رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ الذين يكون سعيهم نيل رحمة لا توهن نفوسهم أية خيبة أمل ، أو أية مصيبة تداهمهم ، فالقوة الروحية تدخل إلى نفوسهم العزاء مما يقاسونه من آلام ومتاعب ، أما الذين يغفلون عن رحمة الله فيقعون في مواطن الخطر ، وما أصدق ما وصف به القرآن فقال تعالى : ﴿ **ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ .

الصبر من الإيمان :

ومن الكلمات التي حرفت عن معناها كلمة الصبر ، لقد ذكره الله في القرآن أكثر من سبعين مرة عرّف الله عباده بثمراته الطيبة ، وما كان له من عاقبة حسنة في الدنيا والآخرة ، إنه أساس من أسس الدين وينبوع لكثير من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، ولقد أتساءل . ما هو الصبر ؟ أهو الإستسلام والخضوع وقبول النكبات والمصائب بدون مقاومة ؟ أهو الركود والبلادة والإقامة على الظلم ؟

كذلك يصوره الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وكذلك صوّروه للناس ، فرضي الفقير بفقره باسم الصبر ورضي المريض بمرضه باسم الصبر ، ورضي الذليل بذله باسم الصبر ، ورضي المظلوم بظلمه باسم الصبر ، وقد أضلوا الشعوب فعلّموها أن جور أهل الجور قضاء وقدر يجب أن يصبروا عليه ، وأن ظلم أهل الظلم مظهر من مظاهر التأديب الإلهي ، فعليهم أن يتقبلوه بالرضى ، وأن الفقر والغنى قسمة ونصيب لا فكاك منهما ولا إرادة لأحد فيهما ، وهكذا حتى ثبطوا العزائم عن العمل والسعي ، وأضعفوا الهمم ، واستسلم الناس للواقع ، فهل هذا هو الصبر الذي عرّفه القرآن وحثّ عليه ؟ وهل يمكن أن يكون الله تعالى قد أراد هذا المعنى لما أمر عباده به وأثنى عليه ، ورغّب فيه ، وضمن حسن عاقبته ، وأعلن أنه يحب أهله ، وأنه سيوفيهم أجورهم بغير حساب ...

الصبر الذي يعرّفه القرآن ويأمر به هو الأخلاق الفاضلة التي تهدي إلى الأعمال الصالحة ، وتتقوى به النفوس المؤمنة . الصبر هو مجاهدة النفس وحبسها عن الضجر والتبرم مع متابعة العمل والسعي ، وعدم الإنكماش والإنكسار ، ولذلك كان الصبر من المعاني الباطنية كالشجاعة على مكاره الجهاد صبر والجود على بذل المال صبر ، والكتمان على المثيرات والأسرار صبر ، إلى غير ذلك مثل العفو عند القدرة ، وضبط النفس في حالة الإنفعال والغضب ...

ذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب سيدنا داوود عليه السلام حين رأوا قوة جالوت وأصحابه ، قال بعض منهم : ﴿ **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله - وهم الصابرون - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين** ﴾ (سورة البقرة) لم ترعبهم الكثرة الساحقة ، ولم تذهلهم القوة الماحقة ، ولم يتعللوا بعدم التكافؤ ، فمضوا في طريقهم عالمين أن القوة إنما هي قوة الروح لا قوة الأشباح ...

ليس في التكليف أصعب من الصبر ، فيجب على المؤمن أن يصبر على التكاليف الشرعية كالصلاة والوضوء والزكاة والصوم والحج ، ويمتنع عن المحرمات والشهوات ، وأن يصبر على القضاء والقدر بعدما يستعمل جميع الوسائل في دفعها ، ولهذا جعل الله الصبر فرضا على كل مسلم ، ولا أفضل من الرضى به ، فإذا رأى المسلم كافرا بالله قد أتاه الله المال الوفير ، والجاه العريض ، فيلبس الحرير والديباج ، ويتمتع بالذهب والفضة ، والسيارة والقصور الضخمة ، والخدم وما إلى ذلك من الصحة والأولاد والعافية ، وتنظر إلى رجل مسلم من أهل الدين وطلاب العلم محيطا به البلاء معوزا فقيرا مقهورا تحت ولاية ظالم جبار مسلطا عليه أنواع العذاب ، فالمسلم ضعيف الإيمان ، إذا قارن هذا وذلك يرى عدل الله معدوما بين هذين الرجلين وتزيده وسوسة الشيطان لأجل هذا يحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقى من الضر ، وعلى وسوسة إبليس لعنه الله ، وكذلك يجب الصبر على تسليط الكفار على المسلمين مع المقاومة الشديدة ، والتمسك القوي بأوامر الدين . الآن أستعرض الآيات القرآنية التي وردت في الصبر ومما يقوي صبر المؤمن القرآن لأنه شفاء لما في الصدور ، قال تعالى في حق الكافر : ﴿ **ولا يحسبنّ الذين كفروا خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ﴾ (سورة آل عمران) .

ويقول في (سورة الزخرف) : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا**

وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ وقال في (سورة الإسراء) ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا** ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة ، ويتكلم سبحانه وتعالى على المؤمن الذي يجب أن يتحلى بالصبر ، فقال : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ (سورة آل عمران) . وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الخلق على الإطلاق كان يتقلب على رمال حصير أثرت في جنبه الشريف لما رأى عمر بن الخطاب ذلك فبكى وقال : « **كسرى وقيصر الروم في الحرير والديباج يتنعمان** » قال عليه الصلاة والسلام : « **أفي شك أنت يا عمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا** » (1) وإذا أراد الله أن يتخذ شهداء عنده فيخلق أقواما يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين . أفيجوز أن يفتك بعمر العادل الملهم المحدث إلا بمثل أبي لؤلؤة المجوسي ، وبعلي كرم الله وجهه إلاّ بمثل ابن ملجم الخارجي ؟ أيعقل أن يحي نبي الله عليه السلام يقتل في مهر بغي ؟ إلى غير ذلك من الأمثال الكثيرة من القرآن والأحاديث النبوية ، ولهذا يجب على المؤمن أن يصبر ...

---

1) متفق عليه ـ بلفظ آخر ـ عن عمر .

الطريق إلى الله هو العلم

يجب على المؤمن أن يسعى في طلب العلم لأنه الطريق الوحيد إلى معرفة الله قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ كلما تعمق الإنسان في الجانب العلمي تكن خشية الله سبحانه وتعالى لأنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان في الصنع ، ومن الحكمة في التدبير ما يجعله يخرّ ساجدا لله ، فالذين يتخصصون في علم التشريح يرون فيه من إحكام المحكم ، ومن الدقة الدقيقة في مختلف الأجهزة الجسدية ، وفي مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم إضطرارا إلى السجود لرب هذا التنسيق والترتيب والإبداع .

وليس علم التشريح وحده هو الذي يبهر العالم المتبحر فيه ، وإنما يبهر علم الفلك العالم الفلكي ، ويبهر علم الأحياء عالم الأحياء ، وهكذا نجد انبهار النفس في كل ميدان من ميادين المعرفة الكونية أرضها وسمائها وما بين الأرض والسماء ...

إن العلم النافع هو أهم مطلب في الحياة ، وأجل مقصد في هذا الوجود ، فالعلماء هم الذين يضيئون مسالك الحياة ، ويسيرون بالناس قدما إلى السمو والكمال .

طلب العلم في الإسلام ليس نافلة ، ولا أمرا كماليا وإنما هو فرض وضروري .

العلم الصحيح هو دليل اليقين الثابت ، ووسيلة الخلق الفاضل ، وكلما ازداد الإنسان علما إزداد اعتقادا بالله واستقامة في الأقوال والأفعال ، ومعرفة في الحلال والحرام ، ويصبح قادرا على قيادة نفسه وضبطها وتهذيبها ، وبعيدا عن التأثر بمن يدور حوله من الشهوات والمغريات ...

إلاَما ينتهي العلماء الصادقون ؟ يقول الله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ إنهم يصلون عن طريق العلم الذي يثير الخشية إلى

التوحيد ، التوحيد الذي هو سمة الدين الإسلامي كما يرى « البيروني » ، والذي هو في حقيقة الأمر سمة التدين الصادق .

ويشهد علماء التوحيد مع الله ، ومع الملائكة الأطهار ، إن الله سبحانه قرن العلماء به ، وبملائكته في شهادة التوحيد ، وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه تكريم العلماء من مكانة ...

وشهادة التوحيد التي هي قمة الركن الأول في الإسلام ، وهو أشهد أن لا إله إلا الله ، لا يشهدها إلا العلماء المؤمنون ، وشهادة التوحيد هي منتهى ما يمكن أن يصل إليه السالك في معراجه إلى الله سبحانه ، لا تتحقق إلا في العلماء المؤمنين . إن شهادة التوحيد هذه قد وجّه الله الأنظار إليها بأساليب شتى ، ومن هذه الأساليب ما لا يقدره في دقته الدقيقة وروعته الرائعة إلا العلماء قال تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا تشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلا ما تذّكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ (سورة النمل) ...

ثم يعقب الله على هذه الآيات بأنه مهما بلغ العلماء بعلمهم فإن المجهول لديهم كثير ، وأنه لا يعلم هذا المجهول المغيب إلاّ الله سبحانه ، ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيّان يبعثون** ﴾ (سورة النمل) ومن أجل شهادة التوحيد حثّ الإسلام على العلم ووجه إليه وجعله من أسس الدين ، لقد حثّ عليه في صور

بلغت من الروعة حدا لا يجارى . والآيات والأحاديث التي وجهت الأمة الإسلامية إلى العلم كثيرة مستفيضة .

العلماء لا يعبدون الله إلا بما شرع لهم ، ولا يأخذون إلا بالدليل ، ولا يسيرون إلا على أوضح سبيل ، ولذلك يقبل منهم القليل ويضاعفه لهم حتى يكون كثيرا ، والجاهلون يدينون الله بالباطل ، ويعبدونه بالأهواء والبدع ، ويستجيبون إلى كل ناعق ، ويعملون كثيرا ولا يستفيدون إلاّ قليلا ، قال تعالى في حق الجاهلين : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ .

وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد فإن منزلتهم بالمكان السامي ، ودرجاتهم في الرفعة والعلو ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ (سورة المجادلة) ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ـ وهو قدوة المسلمين وأسوتهم ـ أن يقول : ﴿ **رب زدني علما** ﴾ ...

رب زدني علما في كل يوم ، بل في كل لحظة ، ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم ، وإذا ما زاد المسلم علما ازداد خشية ، وإذا ما ازداد خشية تحقق فيه إسلام الوجه لله على أكمل صورة .

وإذا نظرنا إلى الأحاديث النبوية الخاصة بالعلم فإننا نرى عجبا قال عليه الصلاة والسلام : « **العلم طريق الجنة** » ويقول فيما رواه أبو داود والترمدي وغيرهما : « **العلماء ورثة الأنبياء** » (1) ويقول صلى الله عليه وآله وسلم : « **فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي** » (2) رواه الترمدي .وفيما رواه الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب**

---

1) رواه أحمد وأبو داود والترميذي عن أبي الدرداء مرفوعا بزيادة . وصححه الحاكم وابن حبان ـ وضعفه غيرهم ما لاضطراب في السند . قال ابن حجر له طرق يعرف بها أن للحديث أصلا .

2) شطر من حديث في سنن الترميذي عن أبي أمامة رواه الطبراني في الأوسط ـ والبزاز .

العلم رضاء بما يصنع » (1) ومن أجمع الأحاديث في فضل العلم ما رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « **من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإنّ العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر** » (2) .

والسنة النبوية حثت على التعلم والتعليم في مواطن كثيرة يقول صلى الله عليه وآله وسلم : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » (3) رواه ابن ماجة ، ويقول : « **كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى** » من كتاب (أدب الدنيا والدين) . ويقول الرسول الكريم ﷺ : « **لا حسد إلاّ في اثنين : رجل آتاه الله مالا فتسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها** » رواه الشيخان ...

وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد ، فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله والآخر يتفقهون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس**

---

1) صحيح - رواه الطيالسي - عن صفوان بن عسال

2) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة - بلفظ مقارب - وأخرجه أبو خيثمة في - العلم -

3) الحديث لابن ماجه وأحمد والبيهقي ولفظه مشهور أما أسانيده ضعيفة . أورده ابن الجوزي في الموضوعات وحسّنه البعض من المتأخرين -

الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلماً وجلس إلى أهل الفقه » من كتاب (أدب الدنيا والدين) ...

وروى الإمام الغزالي في « الإحياء » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ قال : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لاهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل لأهل الجنة وهو الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلام من الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، ويرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة ، تقتفي آثارهم ، ويقتدي بفعالهم وينتهي إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وأجنحتها تمسحهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه ، وسباع (البر) وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة التفكير فيه يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام العمل والعمل تابع يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » قال عليه الصلاة والسلام : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » (1) أخرجه الترميذي ...

المؤمن يتصف بالعزة :

قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ إنّ ذلة العبد لربه ذلة عز وحق لا باطل فيها فإن الخلق والأمر ، والغنى والملك لله

---

1) قال في المختصر ـ ضعيف ـ أسانيده ضعيفة ، لكن يتقوى بعضها ببعض ـ انظر ـ الفوائد المجموعة ـ للشوكاني ـ

وحده لا شريك له ، ومصير العباد رهن إشارته وطوع إرادته . والناس حينما يكونون في أرقى أحوالهم تعنو جباههم لرب العزة في السجود خاشعين ...

أما ذلة العبد لعبد مثله فباطلة لا ريب فيها ، والمتكبر عن الناس متطاول يزعم لنفسه ما ليس لها . وقد حرّم الاسلام الكبر وحرّم الذل ، وأوجب العزة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبّه الله لوجهه في النار** » (1) لأن الكبر وصف الله ، ولا ينبغي لبشر أن ينازع الله وصفه المستحق له ، تكبر الناس هي خصال مذمومة وفي طليعتها جحد الحق وجهل الواقع وسوء العشرة وتجاوز الحدود . الاسلام حرم على المسلم أن يهون نفسه ، أو يذل ، وفي الحديث الشريف قال عليه الصلاة والسلام : « **مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » (2) يجب على المؤمنين أن يتعاونوا .

قال الله عز وجل ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ (سورة النساء) ويجب عليهم أن يتحابوا كما وصفهم الرسول ﷺ قال : « **ان لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة : قال : وكان في ناحية المسجد أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ، ثم قال : حدثني يا رسول الله عنهم من هم ؟ قال : فرأيت في وجه النبي البشر ، فقال النبي ﷺ : « هم عباد من عباد الله هم من بلدان شتى ، وقبائل شتى ، من شعوب القبائل لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها ، ولا دنيا يتبادلون بها ، يتحابون بروح الله ، يجعل الله وجوههم نورا ، ويجعل لهم**

---

1) رواه مسلم ـ من حديث ابن مسعود ـ

2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ـ عن النعمان بن بشير ـ

منابر من نور يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون » (1) أخرجه الامام البغوي في السنن ورواه ابوداود .

والتوجيه النبوي الشريف يحث على تدعيم علاقة المحبة بين المؤمنين لتحقق الأمة المجد لنفسها ، والعزة بين الأمم أن تحيا حياة الشرف لتكون مسموعة ، ويكون ذلك من ثمرات الإيمان بالله عز وجل الايمان ليس دعوة تقال بلا عمل وليس شعارا يرفع بلا مضمون ، وليس نظرية بلا تطبيق بل هو طريق الجهاد والتضحية بكل ما هو نفيس وغال .

القرآن يرشدنا الى الايمان الذي لا ينفك عن الجهاد ، بل ان الجهاد تطبيق عملي له ، ويحمل حملة عنيفة عن أولئك الذين يريدون أن يحققوا لأنفسهم ، أو لأمتهم أمجادا رخيصة سهلة عن طريق رفع الأصوات وكثرة الادعاءات ، إن هذا الصنف من الناس وجد في الأمة الاسلامية ، ولكن كشفهم القرآن ليكونوا عبرة لمن يسلك سبيلهم كان هذا الصنف يتمنى أن يأذن الله له في القتال قبل مجيء أوانه فلما كتب عليهم القتال أصبحوا يخشون الأعداء أكثر مما يخشون الله ، قال الله عز وجل في هذه الطائفة ﴿ **ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ ، هذا الفريق الجبان لا يحقق مصالح ، ولا تعتز به دعوة ، ولا يسعد به وطن ، بل يضيع ما حققه غيره من عزة وكرامة ، وعلى كل حال لا تخلوا الأمة من مجاهدين يصمدون في البأساء والضراء وحين البأس لأنهم متيقنون أن النصر من عند الله ، قال تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله لقوي عزيز** ﴾ (سورة المجادلة) وقال أيضا في (سورة غافر) : ﴿ **إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ ...

---

1) رواه أبو داود .

ولكن نصر الله للمؤمنين له أسباب ثلاثة : الصفة الأولى أن ينفي المسلمون العجز والقصور عن أنفسهم .

الصفة الثانية : أن يكونوا أقوياء بمعنوياتهم أمام الأعداء ، ويتركوا الضعف والخَوَرَ والخشية منهم .

الصفة الثالثة : أن يتركوا الإستكانة التي تزحف على أنفسهم فتنهار أرواحهم من الهلع فيجب أن يبعدوها عن أنفسهم قال تعالى : ﴿ **وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين** ﴾ (سورة آل عمران) وخير الله الإنسان بين محبته ، ومحبة غيره من مباهج الدنيا فقال : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ (سورة التوبة) .

جعل الله سبحانه وتعالى مباهج الدنيا في كفة وحب الله ورسوله وجهاد في سبيله في كفة أخرى ، والإنسان يختار ما بين هذا وذلك ، فإن اختار المباهج قال : ﴿ **فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ فيه تهديد ووعيد شديدان ، وإن أختار حب الله ورسوله وجهاد في سبيله على مباهج الدنيا وزينتها فذلك المؤمن حقا ...

المؤمن هو الذي أدرك جمال الله وجلاله ، واستشعر لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم عليه ثم تأثر بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجه إليه ، فلذته وارتياحه في طاعة الله وعدم مخالفة أوامره ، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا قرير العين ، مطمئن القلب ...

فحب العبد لله هو إيمان حق ، ولا يكون بمجرد المعرفة واذعان

النفس ، بل يؤثر على النفس ، وتبدو آثاره في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته ...

أما الإيمان الذي لا يعدو الإذعان النفسي والاقرار القلبي فهذا الإيمان الذي لا يريده الله من عباده قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله . وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »** (1) رواه البخاري ومسلم فحب الله من أهم القواعد في بناء الاخلاق ، وهو محول أرواح المؤمنين إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شر ولا عدوان ، وهذا بالطبع لا يتيسر إلا عندما يغلب الصفاء على النفس فتنسى البغض والحقد والحسد وسائر الدسائس والمكائد ...

وحب الله لعباده لم يثبته القرآن إلا لذوي الأعمال الصالحة قال تعالى : **﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾** وقال : **﴿ بلى من أوفى بعهده من الله واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾** وقال : **﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إنّ الله يحب المتوكلين ﴾** وقال : **﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ...**

ونفي حبه عن الذين يتصفون بصفات الفساد والإلحاد والكفر قال تعالى : **﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ وأمّا﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين﴾ ﴿وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنّه لايحب المسرفين﴾ ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ ﴿ إنّ الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ﴿ واما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .**

---

1) رواه البخاري ومسلم والترميذي والنسائي

وفي الحديث الشريف : « **إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل في أهل السماء إنّ الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول اني أبغض فلانا فابغضوه فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله يبغض فلانا فابغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض** » (1) رواه مسلم عن ابي هريرة .

أسأل الله أن يرزقنا محبته ، ويجعل لنا من أنواره يرينا الخير من الشر ، ويعرفنا الحق من الباطل حتى نكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ومن الموصوفين بقوله : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه** ﴾ إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ...

---

1) رواه مسلم عن أبي هريرة .

الإيمان بالملائكة

من شروط الإيمان بالملائكة ، وهم عالم لطيف غيبي غير محسوس ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس وهم من عالم ما وراء الطبيعة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله ...

خلق الله الملائكة من نور ، كما خلق آدم من طين ، وكما خلق الجآن من نار ، وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله ، والخضوع لجبروته ، والقيام بأوامره ، وهم يتصرفون في شؤون العالم بإرادة الله ومشيئته وهو سبحانه يدبر بهم ملكه ، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ...

عملهم في عالم الطبيعة ، وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنهم موكلون بالمخلوقات ، وأنه سبحانه وتعالى وكلّ بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالجبال ملائكة ، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ثم وكّل بالإنسان ملائكة لحفظه ، وملائكة تحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ووكل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها ، وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكل بالجنة وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة ، فالملائكة أعظم جند الله فكل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم ، والشمس والقمر والرياح ، والسحاب والنبات ، والحيوان ، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بهذه المخلوقات قال تعالى : ﴿ **والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا** ﴾ . فسّرت المرسلات بالملائكة وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة ، وفسرت بالرياح وهو قول ابن مسعود واحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة ، وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن . وفسرت بالأنبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس . الله سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الأنبياء ، ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، فإرساله واقع في ذلك كله ...

﴿ **والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا** ﴾ قال في تفسير هذه الآية ، الحسن ، ومجاهد وقتادة هي الرياح تأتي بالمطر ، وقال مقاتل هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم ، وقال مسروق وعطاء عن ابن عباس هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وقيل تنشر أوامر الله في الأرض وفي السماء .

﴿ **والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا** ﴾ أكثر المفسرين في تفسير هذه الآية على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم ، والنزع هو إجتذاب الشيء بقوة ، والإغراق في النزع هو أن يجذبه إلى آخره .

﴿ **والصافات صفا فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا** ﴾ ، أقسم سبحانه وتعالى بالملائكة الصافات للعبودية بين يديه كما قال النبي ﷺ لأصحابه : « **ألا تصطفون كما تصطف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأولى وتراصون في الصف** » (1) والزاجرات عن المعاصي ، والتاليات الجامعات لكلمات الله تعالى .

ومنهم ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة بالصلاة والتسبيح والتقديس إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله . الملائكة الموكلون بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر ، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور ، وتصويره ، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله ، وأجله ، وشقاوته وسعادته ، وملازمته في جميع أحواله ، وإحصاء أقواله وأفعاله ، وحفظه في حياته ، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفاطره ، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ ، وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب . وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله ، والمعلمون له ما ينفعه ، والمقاتلون الذابون عنه ، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يورونه في منامه ما يخافه ليحذره ،

---

1) رواه مسلم عن جابر بن سمرة

وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكراً وهم الذين يعدونه بالخير ، ويدعونه إليه ، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه .

وهم الداعون له ، والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه ، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه ، وعند موته ويوم بعثه ، وهم الذين يزهّدونه في الدنيا ، ويرغبونه في الآخرة ، وهم الذين يذكرونه إذا نسي ، وينشطونه إذا كسل ، ويثبتونه إذا جزع ، فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده ، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم ، وتصعد إليه بالأمر ، قد أطت بهم السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ وملك قائم ، أو راكع ، أو ساجد ، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك لا يعودون آخر الدهر ..

والملك يشعر بأنه ملك منفذ لأمر غيره ، فليس من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار قال تعالى : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾ وقال : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ . ومنهم الصافون ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه ، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأعلاهم الذين عنده سبحانه ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ .

ورؤساؤهم الأملاك الثلاث : جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل . روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ يقول : « **اللّهم ربّ جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم** » . فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة

القلوب والأرواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم .

وقالت اليهود للنبي ﷺ : « **من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة ؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر ؟ قال جبريل . قالوا : ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال ذاك عدوّنا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات والمطر والرحمة** » (1) ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **من كان عدوا لجبريل فإنّه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل ، وميكائيل فإن الله عدوا للكافرين** ﴾ (سورة البقرة) . إنّ الله سبحانه وتعالى وكّل بالعالم العلوى والسفلي ملائكة فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره ، كما أضاف التوفي إليهم بقوله : ﴿ **توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾ وإليه تارة كقوله : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ ، ولهذا كان الايمان بالملائكة عليهم السلام أحد الأصول الخمس التي هي أركان الايمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

---

1) رواه أحمد والترمذي . قال الترمذي حسن غريب .

الإيمان بكتب الله المنزلة

الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور ، وهدى ، وأن ما تقتضيه حق وصدق ، ولا يعلم عددها إلاّ الله ويجب الإيمان بها جملة الا ما سمي منها ، وهي التوراة والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وصحف إبراهيم وموسى .

قال تعالى : ﴿ **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس** ﴾ . وقال : ﴿ **وآتينا داوود زبورا** ﴾ وقال : ﴿ **أمْ لمْ ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى** ﴾ (سورة النجم) وقال : ﴿ **إنّ هذا لفي الصّحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى** ﴾ (سورة الأعلى) . فيجب الإيمان بها على التفصيل ، والبقية إجمالا .

وهذه الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه ورسله يلتقي فيها النبي بقومه ؛ وهي مجال الدعوة ، ومركز الثقل فيها ، وفي هذا المجال يشتد الصراع . وتحتدم الخصومات وتجتمع قوى الشر وجنود الباطل لتخفت صوت الحق ، ولتطفيء نور الله ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ (سورة الصف) . وفي سبيل الدعوة إلى الله ، والتعريف به إحتمل أنبياء الله ورسله الكرام من أشد ما عرف الناس من ألوان الأذى أن يهنوا أو يضعفوا أو يستذلوا . إنها رسالة لا يقوم لها ، ولا يستقل بحملها إلا أولوا العزم الموصولون بأسباب السماء ، والموصوفون برعاية الله وتأييده . ولهذا لم يكن رسل الله إلا الصفوة المختارة من عباده ، قد اصطفاهم الله لهذه الرسالة وأعدهم لهذا الأمر العظيم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ومع هذا فإن الرسل بشر تظهر عليهم أعراض البشرية ، وتتجلى فيهم خصائصها : الجسدية ، والنفسية ، والروحية . فهم يألمون كما يألم الناس ، ويضيقون ، ويحزنون ، ويفرحون ، ويغضبون ، ويحلمون ، ولكنهم في جميع الأحوال التي تتقلب بالناس ـ هم على أكمل الكمال الذي تتسع له

البشرية ، وتحمله . نقول هذا لنفهم منه أن لكل رسول ، كما لكل إنسان - سعيه وجهده في محاسبة نفسه ، وفي مغالبة ضعفه البشري ، وأنه بقدر ما يعمل وبقدر ما يتحمل ، تكون منزلته عند الله ودرجته بين رسله وأنبيائه كما يقول سبحانه : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ ونفهم من هذا أيضا أن الرسل مطالبون بأن يجاهدوا ، وأن يعملوا ، وأن يستقلوا بحمل العبء الملقى عليهم ، وألاّ يدخل التواكل على مهمتهم ، بحسب أن الله هو صاحب الدعوة ، وهو الذي يتولى ! كلا فانهم مكلفون بأن يواجهوا بأنفسهم هذه المهمة التي ندبتهم لها السماء ، وأن يقوموا عليها قيام الراعي القوى الحذر الذي يسوق قطيعه إلى مواطن الكلاء ، وموارد الرعي الذي لا يغمض عينه عن الذئاب المتربصة بالقطيع ، ولو شاء الله أن تحمل عن الرسل والأنبياء أعباء ما حُمِّلُوا ، وأن يطوع لهم كل شيء - لكانوا مجرد أدوات ، ولم يكن لهم فضل مجاهدة ، ولا ثمرة جهاد ..

ولكن هكذا اقتضت حكمة الله أن يحمل الرسل تبعة مهمتهم العظيمة ، وأن يبذلوا لها من الجهد ، وأن يتحملوا في سبيلها من الأذى على قدر نبلها ، وشرف غايتها فإن العظائم كفؤها العظماء ... ونفهم من هذا كذلك أن أصحاب الرسالات من القادة والزعماء مطالبون بما لم يطالب به غيرهم من الناس من حمل الأعباء ، وتلقى الصدمات بالقدر الذي تضم رسالاتهم من الخير والحق ...

الرسالة الإسلامية

إذا اختص الله سبحانه وتعالى نبيّ الاسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه بأن يكون خاتم الأنبياء وأن رسالته مختتم الرسالات ، فان أعباء الرسالة التي حملها كانت أضعاف ما حمل الرسل من قبله لأنها رسالة تقف موقف التجمع والشرح والتحديد للرسالات كلها ، ولأنها تواجه الحياة كلها ، وتشرع للانسانية كلها وتتسع لحاضر الزمان ومستقبله جميعا مهمة نبيلة ، ورسالة كريمة ، ولكنها محملة بأعباء ثقال تنوء الجبال بحملها انها تمس الصميم من حياة كل انسان . تمس عقيدته ، وتمس ضميره ووجدانه ، وتحمل قوى الهدم لأربابها وآلهته . وليس أعز على الانسان من معتقده أيًّا كان مكانه من الضلال أو الهدى حتى يتخلى المرء عن حياته ولا يتخلى عن عقيدته .

وحين قام رسول الله ﷺ بأداء الرسالة ، واحتمل فيها ما احتمل من أذى - كان أول ما افتتح به رسالته ، هو الدعوة الى الله . حتى إذا آمن الناس به ، وأقروا بوحدانيته جاء دور التشريع الذي ينظم حياة الإنسان الروحية والمادية ويحدد صلته بخالقه ، وصلته بالمجتمع الانساني الذي يعيش فيه ...

وقد اتخذت شريعة الاسلام أعدل الطرق ، وأوضحها ، وأكثرها فعالية في الوصول الى الغاية التي قصدت اليها من الدعوة الى الله ، والتعرف اليه ، فلم تشأ هذه الحقيقة أن تغرق الناس في لجج من الجدل الفلسفي ، وفي تصورات من المنطق السقيم الذي لا يلد إلا خيالات وأوهاما ، ولا ينتهي إلا إلى ظنون يضرب بعضها وجه بعض !

ولكن شريعة الاسلام غير هذا انها جاءت الى الناس كما هم . انهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ، والبشر هم غالبة الناس وليسوا فلاسفة ... من أجل هذا لم تفتح شريعة الاسلام بابا للجدل في الله ، ولم تستمع الى الذين يدعونها الى الخصومة في الله . بل قطعت عليهم الطريق ، وفوتت عليهم ما يقصدون من صرف الدعوة عن غايتها

الجادة ، في كشف الضلالة عن العقول ، والعماية عن القلوب الى مما حكات سقيمة ، وجدل مريض ... وليس هذا شأن الاسلام وحده ، وانما هو سبيل الشرائع السماوية كلها منهج واحد وطريق واحد لأنه أعدل منهج وأقوم طريق لا جدال في الله ، ولا بحث في ذاته ! ولكن استدلال على الله ، ونظرة إلى هذا الوجود الذي يصافح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا وقلوبنا ، نظرة تمتليء بها القلوب خشية واخباتا لمن خلق فسوى وقدر فهدى ...

ذلك هو منهج الدعوات الاسلامية في كل أمة ، وعلى لسان كل نبي ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ .

والذي ينظر في هذا المنهج السماوي في الدعوة الى الله يجد بين يديه دلائل الاعجاز التي تعنو لها الوجوه ، وتخضع لها أعناق المعاندين والمكابرين .

فإن تدبير هذا المنهج وتدرجه مع التطور العقلي الإنساني ومسايرته لملكات الفكر الانساني عصرا بعد عصر ينطق بشهادتين :

الشهادة الأولى : أن هذا التدبير لا يكون إلا من حكيم خبير يعلم من الناس ما لا يعلمون ذلك هو الله رب العالمين .

الشهادة الثانية : صدق هذا القرآن الذي نأخذ عنه ذلك المنهج الصادق المعجز لأنه كلام الله ، وأن النبي المبعوث به صادق موصول بأسباب السماء يتلقى رسالته عن الله ، ويحمل الى الناس شريعته ...

والقرآن الكريم لا يهتم بالتوقيت الزمني لدعوات الأنبياء الذين ذكروا في الكتاب ، لأن هذا التحديد ليس له أثر في الواقعة التي يذكرها القرآن ، ولهذا المعنى لم تشر آيات الكتاب الى أماكن الدعوة . اذ أن مرمى الواقعة لا يراد بها إلا عرض مشهد من مشاهد الصراع بين الايمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، والزمان والمكان قضية تتجدد على مر الأزمنة ، وتقع في كل مكان ، فلا أثر للزمان أو المكان في موقع الدعوة أو العبرة منها ...

وهنا يبدو وجه الحكمة في اطلاق وقائع الدعوة من ظروف الزمان والمكان في هذا الصراع بين الحق والباطل حيث تظل هذه الوقائع ملء الأزمنة ، وملء الأمكنة وبهذا لن تكون غريبة في أي زمان ومكان ، إنها للناس جميعا ، ولأجيال الناس جميعا ، فحيث كان صراع بين حق وباطل كانت وقائع القصص القرآني دستورا محكما يحتكم ويتأسى به .

ونلاحظ أيضا مع إطلاق وقائع الدعوات السماوية من قيود الزمن والمكان ، فإن الترتيب الزمني بين هذه الدعوات قد نال شيئا من اهتمام القرآن به ، فهناك أكثر من وجه يمكن أن يستدل منه على مكان كل دعوة من سابقتها أو لا حقتها في الزمن . ومن هذا دعوة هود عليه السلام يجيء على لسانه ، وهو يخاطب قومه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ (سورة الأعراف) . كما يجيء على لسان صالح عليه السلام مخاطبا قومه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ (سورة هود) . وكذلك يذكر القرآن مدين في قوله تعالى : ﴿ **ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ فيفهم من هذا أن دعوة شعيب كانت بعد دعوة صالح لأن صالحا كان رسولا الى ثمود ، وأن شعيبا كان رسول مدين وإني اتبع هذا الترتيب في المنهج الذي وضعته السماء لدعوة الحق ، وفتح عقول الناس وقلوبهم لها ...

كانت دعوة الأنبياء تدعو إلى الله مباشرة دون أن تلفت العقول الى الاستدلال عليه من النظر في ملكوت السموات والأرض ، وتكاد الدعوة تكون دائرة بين كلمتين : (أعبدوا الله) من غير أن يدعي العقل إلى البحث عن الله ، والإستدلال بالنظر في ظاهر الوجود .

ولهذا كانت دعوة الرسل تحتاج الى قوة قاهرة ، قوة لا تخاطب العقل ، وإنما تجابه الحس ، فتبهر الأبصار وتصم الأذان ، وترعد الفرائص ، إنها المهلكات التي يخوف بها الرسل أقوامهم إن هم أبوا الاستجابة لدعوة الرسل والايمان بالله ..

ونذكر بعض الدعوات السماوية التي كانت قبل الاسلام .

دعــوة نــوح (عليه السلام)

أولا دعوة نوح عليـه السلام ، وقـد ذكرت في القران مرات كثيرة ولهـا في كل مرة لون جديد إلا أنها جميعها تكمل صورة الدعوة وتحدد معالمها .

يقول الله تعالى في (سورة نوح) : ﴿ **إنا أرسلنـا نوحـا إلى قومـه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قـال يـا قوم إني لكم نذير مبين : أن أعبـدوا الله واتقـوه وأطيعـون . يغفر لكم من ذنوبكم ويـؤخركم إلى أجـل مسمى** ﴾ . ويقـول سبحـانـه : ﴿ **ولقـد أرسلنا نوحا الى قومـه فقـال يـا قوم اعبـدوا الله مـا لكم من إلـه غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الـذين كفروا من قومـه مـا هـذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شـاء الله لأنزل ملائكـة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل بـه جنـة فتربصوا به حتى حين** ﴾ (سورة المؤمنون) .

ويقول سبحانه وتعـالى : ﴿ **لقـد أرسلنـا نوحـا إلى قومـه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه مـا نراك إلا بشرا مثلنـا ، ومـا نراك اتبعـك إلا الـذين هم أراذلنـا بـادي الرأي ، ومـا نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . قـال يـا قوم أرأيتم إن كنت على بينـة من ربي ، وآتـاني رحمـة من عنـده فعميت عليكم أن الزمكموهـا وأنتم لهـا كارهون . ويـا قوم لا أسـألكم عليـه مـالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطـارد الـذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ، ولكني أراكم قـومـا تجهلـون ، ويـا قـوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقـول إني ملـك ولا أقـول للـذين تـزدري أعينكم لن يـؤتيهم الله خيرا الله أعلم بمـا في أنفسهم اني إذا من الظـالمين** ﴾ (سورة هود) .

وكادت دعوة نوح إلى قومـه تقتصر على قولـه عـز وجـل : ﴿ **اعبـدوا الله مـا لكم من إلــه غيره** ﴾ ولكن عقــولهم لا تستجيب لغير العقــاب

المادي المباشر ﴿ **قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ جاءهم الطوفان فأغرقهم الله ، ونجا نوح ومن آمن معه ﴿ **فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾

دعـــوة هـــود (عليه السلام)

وهود عليه السلام كانت دعوته إلى قومه قريبة من دعوة نوح ، ولكن فيها اشعار بأن الإنسان الذي يخاطبه هود قد كبر شيئا ما عن ذلك الإنسان الذي كان يخاطبه نوح ، وأنه قادر ـ نسبيا ـ على أن يستنبط ويدرك فكان في دعوة هود الى قومه الفات قريب الى بعض المظاهر المادية الملابسة لهم ، والمتصفة بحياتهم ، وأن ما هم فيه من نعمة إنما هو من عند الله الذي يدعوهم إليه ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ (سورة الأعراف) ...

الإنسان الذي يخاطبه هود قد ترقى عقليا نوعا ما فأصبح هود يذكره بفضل الله عليه ، وأنه أخلف قوم نوح الذين أهلكهم الله بظلمهم ، كما أن الله منّ على قوم هود ببسطة الأجسام وقوة الأبدان ، وتلك نعم جديرة بأن يذكروها ، ويذكروا المنعم بها ، وفي هذا رشدهم وفلاحهم ...

وفي موقف آخر يهتف هود بقومه : ﴿ **إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون ، وأتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ (سورة الشعراء) .

فهذه أنعام ، وبنين وجنات ، وعيون يعيشون فيها وينعمون بها ، وهي ليست من صنع أيديهم ، وإنما هي من الله الذي يدعوهم إلى الإيمان به ، وفي هذا دعوة الى العقل أن ينظر ويتدبر ...

دعـــوة صـــالح (عليه السلام)

وفي دعوة صالح عليه السلام آفاق للنظر والتأمل أوسع من تلك الآفاق المحدودة التي جاءت بها دعوة هود .

وللزمن آثاره في تلك الفوارق العظيمة بين قوم صالح وقوم هود ، اذ كان قوم صالح قد خلفوا هوداً وخلفوا الأحداث التي وقعت لهم ، والبلاء الذي صب عليهم ، بعد أن عصوا رسول ربهم ، واستخفوا به وبدعوته ، ولاشك أن هذا قد ترك آثاره في هؤلاء القوم بما فتح عليهم من أبواب البحث والتفكير ..

قال تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ، ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب** ﴾ (سورة هود) .

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ (سورة الاعراف) .

﴿ **إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجري إلا على رب العالمين . أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين** ﴾ ...

إنّ صالحا عليه السلام يذكر قومه بقدرة الله الذي يدعوهم اليه ، أنشأهم من الأرض ، واستعمرهم فيها ...

والعقل الذي يستطيع أن يتصور خلق الإنسان من تراب ، ويرتب مراحل عملية الخلق ترتيبا منطقيا واقعيا بحيث يرى أن النطفة التي هي بذرة خلق الإنسان ، إنما هي الغذاء الذي يتحول في الجسم الى دم ، ثم الى نطفة ، وأن هذا الغذاء من النبات ، وأن النبات هو أجنة الأرض حملته في بطنها ، وغذته بعصارتها ـ العقل الذي يستطيع أن يدرك هذا ، أو بعض هذا ، هو غير العقل الذي كان عليه قوم هود أو قوم نوح .

ولهذا لم تحمل دعوة هود معجزة إستدلالية تنبيء عن قدرة الله ، وإنما حملت هلاكا وتدميرا ، بعد أن انتهى دور النصح ، والوعد ، ومن قبلها كانت كذلك دعوة نوح ، لم تصحبها معجزة إستدلالية بينما حملت دعوة صالح معجزة أستدلالية ، ويرى فيها أولوا الرشد إشارة الى الله ، وطريقا اليه ، وتلك المعجزة هي الناقة التي اقترحوا على صالح أن يخرجها لهم من صخرة معروفة عندهم وأن تكون عشراء تمخض وأعطوا العهد لصالح أنهم يؤمنون بإلهه الذي يدعوهم اليه إذا جاءهم بما طلبوا به ، وقد استجاب الله لدعوة صالح ، فخرجت الناقة من الصخرة التي أشاروا اليها ، وجنينها يتحرك في أحشائها ، وقد آمن بعضهم لهذه المعجزة ، ولم يؤمن أكثرهم ، وتآمروا على الناقة فقتلوها ، وهنا حلّ بهم العذاب الذي أوعدهم به : ﴿ **فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم** ﴾ ...

دعــوة شعـيـب (عليه السلام)

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾

(سورة هود) ..

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ (سورة الاعراف) ...

ونلاحظ هنا أن دعوة شعيب عليه السلام لم تقف عند حدود الدعوات الثلاثة السابقة ، وهي مجرد الدعوة إلى الله ، بل إنها شملت الأمر بعبادة الله ، ثم تجاوزته إلى بعض أحكام الشرع ، وذلك بمخاطبة الضمير الإنساني ودعوته إلى رعاية حقوق الناس ومعاملاتهم بالعدل ...

والضمير إنما يأخذ مكانه في كيان الانسان حين يرشد ويكتمل وعيه أما في مرحلة الطفولة والصبي فلا مكان للضمير فيها ...

إننا مع قوم شعيب إزاء انسانية كادت تستكمل حظها من العقل والإدراك ، فهم لهذا أهل لكي تخاطب فيهم ضمائرهم وأن يطلب إليهم إقامة حياة إجتماعية يؤدي فيها الفرد حقوق الآخرين لكي يؤدوا له حقه وقد كان القوم معاصرين لقوم لوط عليه السلام وهلاك هؤلاء الأمم الذين عصوا رسلهم ، فبعضهم هلك بالطوفان ، وبعضهم أرسل عليهم الصواعق ، وبعضهم بالريح العاصفة المدمرة ، وبعضهم بالصيحة ﴿ **ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ وهذا العذاب الأليم الذي أصاب الذين ظلموا أنفسهم لم يذهبوا هباء وإنما خلفوا وراءهم عبرة ماثلة وموعظة بالغة لمن كان من غيرهم ـ في أيامهم ، ولمن أتى من الجماعات من بعدهم . إن طوفان نوح وعواصف هود ورجفة صالح ـ وقد هلك بها من هلك ـ قد كانت عبرة وعظة إنتفع بها كثير ، واهتدى بها كثير ، ولا تزال إلى اليوم درسا نافعا وعظة ، ماثلة لكل من أراد العبرة والموعظة .

ولا نذهب بعيدا ، فقد كانت كل زاجرة من تلك الزواجر مثلا يسوقه

الرسول لقومه ، ويشرف منه بهم على مصارع الذين عصوا رسل ربهم ، وأنكروا مكانهم فيهم ...

فهذا هود عليه السلام يذكر قومه بما حلّ بقوم نوح فيقول لهم : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ وهذا سيدنا صالح يذكر قومه بما وقع لقوم هود فيقول : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ ...

وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يحمل المثل لقومه ويستعرض مشاهد الدمار والبلاء التي نزلت بمن سبقوهم في تحدى الرسل وإعناتهم : ﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ (سورة هود) . فهذه المهلكات التي رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم تكن إلا مثلا تخيف من حولهم ومن بعدهم ، وتدعوهم إلى الإنصياع والتسليم للهداة الراشدين الذين يدعونهم الى الصراط المستقيم ، وهذا ما تنطق به الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ (سورة الاسراء) ...

وإذا كانت دعوة إبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام قد استرخى بها الزمن حتى رشدت الإنسانية أو كادت ـ قد حملت إلى الناس دعوة إلى الله قائمة على النظر في ملكوته ، وعلى الإيمان به عن طريق هذا النظر الذي يرسله الإنسان في هذا الوجود فيعود إليه محملا بالآيات الدالة على قدرة الله الناطقة بحكمة الخالق وعظمته ...

دعـــوة إبـراهـيـم (عليه السلام)

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب

السموات والارض الذي فطرهن ، وأنا على ذلك من الشاهدين . وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ (سورة الأنبياء) ..

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ (سورة العنكبوت) ...

إن إبراهيم يضع قومه أمام موقف يحتاج إلى عقل ونظر ، وإلى حساب وتقدير ، ليميز الخبيث من الطيب ويفرق بين الحق والباطل ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾ ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون** ﴾ ...

إنّ العقل الرشيد المكتمل هو الذي يدعى إلى هذا النظر ويحمل على المراجعة والموازنة بين الأشياء .

دعوة موسى (عليه السلام)

موسى رسول إلى جبهتين : الى قومه بني إسرائيل ، وإلى فرعون الذي طغى ، وامتد طغيانه إلى بني إسرائيل . يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وموسى يحمل إلى فرعون معجزات لا تقبل التحدي ، ولكن فرعون يتحداها ، وينتهي التحدي بانتصار المعجزة السماوية فيؤمن سحرة فرعون ، ويجن جنون فرعون ، وتأخذه العزة بالإثم فيضاعف البلاء الذي يصبه على بني إسرائيل ، ولا يجد موسى سبيلا إلا الهرب بقومه فيتبعهم فرعون ، وهناك على مشارف سيناء عند البحر الأحمر يقف موسى وقومه ، ومن وراءه فرعون وجنوده يكادون يلحقون بهم ، ويضرب موسى بعصاه

البحر ، ويفتح له ولقومه طريق فيه ، وينسحب بقومه إلى الشاطيء الشرقي من البحر ، وفرعون وجنوده جادون في أثرهم ، يركبون نفس الطريق في قلب البحر ، وهنا تنتهي المعجزة بعد أن أدت دورها ، حيث يطبق البحر على فرعون وجنوده ، فيغرقون جميعا .

وهذه المعجزات قد شهدها بنو إسرائيل ، وكان من شأنها أن تقع من القوم موقع الإيمان ، وأن تقوم شاهد صدق على رسالة موسى ، ولكن القوم قد إلتوت نفوسهم فلم تعبأ فيها بتلك المعجزات ، ولم تصادف نفوسا طيبة ، وظل القوم في حاجة إلى معجزات أخرى يتلو بعضها بعضا وجاء موسى بالبينات ، ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا لكل قبيلة منهم عين تستقي منها ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى وجاءهم بالتوراة فيها هدى ونور ، وفيها تذكير لهم ، بما تفضل الله عليهم من نعمة إذ نجاهم من آل فرعون . ﴿ **يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون** ﴾ (سورة البقرة) ومع هذا فقد لجوا في الضلال والعناد ، وأبوا أن يقتنعوا بكل هذه الآيات ، وطالبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ وقد كان من المتوقع - في ظاهر الأمر - أن ينزل العذاب الشامل بهم جميعا ، وأن يقع البلاء الماحق الذي لا يبقي ولا يذر ، كما كان الشأن في المكذبين من الأقوام السابقة ، ولكن يجيء الأمر على غير هذا فيقع البلاء ، ويحل العذاب ، وإنما في حدود معينة تنال المعتدين ، وتأخذ الظالمين ...

فالذين اعتدوا في السبت وخرجوا على الشريعة هؤلاء مسخوا مسخا خرج بهم عن الإنسانية فكانوا قردة يسخر منهم ، ويستهزأ بهم ، وتكون فيهم العبرة لمن اعتبر ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ (سورة البقرة) ...

والذين صغر في أعينهم شأن الله حتى طلبوا أن يروه عيانا كما يرون الأشياء ، هؤلاء أخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ، وأنتم تنظرون** ﴾ (سورة البقرة) ، وأما الذين عبدوا العجل وجعلوه إلها فقد نالهم من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا ، ولكنهم قد تابوا ، ورجعوا عن ضلالهم بعد أن راجعهم موسى ونسف العجل الذي عبدوه ، وهم ينظرون ﴿ **إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجرى المفترين** ﴾ (سورة الأعراف) ...

ورأس الفتنة هو السّامريُ الذي دعا إلى اتخاذ العجل من الحلي التي جمعها من القوم ، وصوره منها ، فقد مثل به فكان لا يمس شيئا إلا أصابه منه الضر والأذى ...

﴿ **قال فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس ، وإنّ لك موعدا لن تخلفه** ﴾ (سورة طه) . فهنا لم يقع العذاب شاملا ، ولم يأخذ القوم جميعا ، وإنما وقع على من استحقوه بما ظلموا ، لأنّ في البقية رجاء ، وفيهم مكان لمغارس الهداية والإيمان ، إنّ الجسم الذي يصلح ببتر عضو من أعضائه المريضة فبقية الأعضاء الأخرى السالمة يجب أن تبقى ...

وقد كان في بني إسرائيل مفسدون لم تستقم مع الحق والخير نفوسهم ، وكانوا نبتا سيئا ، فتولت السماء إقتلاعه ...

أرأيت إذا كيف كان المنهج الذي قامت عليه دعوة الرسل رسولا بعد رسول ، وعصرا بعد عصر ؟

فقد ساير هذا المنهج عقلية الإنسانية ، وتقابل معها على المستوى الذي كان لها من الوعي والإدراك . كان المنهج في الرسالات الأولى منهجا تلقائيا يلقن الإنسانية في طفولتها مبادىء العقيدة : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ كما يلقن الطفل أسماء المسميات ، فيقال له : هذا مصباح ، وهذا مذياع ، وذلك كرسي ، وتلك سيارة وهكذا ...

ثم دخل المنهج مدخلا أخر حين تطورت الإنسانية واتسعت مداركها بعض الشيء ، فكان إلى جانب الدعوة إلى الله إلفات إلى الوجود المادي ليستدل به على النظام المسك به من غير عظمة الخالق وقدرته كذلك صحب هذه الرحلة من دعوات الرسل معجزات غير انتقامية يراد بها تأييد الرسول وتزكية دعوته بأنه رسول من رب العالمين . فحين يرى الناس المعجزة يرون معها ما لا يمكن لبشر أن يأتي به . وذلك عمل يحتاج إلى وعي وإدراك لا يبلغه المرء إلا بعد أن يجاوز مرحلة الصبا ، ويشرف على مرحلة الرجولة أو يبلغها ...

ونعود لنقرر مرة أخرى أن في هذا المنهج الذي احتوته دعوات الرسل ، والذي نقله إلينا القرآن الكريم دليلا قائما على أن القرآن منزل من عند الله ، وذلك لما اشتمل عليه هذا المنهج من مسايرة لتطور الإنسانية ومواءمة لوعيها وإدراكها ، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما كان فيه هذا الضبط الدقيق ، وتلك اليقظة الواعية لسير الحياة ، ورصد حركات العقول فيها ولو وقع - على أقل تقدير - في هذا المنهج ، بعض الخلل في ترابطه وتماسكه ، ولكننا إزاء منهج متماسك أقوى ما يكون التماسك سواء في وحداته ، وعناصرها ، أم في تدرج هذه الوحدات واحدة بعد أخرى - تدرج الكائن الحي نحو النضج والكمال ، فإلى جانب الأدلة الكثيرة على إعجاز القرآن وصدق الرسول يمكن أن يضاف هذا الدليل اليها ، ويحسب في حسابها ...

أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله

الرساله المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية ، لقد انتهى الدور التلقيني بعد ان أشرف العقل بنفسه على دلائل كثيرة تشير الى وجود الله .

فالله في واقع الحياة - في هذه المرحلة الأخيرة من رسالات السماء - ليس ذاتا مجهولة أو منكرة في عقول الكثرة الغالبة من الناس ، فقد كان لدعوات الرسل المتتابعة ، ولمواقف الراشدين والعالمين من أتباعها آثار كبيرة في كشف الطريق الى الله ، والتعريف به ، كما كان للزمن وتطور العقل الإنساني ، نحو الكمال أثره القوي كذلك في هذا الأمر .

لقد جاء الإسلام والعرب يعرفون في لغتهم كلمة الله ويتعاملون بها في حياتهم على أنها قوة ممسكة بالوجود وقائمة على كل شيء ، وأنها تعلم ما يخفي الناس وما يعلنون ، يقول زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي وأحد أصحاب المعلقات :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخره فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينتقم

فقد كان العرب في جاهليتهم يعتقدون في الحياة بعد الموت ، وفي الجزاء وفي الجنة والنار ، يقول الشهرستاني عن عرب الجاهلية : (ومن العرب من كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو ابن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول « أيها الناس ، هلمّوا إلي ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري » ، ومنهم قس بن ساعدة الإيادي وكان يقول : « هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى وإليه المآب غدا » ، ومنهم عامر بن الظرب العدواني ، وكان يقول : « إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ») .

فالرسالة المحمدية تواجه إنسانية فيها وعي ، ولها إدراك ، وعندها إستعداد للبحث عن الله ، والتشوق اليه من خلال هذا الوجود الذي يعيش

فيه النـاس ، وإذن فلن تكون الـدعوة إلى الله دعوة تلقـائيـة لإنّ **مواجهـة** العقل المـدرك المستعـد للبحث والنظر ـ إلى **مواجهتـه** بـالأمر الواقـع والحكم الملزم ، فيه تعسف وإعنات لا تلقاه مثل هذه العقول إلا بالتمرد والعناد ...

وحين ننظر في دعوة الإسلام نجدها قد مرت في مراحل إنتقلت بالناس من حال إلى حال ...

وفي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة نجد أن أول مـا افتتح بـه الوحي رسالة الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسلم ، هو قولـه تعـالى : ﴿ **إقرأ بـاسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسـان مِنْ علق . إقرأ وربـك الأكرم . الذي علم بالقلم . علّم الإنسان مـا لم يعلم** ﴾ (سورة العلق) .. هـذه الآيات كانت عنوان الموضوع الذي تدور حوله الدعوة في مراحلهـا الأولى : الخالق وما خلق ، وذكر الخالق وما خلق هنا هو تحديد للموضوع الذي من أجله كان توجيه النظر إلى المخلوقات ، والوقوف على ما في صورها وألوانهـا وأشكالها من عجائب وأسرار ، فإذا استبانت لعين النـاظر المتـأمل تنبهـه إلى الخالق الذي خلق ..

ويكاد العهد المكي كله من تاريخ الرسالة ـ يقوم على أداء هذا الـدور ، والعمل على التعريف بالله من طريق الإقنـاع ، بـالنظر والتفكر في آيـات الله ...

ولقد جاء القرآن الكريم في هذا الباب ، بما لم يكن لدعوة من الدعوات السماوية أو غير السماوية أن تجيء بمثله ، وبما لم تنفذ اليه من قلوب النـاس وعقـولهم أجهـزة الـدعـايـات العصريـة التي تبشر بـالمـذاهب السيـاسيـة أو الإقتصادية ، والتي تحشد لها كل قوى الدعاية من ملايين الأنفس ، وملايين الأموال تعمل جميعا في كل ميـدان يصل إلى النـاس من الإذاعـات والكتب والصحف ، كل أولئك لم يكن شيئا إلى جانب المنهج الذي اتبعه الإسلام في دعوته إلى الله ، واذ كان منهجـا قـائمـا على الحق ، وداعيـا إليـه عن طريق النظر ، والإستدلال والإقناع ...

وما يشوق العقل الإنسـاني ويوقـظ وجـدانـه أكثر من نظرة واعيـة إلى

صامت وناطق في الوجود ، فيبدو الوجود كله في مسرح نظره ، ومسبح خاطره ، ومجلى تفكيره يقلبه كيف يشاء ، ويأخذ منه ما يريد ..

إقرأ قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾ (سورة السجدة) . وقوله تعالى : ﴿ **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجَل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (سورة الرعد) .

واقرأ قوله جل شأنه : ﴿ **فلينظر الانسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبّا متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ (سورة عبس) .

فتلك دعوات يستحضر بها العقل هذه الظواهر التي تتبدل بها الطبيعة حالا بعد حال ، وتلبس فيها أثوابا بعد أثواب ، وهي تجيء وتذهب بين يدي الإنسان دون أن يلتفت إليها كثير من الناس ، أو يقفوا عندها ، فإذا جاءهم من يدعوهم اليها ، ويلفتهم نحوها ، أحسوا بها ، وعجبوا منها كأنما يرونها لأول مرة .

وقد ذهب القرآن الكريم في هذا كل مذهب ، وجاء إلى العقل من كل أفق يثيره ، ويحدد صور الوجود في نظره ...

ومن تدبر القرآن في هذا ، استعراض مظاهر قدرة الله وعظمته ،

وحكمته وتدبيره فيما يبدو عليه هذا النظام الكوني من روعة ودقة وإحكام ...

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ (سورة فصلت) . **﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة ﴾** (سورة الشورى) **﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** (سورة غافر) .

ومن الأساليب التي نهجها القرآن في الإلفات إلى عظمة الله وقدرته ـ أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتحدث عن خلقٍ من خلق الله ، أو عن آية من آياته ، ونعمة من نعمه . وفي هذا الاسلوب يجد القارىء نفسه أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد هو الإقرار بالله . فان استجاب للحق أقرّ به وإلا أفحم ووجم وخرس ..

﴿ أمّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون ﴾ (سورة النمل) . **﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون إلا في غرور ﴾ ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوا في عتو ونفور ﴾** (سورة الملك) .. فهذه قضايا يطالب الخصم فيها بإقامة الدليل على بطلانها إن كان في إمكانه أن يفعل ، وإلا فقد لزمه الإيمان بالله ..

﴿ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (سورة البقرة) ...

هذا أسلوب القرآن قد جاء بألوان من ضروب الاعجاز الذي خرست له الألسنة ، وتضاءلت أمامه العقول وتصاغرت بين يديه الأفهام ...

أما أسلوب الملاحدة الذين يدعون وجود قدرة غير قـدرة الله ، فيقولون أن الطبيعة هي الخالقة لهذا الكون والمدبرة لـه ، فـإنهم مطـالبون أن يقيموا الـدليل على دعواهم البـاطلة . كيف تخلق الطبيعـة ؟ هل من خـالـق غير الله ؟

سأل أحد الملحدين تلميـذا فقـال : أقم لي دليلا واحـدا على وجود الله . وأنا أومن لك بـه . فـأجـاب التلميـذ : وأنت أقم لي دليلا واحـدا على عـدم وجوده ، وأنا أكفر به ! فبهت الذي كفر ...

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بكل ما أخبر به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مما يكون بعد الموت فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ، ونعيمه ، فأما الفتنة ، فإن الناس يفتنون في قبورهم ، فيقال للرجل من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ فيثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول المؤمن : الله ربي ، والاسلام ديني ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيي ...

وأمّا المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها لصعق ، ثم بعد هذه الفتنة ، إما نعيم ، وإما عذاب .

الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يكون بعد الموت ، وهذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، والمؤمنون يؤمنون بالبعث بعد الموت ، وهو إعادة الأبدان بأرواحها إلى الحياة مرة ثانية كما صرحت به الكتب السماوية ، ونادت به جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى : ﴿ **إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع** ﴾ وقال : ﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾ .

ويجب الإيمان من بعد الموت بفتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والبعث والحشر ، والنشر والصحف ، والميزان والحساب ، والجزاء والصراط ، والحوض والشفاعة ، والجنة والنار وأحوالها ، وما أعد الله لأهلها ، إجمالا وتفصيلا ، وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من**

الجنة فيراهما جميعا ، قال وذكر لنا أنه يفسح له في القبر مد البصر ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

وأخرج الترمذي ، وابن حبّان في صحيحهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنّا نعلم أنك تقول هذا : ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا ، ثم ينوّر له فيه ، وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون شيئا فقلت مثله ، ولا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : إلتمي عليه ، فتلتمّ عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذّبا حتى يبعثه الله من مضجعه** » . وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **لقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل ـ أو قريبا ـ من فتنة المسيح الدجّال** » . وفيهما عن أبي أيوب قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد وجبت الشمس وقد سمع صوتا فقال : « **يهود تعذّب في قبورها** » . وعن أبي داود : فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربّك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى ، فآمنت به وصدّقت ، فينادي مناد أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة ، ويفسح له مد بصره » . وقال في الكافر : « **فيأتيانه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، إلى أن قال : فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي ، فأفرشوه**

من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » . ومن الأدلة الدالة على عذاب القبر قوله تعالى في حق آل فرعون : ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشيا** ﴾ وقوله : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ إن السؤال والنعيم والعذاب في القبر يشبه بعثا للحشر في أنه واجب سمعا ، بل وعقلا وحكمة ، فإن الأدلة القاطعة قامت على أن الله تعالى حكم في صنعه ، لم يخلق الناس عبثا ، ولم يتركهم سدى ، بل جعل لهم حياة وراء هذه الحياة لينصف فيها المظلوم من الظالم ، ويقام فيها قانون العدل بين الخلائق ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني تمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ ، ولو فكّر الإنسان فيما حوله من نبات مختلف ، وجنات منشآت ، وكيف يحيي الله بالماء الأرض بعد موتها وتهتز وتربو بعد يبسها وجمودها ؟

لعلم أن من قدر على ذلك قادر على أن يعيد الخلق الى ماكانوا عليه « فأنظر الى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيئ قدير » وأي فرقٍ بين البدء والإعادة إذا كان الله تعالى هو الذي بدأ الخلق ووهبهم الحياة فما الذي يحول بينهم وبين إعادتهم ؟ **« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيئ وإليه ترجعون »** على أن من شأن الإعادة أيسر من البدء ، وإن كان الكل تناوله القدرة « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم »..

البعـــث

يبدأ اليوم الآخر بالبعث ، وهو إعادة الإنسان روحا وجسدا كما كان في الدنيا ، وهذه الإعادة تكون بعد العدم التام ، ولا يستطيع الإنسان معرفة هذه النشأة الأخرى لأنها تختلف تمام الإختلاف عن النشأة الأولى ..

أدلة البعث :

ولقد أورد القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث مستدلاً بالنشأة الأولى على النشأة الأخرة ، ومبينا أن الله قادر على كل شيٍ ، وعالم بكل شيٍ ، فلا تعجزه إعادة الأجسام لنفوذ قدرته ولا يضيع منها شيء لسعة علمه .

قيل في شرح الطحاوية : الإيمان بالمعاد مما دلّ عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطرة السليمة ، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه ، وأقام الدليل عليه ، وردّ على المنكرين في غالب سور القرآن ، وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله ، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقرون بالرّب إلاّ من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم لما كان خاتم النبيئين وكان قد بعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفى بين تفصيل الآخرة بيانا لايوجد في شيٍ من كتب الأنبياء .

الإنسان يتطور في الخلق ويتحول من حال الى حال كالأرض وماتخرجه من نبات مظهر العلم والقدرة قال تعالى : ﴿ **ياأيها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء أهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيٍ قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور** ﴾ «سورة الحج» وإذا

كان الله لم يعي بخلق السموات والأرض ولايزال يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، فهل يستبعد بعد هذه المشاهدة المنظورة أن يعيد الخلق مرة أخرى ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد** ﴾ إن إنكار البعث وإعادة الحياة مرة أخرى بعد هذه الدلائل البينة في الأنفس والآفاق لامعنى لها ...

وأما الذين أنكروا البعث فرد الله عليهم بأن استبعادهم لامعنى له ، لأنهم يجهلون عظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته ، وأنهم لايبصرون في أنفسهم ، فأنفسهم أدل الدلائل وأقوى الحجج على نفي ماينكرونه من البعث ، فالله أحياهم أولا ، وأماتهم ثانيا ، ولاتزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة ، وجمعهم مرة أخرى يوم القيامة ، فأي أستبعاد في هذا ؟..

قال في شرح الطحاوية : (فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجوه . المعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم (البدء) فرق ، فعجب الذنب هو الذي يبقى ، وأما سائره فيستحيل ، فيعاد من المادة التي استحال إليها ، ومعلوم أن من رأي شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا علم أن هذا هو ذاك ، مع أنه دائم في تحلّل واستحالة ، وكذلك سائر الحيوان والنبات ، من رأى شجرة وهي صغيرة ، ثم رآها كبيرة قال : هذه تلك ، وليست صفة لتلك النشأة الثانية مماثله لصفة هذه النشأة حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة ، لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها ، فإنهم يدخلونها على صورة آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، وروي أن عرضه سبعة أذرع ، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات ، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات) اهـ .

النفخات الثلاث :

النفخات ثلاثة : الأولى : نفخة الفزع وهي التي يتغير بها العالم قال تعالى : ﴿ **ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ ، والنفخة الثانية : نفخة الصعق قال تعالى :

﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ والنفخة هذه هي التي فيها الهلاك لكل شيء ، والنفخة الثالثة : نفخة البعث والنشور قال تعالى : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ..

وفائدة الإخبار بالآخرة لينتبه الإنسان فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ، ويبادر الى التوبة من التبعات ، ويلجأ الى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرع اليه في سلامته من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة ..

وقد جعل الله الدار ثلاثا : دار الدنيا ، ودار البرزخ ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تخصها . وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعا لها ، ولهذا جعل أحكام الشريعة مرتبة على مايظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضرت بالنفوس .

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبعا لها فإذا كان يوم القيامة عند بعث الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين ، صار النعيم والعذاب على الأرواح والأجسام معا .

واختلف في مستقر الأرواح مابين الموت الى قيام الساعة أين تكون ؟ والراجح في ذلك أن الأرواح تكون متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وأرواح بعض الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وبعض الشهداء تحبس أرواحهم عن دخول الجنة لدين عليهم ، أو غيره كما جاء في المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء الى النبي ﷺ فقال : يارسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : «**الجنة**» فلما تولى قال : « **إلا الدين ، سارني به جبريل آنفا** » ، ومنهم من يكون محبوسا على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوسا في

قبره ، كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد ، فقال النبي ﷺ : « **والذي نفسي بيده أن الشملة التي عليه لتشتعل عليه نارا في قبره** » . ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : « **الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشيا** » (1) رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء (2) ، ومنهم من يكون محبوسا في الأرض لم تعل روحه الى الملإ الأعلى ، إنها كانت روحا سفلية ، ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني ، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه ، وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لاتصعد عن الأرض .

كل شيء هالك إلا وجهه :

جاء في شرح الطحاوية : (إذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون : لاتموت الأرواح ، فإنما خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان وقد دلت على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها والصحيح موت النفس هي مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإذا أريد بموتها هذا القدر ، فهي دائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى فهي لاتموت وعلى هذا الإعتبار فهي باقية بعد قبضها في نعيم أو عذاب وأجمعت الرسل عليهم السلام أنها **محدثة مخلوقة** ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده هو الخالق ، وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهي القرون المفضلة في الإسلام ، على أن الروح مخلوقة من غير خلاف بينهم ، حتى ظهر بعض من قصر فهمه عن الكتاب والسنة فزعم انها قديمة غير مخلوقة .

---

1) أخرجه أحمد في مسنده ـ الطبراني ـ الحاكم ـ عن ابن عباس ـ حسن ـ

2) أخرجه الحاكم . وذكره ابن حجر في الفتح عن الحاكم والطبراني وجوّد اسناده وله شاهد من حديث أبي هريرة عن الترميذي والحاكم وفي اسناده ضعيف ـ وله شواهد أخرى عن أبي سعد يصح بها الحديث .

وأجمع المسلمون على أن النـاس يقومون من قبورهم لرب العـالمين حفـاة عراة غرلا ، وتـدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق وتنصب المـوازين فتـوزن بها أعمـال العبـاد ، فمن ثقلت موازينـه فـأولائـك هم المفلحون ، ومن خفت موازينهم فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين) وروى مسلم عن المقداد بن الأسود رضي الله عنـه قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العبـاد حتى تكون قـدر ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق قدر أعمـالهم ، منهم من يـأخـذه الى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبته ، ومنهم من يأخـذه الى حقويـه ، ومنهم من يلجمه إلجاما قـال بعض العلمـاء : ظـاهر الحـديث التعميم ولكن دلّت الأحـاديث الأخرى على أنـه مخصوص بـالبعض وهم الأكثر ، ويستثني ـ من هـذا العرق ـ الأنبيـاء والشهـداء ومن شـاء الله ، فـأشـدهم في العرق الكفار ، ثم أصحاب الكبـائر ، ثم من الـذين عملوا المعـاصي دون الكبـائر ، وماتوا على ذلك ، والمسلمون منهم قليلون بالنسبة للكفار .

ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها وذلـك أن النـار تحف بأرض الموقف ، وتدنو الشمس من الرؤوس قـدر ميل ، فكيف تكون حرارة تلك الأرض ومـاذا يرويهـا من العرق حتى يبلغ منهـا سبعين ذراعـا مع أن كل واحد لايجـد الا موضع قـدمـه فكيف تكون حـالـة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ إن هـذا لِمَّـا يبهر العقول ، ويـدل على عظم القـدرة ، وعلى هذا يقتضي الإيمان بأمور الآخرة وأنَّ ليس للعقل فيها مجال .

ولا يعترض بقياس ولاعادة وإنما يؤخذ بالقبول ، ويـدخل تحت الايمـان بالغيب ، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانـــه ..

إختـلاف النـاس عند البعـث :

النـاس يختلفون عنـد البعث إختـلافـا كبيرا حسب أعمـالهم ، فـالـذين صلحت أعمالهم وعقائدهم ، وزكت نفوسهم يكونون أكمل أجسادا وأرواحـا ، والـــذين خبثت أرواحهم ، وفســـدت عقـــائـــدهم يكـــونـــون أنقص أجسادا وأرواحا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « **يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم** ، قيل : يارسول الله كيف يحشرون على وجوههم ؟ قال :**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما انهم يتقون بوجوههم ؟ كل حدب وشوك** » رواه الترمذي . وفي الحديث يقول الرسول الكريم ﷺ : « **يحشر المتكبرون المتجبرون يوم القيامة في صور الدر يطأهم الناس لهوناهم على الله عز وجل** » وروى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله يقول : « **يبعث كل عبد على مامات عليه** » أي إن مات على حسنة يبعث على حال سارة ، ومن مات على شر يبعث على حال سيئة .

والبعث يكون بالأجساد والأرواح إلا أن القوى الروحية تكون هي القادرة على التصرف في الأجساد ، فتستطيع قطع المسافات البعيدة في أقصر مدة ، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة والنار ، ويكون مثلهم في ذلك مثل الملائكة والجن في قدرتها على التشكل وظهورها في أجساد تأخذها من مادة الكون ، وقد ثبت ذلك ثبوتا علميا .

الحساب حق

هو وقف الله عباده قبل انصرافهم من المحشر على أعمالهم خيرا ان كانت أو شرا تفصيلا ، وهو مختلف فيه اليسير والعسير ، والسر والجهر ، والتوبيخ ، والفضل ، والعدل ، يستثنى من لاحساب عليهم ، كالسبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وكالمبشرين بالجنة ، وحساب الله تعالى الناس بأن يخلق في قلوبهم علوما ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب ، أو يقف عباده بين يديه ، يؤتهم كتب أعمالهم ، فيها سيئاتهم وحسناتهم ، أو يكلم عباده في شأن أعمالهم ، وكيفية مالها من ثواب ، وماعليها من العقاب ، وتتسع قدرة الله تعالى لمحاسبتهم جميعا كما اتسعت لإجادهم ، وتنظيم شؤونهم ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « **لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربعة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ماعمل به ؟ وعن ماله من أين أكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟** » وقال حديث حسن صحيح . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ ، من نوقش الحساب عذب ، فقلت : أليس يقول الله :«﴿ **وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا** ﴾ قال : (**إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة الا هلك**) . (شرح عبد السلام والعقيدة) .

فالله يحاسب عباده على أن يجازي على السيئة بسيئة مثلها المماثلة يحددها هو وحده . ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يجازي عليها بأكثر من ذلك لأنَّ الناس يتفاوتون في اتقان أعمالهم ، والإحسان فيه ، كما يتفاوتون في الإخلاص لله تعالى في مثل الصلاة ، والصيام ، والحج ، أما في الصدقة فهم مع تفاوتهم في الإخلاص يتفاوتون أيضا في تحري من يستحقها ، فربّ قرش يعطى لفقير أفضل عند الله من قرش يعطى لسائل

ورب قرش يعطى لأسرة بائسة أفضل عند الله تعالى من دينار يعطى جزافا ، وفي هذايقول الله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ ، ويقول :﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون** ﴾ ، ويقول : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ كل ذلك عدل من الله تعالى وحكمة وفضل ..

والأدلة قائمة على غفران الذنوب الصغائر لتارك الكبائر ، والصغائر كالشتم والنظرة ، والكبائر كالزنا والقذف إلى غير ذلك من الأعمال القبيحة ، ومن شأن التاركين للكبائر أن تتغلب حسناتهم على سيئاتهم فتذهب بها :﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ .

اتفقت الكتب السماوية والشرائع الإلهية على أن هناك يوماً هو آخر أيام الدنيا ، تساق فيه الخلائق ، بعد خروجها من القبور سوقا ، ويجمع الله فيه الموتى فلا يترك منهم فردا ﴿ **ويوم نسير الجبال وترئ الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ، وعرضوا على ربك صفا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا ماهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا** ﴾ (الكهف) وكثيرا مايخوفنا الله تعالى شدة ذلك اليوم ويحذرنا شره ، ﴿ **وأتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون** ﴾ يوم يحاسب فيه كل على ماقدم ، ويجزي عليه الجزاء الأوفى ، لاينفع فيه مال صاحبه ، ولايدفع فيه ولد عن أبيه ﴿ **يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ هو يوم تنقطع فيه الصلات وتتفرق الجماعات إلا صلة أساسها الدين ، وعروتها الإيمان

﴿ **الا خلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ يشتد فيه بالخلائق الأمر ، ويعظم بينهم الخوف . فلا يجرؤ نبي مرسل ولا ملك مقرب أن يشفع لأحد من خلقه ، إلا من بعد أن يستأذن ربه في وساطته ويرضي عنه في شفاعته ، ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ، ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾ ولا تزال الناس كذلك حتى يفصل بين الخلائق ، فإما إلى جنة أعدها الله للمتقين ، وإما إلى نار أعدت للعصاة والمجرمين : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون** ﴾ .

فيجب الإيمان بالصحف جمع صحيفة ، والمراد الكتب التي تدون فيها أعمال الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **واذا الصحف نشرت** ﴾ ، ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ وقال : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه اني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا وأشربوا هنيئا بما أسلفتم في الإيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله ، فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية** ﴾ .

وكذلك يجب الإيمان بالوزن والميزان ، الوزن هو تعرف مقدار الشيً حسا أو معنى ، كما يزن القاضي العادل مقدار حجج الخصوم ليتعرف قويها من ضعيفها ، ومنها سمى العلماء علم المنطق ميزانا للأن به توزن الحجج والبراهين ، قال تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** ﴾ ويقول : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ ..

الصـــراط :

يجب الإيمان بالصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم بين الجنة والنار يمر الناس عليه ، على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كراكب الإبل ، ومنهم من يعدو عدوا ، ومنهم من يمشي ، ومنهم من يزحف ، ومنهم من يخطف ، فيلقى في جهنم ، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط ، دخل الجنة ، فإذا مروا عليه عبروا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .. (1)

العـرش والكرسـي :

يجب الإيمان بعرش الله تعالى وكرسيه ، وبالقلم وبالملائكة الكاتبين ، وباللوح المحفوظ ، وإذا وفقنا لمعرفة هذه الأشياء ، ولو من طريق الخصائص والمميزات ، فذلك فضل من الله واسع ، وإن لم نعرفها آمنا بها مع تفويض علم حقيقتها إليه تعالى ، كما نؤمن بأن الله تعالى لم يخلقها عبثا ، وإنما خلقها لحكمة تقتضيها ويتطلبها نظام الملك ، ﴿ **وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين** ﴾ .

يجب الإيمان بالنار والجنة : النار أعدها الله للعصاة ، والجنة أعدّها للمتقين ، والمراد بهما دار النعيم والعذاب ، حق ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، وهما موجودتان الآن ، قال تعالى في الجنة : ﴿ **أعدت للمتقين** ﴾ وفي النار ﴿ **أعدت للكافرين** ﴾ ، وقال في الجنة إنها موجودة : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهي عندها جنة المأوى** ﴾ وفي وجود النار قال في حق قوم نوح عليه السلام ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوانارا** ﴾ ، وأن الجنة والنار لاتفنيان ..

الحـــوض :

يجب الإيمان بالحوض الذي يرده المؤمنون في الآخرة وهو حوض نبينا محمد ﷺ حتم لورود الخبر الصحيح به ، روى البخاري عن عبد الله بن

---

1) العقيدة الواسطية لابن تيمية ، وصحيح البخاري .

عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **حوضي مسيرة شهر ، مـاؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسـك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبدا** » ..

وعن سهـل بن سعـد قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « **إني فَرَطُكم** [1] **على الحوض ، من مر عليـه شرب منـه ، ومن شرب منـه لم يظما أبــدا ، ليردنّ علي أقــوام أعرفهم ويعرفــوني ، ثم يحــال بيني وبينهم** ، » وفي رواية فأقول يا ربي أصحابي ، فيقول : إنك لا علم لـك بما أحـدثـوا بعـدك إنهم ارتـدوا على أدبــارهم . هـذه الإحــاديث ومثلهــا في الصحيحين وردت في الحوض ، والعقل لا يحيله فوجب الإيمان به لأن ذلك هو الأصل في السمعيات .

الشفاعة

الشفاعة لغة الوسيلة والطلب وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير ، وقيل : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ..

والشفاعة تنقسم إلى قسمين مثبتة ومنفية : فالمثبتة هي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص ، ولها شرطان مذكوران في قوله تعالى : ﴿ **وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى** ﴾ ، وأما الشفاعة المنفية فهي التي تطلب من غير الله ، أو بغير إذنه ، أو لأهل الشرك قال تعالى :﴿ **من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة ، والكافرون هم الظالمون** ﴾ ...

وشرح العلماء الشفاعة الى ثمانية انصاف :

1) الشفاعة العظمى : وهي شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف حتى يقض بينهم حين يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعا صلوات رب وسلامه ، وهي المقام المحمود .

2) شفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها .

3) شفاعة سائر النبئين والصّدقين والشهداء والصالحين وغيرهم فيشفعون فيمن استحق النار أن لايدخلها وهو تكريم من الله - يوم القيامة - لبعض التقاة ، يشفع الله من يشاء فيمن شاء ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده الاّ باذنه** ﴾ .

4) وفيمن دخلها أن يخرج منها . بعد أن يردها حقا ويراها عين اليقين ﴿ **وإن منكم الاّ واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين أتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ .

5) في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ماكان يقتضيه ثواب أعمالهم ، فيشفع ﷺ فيهم .

6) الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب .

7) الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه .
8) الشفاعة في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوها فيخرجون منها .

وانقسم الناس في الشفاعة الى طرفين ووسط ، قسم نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة فنفوا شفاعته ﷺ في أهل الكبائر ، وقسم أثبتوها حتى للأصنام وهم المشركون كما ذكر الله عنهم بقوله : ﴿ **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ وقسم توسطوا وهم أهل السنة فأثبتوها بشرطيها وهما :إذن الله للشافع أن يشفع والثاني رضاه عن المشفوع له ولا يرضى من العمل الا ماكان خالصا صوابا ...

وعلى كل حال فمن أراد أن يعرف اليوم الآخر وماتشتمل عليه فأحيله على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل الآخرة ، وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وصنفوا المصنفات الكثيرة المطولة والمبسوطة ، وأن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر .

رأي الاستاذ محمد عبده في الشفاعة

نقل صاحب المنار عن الأستاذ الامام في تفسير قوله تعالى : ﴿ **له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ قال ما معناه ﴿ **له مافي السموات ومافي الأرض** ﴾ لأنهم ملكه وعبيده مقهورون لسننه خاضعون لمشيئته ، وهو وحده المصرف لشئونهم ، والحافظ لوجودهم ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده** ﴾ منهم فيحمله على ترك مقتضى مامضت به سنته ، وقضت به حكمته ، وأوعدت به شريعته من تعذيب من دسّى نفسه بالعقائد الباطلة ، ودنّسها بالأخلاق السافلة ، وأفسد في الأرض ، وأعرض عن السنة والفرض من ذا الذي يقدم على هذا من عبيده ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ ؟ والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الإستثناء نصا في أن الإذن سيقع ، وإنما كقوله ﴿ **يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ فهو تمثيل له بانفراد الله بالسلطان والملك في ذلك اليوم ﴿ **يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** ﴾ ولهذا

قال البيضاوي في تفسير الجُمل ، بيان لكبرياء شأنه ، وأنه لاأحد يساويه أو يدانيه ، ويستحيل بأن يدفع مايريده شفاعة واستكانة فضلا عن أن يعوقه عنادا أو مناصبة ....

وقال الأستاذ الإمام ماحاصله : إن في هذا الإستثناء قطعا لأمر الشافعين المتكلمين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة لانفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جراءة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه ، وإذنه غير معروف لأحد من خلقه ...

ثم قال : ﴿ **يعلم مابين أيديهم وماخلفهم** ﴾ أي ماقبلهم ومابعدهم أو بالعكس ، أو أمور الدنيا التي خلفوها ، أو أمور الآخرة التي يستقبلونها ، مايدركون ومايجهلون ، وهذا دليل على نفي الشفاعة بالمعنى المعروف .

فالشفاعة المعروفة التي يعلق عليها الكافرون والفاسقون آمالهم ، ويظنون أن الله تعالى يرجع عن تعذيب من أستحق العذاب منهم لأجل أشخاص ينتظرون شفاعتهم هي مما يستحيل على الله تعالى لأنها من شأن أهل الظلم والبغي تستلزم الجهل وهو ذو العلم المحيط ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ ومن علم شيئا منك فلا سبيل له إلا التصدي بإعلامك ، فما عسى أن يقول من يريد الشفاعة عنده بالمعنى الذي يعهده الناس ويغتربه الحمقى الذين يرجون النجاة في الآخرة بدون رضاء الله تعالى في الدنيا . قال الامام : **معناه أن الشفاعة تتوقف على إذنه ، وإذنه لايعلم إلا** بوحي منه تعالى . يريد أن ذلك ترق في نفيها من دليل الى آخر أي إذا أمكن أن يكون هناك شفاعة بمعنى آخر يليق بجلال الله تعالى كالدعاء المحض ، فإنه لايجرؤ عليها أحد في ذلك اليوم العصيب إلا بإذن من الله تعالى ، وإذنه تعالى مما إستأثر بعلمه فلا يعلمه غيره إلا إذا شاء إعلامه به ، ثم قال وإنا نعرف إذنه بما حدده من الإحكام في كتابه ، أي فمن بين أنه مستحق لعقابه ، فهو مستحق له ، لايجرؤ أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه على هفوات ألمّ بها لم تحول وجهه عن الله تعالى الى الباطل والفساد الذي يطبع على الروح فتسترسل في

الخطايا حتى تحيط بها ، فتملك عليها أمرها ، فذلك مستحق لـه منتـه إليـه بوء الله في كتابه وفضله على عباده كما سبق في علمه الأزلي .

ثم قـال الأستـاذ الامـام : قـالوا أن الإستثنـاء في قـولـه تعـالى : ﴿ **إلا بـأذنـه** ﴾ واقـع ، وهـو أن نبينـا عليـه الصـلاة والسـلام يشفـع في فصـل القضـاء ، فيفتح بـاب الشفـاعـة فيـدخـل فيـه غيره من الشفعـاء كالأنبيـاء والأصفياء كما ثبت في الأحاديث ، وهي حالة أنكرهـا المعتزلـة وأثبتهـا أهل السنة . والله تعالى يأذن لمن يشاء ويطلع على علمه باستحقاق الشفاعـة من يشـاء كما علم من الإستثنـاء ، ونقـول : أجمـع كل من أهـل السنـة والمعتزلـة وسائر فرق المسلمين على كمال علم الله تعالى واحاطته وذلك يستلزم إستحالـة الشفـاعـة عنـده بـالمعنى المعهود كما سبق القول ، وقلنـا هنـاك أن مثل هـذا الإستثناء ورد في القرآن لتأكيد النفي وبذلك نجمع بين الآيـات التي تنفي الشفاعة بدون إستثناء وبين هذه ، وقلنـا أن مـاورد في الحـديث يـأتي فيـه الخلاف بين السلف والخلف في المتشابهات فنفوض معنى ذلك اليه تعالى ، أو يحمله على الدعاء الـذي يفعل الله تعـالى عقبـه مـاسبق في علمـه الأزلي أنـه سيفعله مع القطع بأن الشافع لم يغير شيئا من علمه ، ولم يحدث تأثيرا مـافي إرادته تعالى وبذلـك يظهر كرامـة الله لعبـده بمـا أوقع الفعل عقب دعـائـه ا هـ (1) .

---

1) أنظر بحث « الشفاعة » في تفسير المنارج 1 ص 301 .

الركـــن الســادس الايمـــان بالقـــدر

الايمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر بقضاء الله وقدره ، وأنه الفعال لما يريد ، لايكون شيً إلا بإرادته ، ولايخرج عن مشيئته ، وليس في العالم شيً يخرج عن تقديره ، ولايصدر إلا عن تدبيره ، ولامحيد لاحد عن القدر ، ولايتجاوز ماخطّ في اللوح المحفوظ ، وأنه خالق أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها ، بل هي واقعة بحسب قدرتهم ، وإرادتهم يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لايسأل عما يفعل وهم يسئلون ...

وأول ما خلق الله القلم قال له : أكتب . قال : وما أكتب ؟ **قال :** ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رفعت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم مافي السماء والأرض ، إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير** ﴾ وقال : ﴿ **ماأصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ (سورة الحديد) .وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ماشاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ، بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، فقال : « أكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد » ونحو ذلك ..

الإيمان بالقدر بأن الله علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا ، فالأزل القديم الذي لانهاية له ، فالأزل هو الدوام في الماضي ، والأبد ماليس له آخر ، فهو الدوام في المستقبل ، فالأول هو الذي لم يزل كائنا ، والأبد هو الذي لايزال كائنا ، وكونه لم يزل ، ولايزال معناه دوامُه وبقاؤه الذي ليس له مبتدأ ولامنتهى ..

وأن الله عالم بأعمال العباد قبل خلقهم وبجميع أحوالهم لايغيب عن علمه شيً ، فيعلم ماكان ومايكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ،

ويعلم الواجبات والممكنات والمستحيلات ، قال تعالى : ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما** ﴾ وقال : ﴿ **إن الله بكل شيءٍ عليم** ﴾ ...

والعلم أعم من الإرادة ، وهو أصل لها ، والمعلوم أعم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود ، والمعدوم ، والواجب والممكن ، وماكان وماسيكون ، ومايختاره العالم وما لايختاره . وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض ، والخبر يطابق العلم ، فكل مايعلم يمكن الخبر به ، والإنشاء يطابق الإرادة ، فإن الأمر إما محبوب يؤمر به ، وإما مكروه ينهى عنه ، واما ماليس بمحبوب ، ولامكروه ، فلا يؤمر به ، ولاينهى عنه ..

ومرتبة العلم من أول مراتب القدر ، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم الى آخرهم ، وأتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وقد كفر السلف من الصحابة ، فمن بعدهم من أنكر علم الله ، قال ابن عمر : « والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ، ثم أنفقه في سبيل الله ماقبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا كلام ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وواثلة بن الاسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام ، حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون . فإن الله سبحانه وتعالى علم أهل الجنة من أهل النار قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به ، بل نص الأئمة كمالك والشافعي ، وأحمد أن من جحد هذا ، فقد كفر ، بل يجب الإيمان به ، فإن الله علم ماسيكون قبل أن يكون . وفي الصحيح قالوا يارسول الله علم الله أهل الجنة من أهل النار ، قال : نعم ، قيل : فيم العمل ؟ قال :« **اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له** » وأن الله علم الأشياء كما هي ، وقد جعل لها أسبابا تكون بها ، وعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، فلابد من الأسباب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى من الدعاء ، والسؤال وغيره فلا ينال العبد شيئا الا ما قدره الله من جميع الأسباب ، والله خالق ذلك الشيءُ ، وخالق الأسباب ، ولهذا قيل الإلتفات الى الأسباب شرك في التوحيد وترك الأسباب نقص في العقل ، والإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع ، ومجرد الأسباب لاتوجب حصول

السبب إلا إذا كان بقضاء الله وقدره ، فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ماشاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وماشاء الناس لايكون إلا أن يشاء ، لايجوز أن يعتقد أنَّ الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم ، أو تخالف الشرع كان مبطلا ، مثل أن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء ، أو حصول النعماء أن الأعمال البدنية لايجوز أن يتخد منها سببا إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف وكذلك عمل الآخرة ، فليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، قال النبي ﷺ : « **لن يدخل أحد الجنة بعمله** » قالوا ولاأنت يارسول الله ؟ قال : « **ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته** » فالعمل الصالح مع رحمة الله هو طريق الجنة ، أي ليس العمل عوضا أو ثمنا كافيا في دخول الجنة ، بل لابد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته ، فمغفرته تمحو السيئات ورحمته تأتي بالخيرات ، وتضاعف الحسنات ...

وقد ضلّ فريقان في القدر : أحدهما أخد بالقدر وأعرض عن الأسباب الشرعية ، والأعمال الصالحة وظنوا أن ذلك كاف ، وهؤلاء يؤول أمرهم الى الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والفريق الثاني أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلب الأجير من المستأجر معتمدين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وهم جهال ضلاّل ، فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعيد ناظرا إلى القدر ، فقد ضل ، ومن طلب المقام بالأمر والنهي معرضا عن القدر ، فقد ضل ، بل لابد من الأمرين فكل عمل يعمله العامل ولايكون طاعة وعبادة وعملا صالحا ، فهو باطل ، وكل عمل لايعين الله العبد عليه فإنه لايكون ، لأن تفاصيل الجزاء فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لاينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ..

مشيئة الله :

وأما مشيئة الله سبحانه وتعالى ، هي تتضمن شيئين أولها الإيمان بعموم

مشيئته تعالى وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لايقع في ملكه إلاّ ما يريد وإن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لايخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله و يرضاه أم لا . وثانيهما الايمان بأن جميع الاشياء واقعة بقدرة الله تعالى ، وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، ولا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها كما قال تعالى : « **والله خلقكم وما تعملون** » ويجب الايمان بالأصل الشرعي ، بحيث أن الله تعالى كلّف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة أصلا بينما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه للعباد بما شاء من أمر ونهي فإن تلك المشيئة لا تنافي حرية العبد واختياره للفعل ، ولهذا جمع الله بين الشيئين بقوله : « **لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون الا أن يشاء الله ربّ العالمين** » كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعي المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله مالا يحبه كمشيئة وجود إبليس وجنوده ، وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء وبين كون العبد فاعلا لفعله ، فالعبد هو الذي يوصف بفعله ، فهو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلي والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والارادة اللتين بهما يفعل : يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر : إن العبد اذا صلى وصام وفعل الخير وعمل شيئا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العلم الصالح ، وذلك العمل السيء وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحسن أنه غير مجبور على الفعل أو الترك ، وأنه لو شاء لم يفعل ، وكان هذا هو الواقع ، فهو الذي نص الله عليه في كتابه ، ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها ، وأنهم ممدحون عليها إن كانت صالحة ، ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها ، فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاؤا فعلوا ، وإذا شاؤا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلا وحسًا وشرعا ومشاهدة ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وان كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال بأي شيء وقعت هذه الاعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها فإنها بقدرتهم وإرادتهم ، هذا

يعترف به كل أحد ؟ فالله هو الذي خلق ذلك فيهم وهو خالق للأفعال وهو الذي أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة ، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ « **أما من كان من أهل السعادة فييسره لعمل أهل السعادة** » وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم .

خلاصة في القدر والمشيئة

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيءٍ من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها ، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة ، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقا لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض إختيارهم ولهذا يستحقون عليها الجزاء . إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة ، وأن نسبة هذه الأفعال الى العباد فعلا فلا تنافي نسبتها الى الله إيجادا وخلقا لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها .

الإيمان بالقدر جزء من عقيدة المسلم ، وليس معنى الإجبار ، قال الخطابي : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ماقدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمون وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله سبحانه بمايكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى ، وخلقه لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر » .

وعلم الله سبحانه بما سيقع ، ووقوعه حسب هذا العلم لاتأثير له في إرادة العبد ، فإن العلم صفة انكشاف لاصفة تأثير .

حكمة الإيمان بالقدر :

وحكمة ذلك : أن تنطلق قوى الإنسان وطاقته لتعرف السنن والقوانين الإلهية ، وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير ، وفي إستخراج كنوز الأرض ، والإنتفاع بما أودع في الكون من خيرات .

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل ، والإيجابية في الحياة ، كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا

الوجود ، فيرفع من نفسه الى معالي الأمور : من الاباء والشجاعة والقوة من أجل احقاق الحق والقيام بالواجب .

الإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا ، فإذا مسه الضر فإنه لايجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لايفرح ولايبطر ، وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنسانا سويا متّزنا بالغا منتهى السّمو والرفعة وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم والله لايحب كلّ مختال فخور** ﴾ (سورة الحديد) . هذا ماينبغي أن نفهمه من القدر ، وهو مقتضى فهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفهم أصحابه رضوان الله عنهم أجمعين ..

وقد دخل رسول الله يوما على الإمام علي كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء فوجده قد بكّر بالنوم فقال له : « **هلا قمت من الليل ؟ فقال يارسول الله أنفسنا بيد الله إن شاء بسطها ، وإن شاء قبضها ، فغضب رسول الله ﷺ ، وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول ، « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » ...... وسرق أحد اللصوص ، فلما حضر بين يدي عمر رضي الله عنه سأله لم سرقت ؟ فقال قدر الله ذلك ، فقال عمر رضي الله عنه أضربوه ثلاثين سوطا ، ثم أقطعوا يده ، فقيل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله** » .

إن القدر لايتخذ سبيلا الى التواكل ، ولاذريعة الى المعاصي ولاطريقا الى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتخذ سبيلا الى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال ، إن القدر يدفع بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الري ، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حينما فرّ من الطاعون : أتفر من قدر الله قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أي يفرُّ من قدر المرض والوباء الى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلا بالارض الجدباء ، والأرض الخصبة ، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء الى الأرض الخصبة لترعى فيها ابله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر (1) ....

لقد كان يمكن للرسول وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنين معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذي يتعلل به الفاشلون ، ولكنه جاء يكشف عن وجهه الصواب ، فلم يهن ولم يضعف ، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ملتزما سنة الله في نصره لعباده ....

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، وما غزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره ....

وقد حذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أن يُفهم القدر فهما خاطئا ، ودعا الى مجاهدة من يرى هذا الفهم الخطأ ، فقد روى عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « **يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ، ثم يقولون : الله قدرها علينا . الرادّ عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله** » ....

هذا هو القدر الذي ينبغي أن نعرفه عن القدر . وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه ، ولا التنازع في شأنه ، فأن هذا من أسرار الله التي لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفكار ....

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ،

1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما

وقال : أبهذا أرسلت إليكم ؟ **إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه** » وفي هذا يقول رضي الله عنه لمن سأله في مثل هذا : **طريق مظلم لا تسلكه** ، كرر عليه السؤال فقال : **بحر عميق لا تلجه** ، كرر عليه السؤال فقال : **سرالله قد خفي عليك فلا تفشه** » فمثل هذا النهي إنما ينصب على السؤال عن نظام الله في الحياة والموت ، وبسط الرزق وضيقه وهكذا لا على الكلام في القدر نفسه .

حـريـــة الإنســــان :

منذ أقدم العصور أخذ الإنسان يفكر في نفسه ، وفي الكون المحيط به ، وكانت حرية الإنسان إحدى القضايا التي تناولها عقله ، وشغلت حيزا كبيرا من تفكيره ولا تزال هذه القضية الى يومنا هذا مثار جدل ومناقشة بين المفكرين والفلاسفة ، ولا يزال اهتمامهم بها اهتماما بالغا ، إذ أنها قضية تتعلق بحياة الإنسان ، وتتصل بمصيره فهو يبحث فيها ، ويكدّ ، ويجد في البحث عله يهتدي الى الحل الصحيح كي يرسم لنفسه السلوك على ضوء الحل الذي يهتدي اليه وبديهي أن الانسان حينما حاول الكشف عن وجه الصواب في هذه القضية ، وأراد البحث فيها لم يجعل ميدان بحثه الاعمال الخارجة عن إرادته واختياره ، ككونه أبيض ، أو أسود ، وككونه ولد من هذا الوالد ، أو ذالك ، وكنبضات قلبه ، وتنفسه ، وجريان الدم في عروقه ، فان هذه الاشياء خارجة عن نطاق البحث ، لأن الانسان لا اختيار له فيها ، وهي غير خاضعة لارادته .

وانما اتجه الانسان الى البحث الى الاعمال الارادية التي تدخل في نطاق ارادته واختياره ، ومدى حريته في ممارسة هذه الاعمال مثل تفضيله لونا من العلم أو الكتابة ، أو بممارسة حرفة من الحرف ، وزيارته لغيره وهكذا في كل عمل من الاعمال الاختيارية .

وقد اختلفت الأنظار ، وتضاربت الأفكار تضاربا كادت تضيع معه معالم الحق ، فمن قائل : بأن الانسان مسيرا (1) غير مخير ، ومجبر على ممارسة

1) هذا مذهب الجبرية

نشاطه الاختياري ، وأنه كالريشة في مهب الريح ، تتقاذفها ذات اليمين وذات الشمال .

ومن قائل : بأن الانسان مخير (1) غير مسير ، وأنه يمارس أعماله الاختيارية بمحض ارادته ومشيئته .

ومن قائل : بأن الانسان ليس له من أعماله إلا الكسب (2) أي أن الله يخلق الشيء عند مباشرته - أي أن الله يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند الدراسة ، وهكذا وليس للعبد الا الكسب ، وبه يصح التكليف والثواب والعقاب ، والمدح والذم ، والذي نراه في هذه القضية ونختاره هو ما قرره الاسلام فيما يلي :

تقرير الاسلام حرية الارادة :

قرر الاسلام أن الانسان خلق مزوّدا بقوى وملكات واستعدادات ، وهذه القوى يمكن أن توجه الى الخير ، كما يمكن أن توجه الى الشر ، فهي ليست خيرا محضا ، ولا شرا محضا ، وان كانت ارادة الخير في بعض الناس أقوى ، وارادة الشر في البعض الآخر أقوى ، وبينهما تفاوت لا يعلمه الا الله وفي الحديث الصحيح : « **كل مولود يولد على الفطرة** » وفي الحديث أيضا : « **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا** »(3) ويؤيد هذا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ (سورة الشمس) أي أن الله خلق النفس مسواة ، ومعتدلة قابلة للتقوى والفجور ومستعدة للخير والشر ، والله سبحانه زود الانسان بالعقل الذي يميز به بين الحق والباطل في العقائد ، وبين الخير والشر في الافعال وبين الصدق والكذب في الأقوال ، وأعطاه القدرة التي يستطيع بها أن يحق الحق ، ويبطل الباطل وأن يأتي الخير ويدع الشر ، وأن يقول الصدق ، ويجانب

---

1) هذا مذهب المعتزلة والإمامية .

2) هذا رأي الاشاعرة .

3) رواه مسلم - عن أبي هريرة - صحيح

الكذب ورسم له منهج الحق والخير والصدق مما أنزل من كتب ، وبما أرسل من رسل ، وما دام العقل المميز موجودا ، والقدرة على الفعل صالحة ، والمنهج المرسوم واضحا ، فقد ثبت للانسان حرية الارادة واختيار الفعل وعلى الانسان أن يوجه قواه الى ما يختاره لنفسه من حق ، أو باطل ، ومن خير أو شر ، ومن صدق أو كذب ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ أي هديناه ، وأرشدناه الى طريق الحق والباطل . والخير والشر ، والصدق والكذب ، فهو إما أن يسلك السبيل الأهدى فيكون شاكرا ، أو الطريق المعوج فيكون كفورا ، وفي هذا المعنى أيضا يقول القرآن الكريم : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ أي الطريقين . كل انسان مسؤول عن تهذيب نفسه واصلاحها حتى تصل الى كمالها المقدر لها ، فإصلاحها وتزكيتها وتنميتها يكون بالعلم النافع والعمل الصالح وهو سبيل فلاحها وفوزها برضا الله ، والقرب من مشاهدة جلاله وجماله ، كما ان إهمالها هو السبيل إلى خيبتها وخسرانها « **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** » « **بل الإنسان على نفسه بصيرة** » « **كل نفس بما كسبت رهينة** » « **كل امرئ بما كسب رهين** » والآيات التي تقرر حرية الإنسان كثيرة جدا ﴿ **ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

فأسند العمل الصالح ، والعمل السيئ الى الإنسان ، ولو لم يكن الإنسان حرا ماأسند إليه الفعل ، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ **وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** ﴾ أي أن الشرور التي تعرض للإنسان إنما هي أثر من آثار عمله ، ونتائج اختياره وتصرفه .

وإن القرآن يتحدث عن المفاسد والجرائم التي تحيط بالناس فيبين أنها ليست من صنع الله ، وإنما هي من صنع البشر ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ وهذا الذي يقرره القرآن هو مايشعر به الإنسان من نفسه ، فهو يشعر بأنه يمارس أعماله الإرادية بمحض إرادته وإختياره ، فهو

يفعل ، ويدع منها مايشاء ، وهو إذا فعل منها ماهو نافع استحق المدح ، وإذا فعل منها ماهو ضار استوجب الذم فلو لم يكن مختار لما توجه إليه المدح على فعل ماهو نافع ، ولما توجه إليه الذم على فعل ماهو ضار بل لو لم يكن الإنسان مختارا لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء ، اذ أن كلا منهما مجبر على مايفعله ، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي على المنكر ، اذ لافائدة لهما حيث أن الإنسان مسلوب الإرادة ، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله العباد ، لأن تكليفه إياهم مع سلب إختيارهم هو منتهى الظلم الذي يتنزه الله عنه ، ويكون الأمر كما قال القائل :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتلّ بالماء ، بل لو كان الإنسان مسيرا لضاعت فائدة القوانين ولبطل الجزاء من الثواب والعقاب .

وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم وأنه لو لم يشأ أن يكونوا مشركين لما كانوا كذلك ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيٍ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظّن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فالله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ (سورة الانعام) . فالقرآن يرد على المشركين من وجهين : الاول : ان الله أذاق الكافرين بأسه ، وأنزل بهم عقابه فلو لم يكونوا مختارين للجرائم والمآثم ، والكفر والشرك لما عذبهم الله لأن الله عادل لايظلم مثقال ذرة .

والوجه الثاني : أنهم زعموا ذلك عن جهل بالله ، وجهل بدينه ، وأنه ليس عندهم من علم يمكن أن يستند إليه ، ويرجع إليه ، وإنما كفرهم هذا تمرد على دينه ، وافتيات على الحق الذي أنزله على ألسنة الرسل ..

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتجون بها فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنيه لاتقوم عليها حجة ولا ينهض بها دليل ، وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء ، ولو شاء الله لأجبرهم على الهداية ، وحينئذ لم يكونوا من البشر لأن البشر فطروا على الحرية والإختيار ..

مشيئة الرب ، ومشيئة العبد :

وقد يقال إذا كان الله منح العبد الحرية والإختيار فما معنى قوله : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ (سورة التكوير) . فنقول معناها أن الإنسان لايشاء شيئا إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : « طريق الهداية » أو « طريق الضلالة » فإذا أختار الطريق الأول في نطاق المشيئة الإلهية وإذا أختار الطريق الثاني ففي نطاقها أيضا ، وكل الآيات التي جاءت ، على هذا النحو فمعناها لايختلف عما ذكرناه ..

الهداية والإضلال :

يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، أي أن الله يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته ، وإذا كان الله يضل ويهدي ، فليس للعبد حرية الإختيار ، والواقع أن الهداية والإضلال نتائج لمقدمات ، ومسببات لأسباب ..

فكما أن الطعام يغذي والماء يروي ، والسكين تقطع والنار تحرق فكذلك هنا أسباب توصل الى الهداية وأسباب توصل الى الإضلال ، فالهداية إنما هي تثمر عملا صالحا ، والضلال إنما هو نتائج عمل خبيث ، فإسناد الهداية والإضلال الى الله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال أو الهداية ...

وحينما ترجع الى الآيات القرآنية تجد هذا المعنى واضحا لالبس فيه ولا غموض فالله يقول : ﴿ **ويهدي إليه من أناب** ﴾ ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ ، فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم ، وتوفيقهم للعمل الصالح ، إنما هي ثمرة جهاد للنفس ، وإنابة الى الله ، واستمساك بإرشاده ووحيه ، يقول القرآن الكريم في الإضلال : ﴿ **يُضّل به كثيرا ويهدي به كثيرا ومايُضِّل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون مأمر لله به أن يوصل ويفسدون في الأرض**

أولئـــك هم الخـــاسرون ﴾ ﴿ **كـــذلـــك يطبـــع على كل قلب متكبّر جبـــار** ﴾ ، ﴿ **فلما زاغـوا أزاغ الله قلـوبهم ، والله لايهـدي القـوم الفـاسقين** ﴾ ، ﴿ **كلاّ بل ران على قلـوبهم مـاكانـوا يكسبـون** ﴾ ، ﴿ **بل طبع الله عليهـا بكفرهم فلا يـؤمنـون إلا قليـلا** ﴾ نرى من هـذه الآيـات أن سبب الإضلال هو الزيغ والخروج عن تعـاليم الله ، والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حق ونقض عهـد الله ، وقطع مـاأمر الله بـه أن يوصل ، ووصل مـاأمر الله بـه أن يقطع والفسـاد في الأرض والكفر واقتراف الآثام ..

فهذه هي الأسباب التي أضلت الناس ، وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهـــدى ، واستحبـوا الظـلام على النـــور ، فكافـــأهم الله ، فأصّمهم ، وأعمى أبصارهم ، بمقتضى نظامه في ارتبـاط الأسبـاب بمسببـاتهـا ، قال تعالى : ﴿ **ولقـد ذرأنـا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بهـا ، ولهم أعين لايبصرون بهـا ، ولهم آذان لايسمعـون بها أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ فهؤلاء أهملوا منافذ العلم والعرفان ، وعطلوها عما خلقت له ، فلم يصل إليها نور الحق .

فقلـــوبهم غلف لاتعقـــل عن الله وحيـــه ، وعيـــونهم عمي لاترى الله في ملكـوتـه ، وآذانهم صم لاتسمـع آيـات الله ، فهم مثـل الأنعـام التي لاتنتفـع بحواسها الظـاهرة والباطنة ، بل أضل من الأنعام إذ الأنعام لم تُزوَّد بمـا زوِّد به الإنسان من قوى نفسية وعقلية وروحية .

خاتمــة القضـــاء والقــدر

قال أبو الوفاء محمد درويش رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية :
قال رحمه الله : يقول الله تعالى في كتابه الكريم مخاطبا رسوله الأمين ﷺ : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ (سورة النحل) . ويقول أيضا : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردُّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ (سورة النساء) . ويقول جل شأنه : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب** ﴾ (سورة الشورى) . إذا الكتاب الحكيم يقضي على كل خلاف ، ويحكم الحكم الفصل في كل نزاع فلنلتمس بين نصوصه الحكم في هذه القضية التي شغلت الأذهان في كل زمان ومكان .

وإذا رجعنا الى حكم الله تعالى نجونا من شر الخلاف الذي نهى عنه أحكم الحاكمين في كثير من آيات كتابه الحكيم ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ (سورة الانعام) . قال عليه الصلاة والسلام : « **اقرأوا القرآن ما اجتمعت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه** » .(1)

أقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد هذا العالم كاأراد على أتم نظام ، وأبدع إحكام ، وأن يدبره بعلمه وحكمته خير تدبير ، وأن يضع له نواميس دقيقة محكمة ، وقوانين ثابتة وسننا لاتتحول ولاتتبدل ترتبط فيها الأسباب بالمسببات وتعتمد النتائج على المقدمات ، هذا النظام المحكم وهذا التدبير العجيب بأسبابه ومسبباته ، ونتائجه ومقدماته ، ونواميسه وقوانينه وسننه وأحكامه هو القدر ...

---

1) ابن جرير عن ابن مسعود

قال تعالى : ﴿ **إنّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ (سورة القمر) . ﴿ **وما تنزله إلا بقدر معلوم** ﴾ (سورة الحجر) . ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير** ﴾ (سورة الشورى) . ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ (سورة القمر) . ﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى** ﴾ (سورة طه) . ﴿ **وكان أمر الله قدرا مقدورا** ﴾ (سورة الاحزاب) . إذا فالقدر هو القانون الحكيم الذي وضعه أحكم الحاكمين بعلمه وإرادته وحكمته ليسير على أحكامه كل شيٍ في هذا الوجود من السماء ومافيها الى الأرض وماعليها ، وما بين ذلك ﴿ **وما كان ربّك نسيا** ﴾

الأقــدار :

قدر الله سبحانه أن تدور الأرض حول محورها أمام الشمس مرة كل أربع وعشرين ساعة ، وقدر أن تدور حول الشمس مرة في كل خمسة وستين وثلاثمائة يوم وربع يوم ، وقدر أن الجسم إذا قذف في الفضاء عاد الى الأرض ، إذا تلاشت القوة الدافعة ، وغلبت القوة الجاذبية ، وقدر أن الضوء إذا سقط على جسم انعكس عنه ، وكانت زاوية الإنعكاس مساوية لزاوية السقوط ، وقدّر أن الماء إذا اشتدت حرارته استحال بخارا ، وإذا إشتدت برودته استحال جليدا ، وقدّر أن النار اذا حيل بينها وبين أكسجين الهواء خبت ، وقدر الفلزات تمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة ، وقدر أن الجسم المنغمس في الماء يزيغُ منه بقدر حجمه ، وأن الجسم الطافي عليه يزيع منه بقذر وزنه ، وقدر أن الجهازين الكهربائيين إذا توافقت مفاتيحيها ، وكان أحدهما مرسلا والآخر مستقبلا ، تم الإتصال بينها مهما بعد أحدهما عن الآخر . وقدر أن الحبة الصالحة إذا ألقيت في التربة الطيبة ، وأجري عليها الماء نبت منها نبات ، وقدر أن نواة التمر نبتت منها نخلة ولايمكن أن تنبت غير النخلة ، فلا يمكن أن تنبت منها زيتونة مثلا ، وقدّر أنه إذا اتصل الذكر بالأنثى من الإنسان والحيوان والطير مع سلامة الأعضاء وموافقة الزمن والإستعداد تكون نسلا من جنسها وقدر أن يولد الإنسان طفلا ، ثم يصير صبيا فراهقا فمدركا فشابا ، فكهلا ،

فشيخا ، فهرما ، وإذا قدر له أن يرد الى أرذل العمر ، وقدر أن يمنحه قدرة وإرادة يزاول بها ـ بإذن ربه ـ مصالحه ، ويسعى في كسب رزقه وجلب ماينفعه ودفع مايضره .

وقدر أن يمنحه أنواعا من الهدايات يميز بها النافع من الضار والخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وقدّر أن يرسل اليه رسله يرشدونه الى مافيه خيره وصلاحه ، وأناط بأتباعهم وطاعتهم سعادته ، وبمعصيتهم والمخالفة عن أمرهم شقاوته ، وقدّر أن يكلفه أنواعا من التكاليف كلها ، فإن نهض بها أثابه وإن لم يفعل عاقبه ، وقدّر أن يجعله مختارا فيما يأتي ويدع ، وأن يجعل هذا الإختيار أساسا للتكاليف الشرعية ، حتى إذا ذهب الإختيار سقط التكليف ولا يتسع الوقت لإيراد جميع المقادير الإلهية التي سماها ذو الجلال والإكرام بكلماته ، والتي قال في شأنها في سورة لقمان : ﴿ **ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ وقال في سورة الكهف : ﴿ **قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ .

هذه القوانين الإلهية ، والنواميس الربانية ، والسنن الكونية أزلية أبدية سرمدية خالدة ، وضعها رب العزة قبل أن يخلق السموات والأرض ، فكانت هذه النواميس قائمة ، ولم يكن في الدنيا شيٌ من الموجودات ، بل لم تكن الدنيا قد تمخض عنها الوجود ، وهذه القوانين الأزلية الأبدية لاتتغير ، ولاتتبدل ، ولاتتحول بشهادة القرآن الكريم كما قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ ..

ذلكم هو القدر ، أي القانون الأزلي الأبدي السرمدي الذي لايعتريه تبدل ولا تغير ولاتحول ، والذي لو اجتمعت كل قوى العالم السماوية والأرضية على أن تغير منه مثقال ذرة ماوجدت الى ذلك سبيلا ، ولو كان بعضها لبعض ظهيرا .

ذلكم هو القدر فما القضاء ؟

القضـــــاء :

إبراز هذا القانون في الخارج أي إيجاد الكائنات وتسييرها على حسب ما قدر الله لها في الأزل .

فهو كما قال ابن الاثير : كالبناء ، والقدر كالأساس ولأضرب مثلا يزيد الأمر وضوحا ، آلة ميكانيكية قبل أن تبرز الى الوجود ، كان لها في ذهن المهندس الذي أخترعها صورة واضحة الخطوط والمعالم ، ولكنها لاوجود لها في الخارج ، ثم صنعت ، فبرزت الى الوجود فوجود صورة الآلة في ذهن المهندس يشبه القدر وصنعها وإبرازها في الخارج يشبه القضاء . ولله المثل الأعلى ليس كمثله شيء ..

وإنما ضربت هذا المثل لأقرب الأمر الى الأذهان فقط وأما الحقيقة العليا ، فهي وراء المدارك والأفهام ..

ذكرت للقدر أمثلة كثيرة ، فلا أطيل بذكر أمثلة أخرى للقضاء ، وحسبنا أن نرجع الى الأمثلة السابقة لنعلم أن إيجادها في الخارج ، وإبرازها في الوجود هو القضاء ..

فإيجاد الكائنات وتسييرها على حسب ماقدر لها قضاء ، وشروق الشمس وغروبها على هذا النظام المقدر لها قضاء ، ونزول المطر من السحاب قضاء ، ونمو النبات والشجر على حسب سنة الوجود قضاء ، وتفتح الأزهار وذبولها وسقوطها قضاء ، ومرض من يمرض اذا تعرض لأسباب المرض قضاء ، وموت من يموت إذا جاء أجله المسمى المرتبط بالأسباب المقدرة قضاء ، وشفاء من يشفى إذا تعاطى أسباب الشفاء قضاء ، والأمثال معروفة المخاصة والعامة ...

قدر الله سبحانه في الأزل أن يخلق السموات والأرض فلما جاء الأجل المحدود أبرزها الى الوجود ، فكان إبرازها قضاء قال تعالى في سورة فصلت : ﴿ **ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إيتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنا السماء الدنيا**

بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقدر سبحانه في الأزل أن يخلق غلاما تحمله فتاة لم يمسها بشر ليكون هو وأمه آية للناس ، فلما جاء الموعد المحدود قضي ماقدر قال تعالى في سورة مريم : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليهاروحنا فتمثل لها بشرا سويا ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ؟ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾ ..

فالمراد بالقدر التقدير ، وبالقضاء الخلق ، فالقضاء والقدر أمران متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، فأحُدهما بمنزلة الأساس وهو القدر ، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء ، فمن فصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه ..

الإنســـان والأقـــدار

الأقدار المحيطة بالإنسان على ثلاثة أنواع :

النـوع الاول : لايستطيـع الإنسـان دفعـه مهما يكن لـه من القـوة والبطش ، ولابد أن ينفذ ، وأنف الإنسان راغـم .

النوع الثاني : لايمكن للإنسان أن يقاومه كل المقـاومـة ، ولكن يمكنـه تخفيف حدته ، وتلطيف شدتـه .

النوع الثـالث : نوع جعل الله في وسع الإنسـان أن يـدفعـه بل أوجب عليه أن يدفعه ، وأن يبذل في سبيل ذلك كلما يملـك من قوة وجهد . وهذا إجمال يحتاج الى تفصيـل : ..

النـــوع الأول :

أما القدر الذي هو وراء قدرة الإنسان ، ولاتنـالـه قوتـه ، ولايستطيع دفعـه مهما يكن لـه من قوة وسلطـان فهو القـدر المتصل بنواميس الكون ، وقوانين الوجود وهو القدر الغالب إبتداء وإنتهـاء ، فليس في وسع الإنسـان أن يوقف دورة الفلك ، أو يأتي بالربيع مكان الخريف ، أو بالشتـاء مكان الصيف ، أو يعطل جاذبية الأرض .

ومن ذلك سنن الوجود : أن يولد الإنسان دون غيره ، ومن فلانـة دون غيرها ، وأن يكون أبيض اللون أو أسمره ، طويل القامة أو قصيرها ، ذكيا أو غبيـا ، الى غير ذلـك من الأقـدار التي ليس لـلإنسـان يـد في إحـداثهـا ولاقدرة له على تغييرها ...

ومن أجل ذلك لم يكلّف الله الناس شيئا بهذا لأنه لم يكن في وسع أحد أن ينهض به ، ويلحق بهذا النوع . المصادفات البحتة التي لابد للإنسان في إحـداثهـا ، والتي لم يـأت الخير فيهـا بجـده ، ولا الشر بسعيــه ، كأن علـق شخص آمـالـه على إنسـان فمـات ، أو وضع مـالـه في حرز أمين فـاحترق أو وافته صفقه تجارية ماكان ينتظرهـا فربح منهـا مـالا كثيرا ، أو غير ذلـك

من الأسباب التي لايد فيها للإنسان ، وبهذه الأمور تهدى فطرة الإنسان الى أن هناك قوة فوق قوى البشر تسيطر على الإنسان وتخضعه لتصرفاتها فتأتيه بالخير من حيث لايحتسب لحكمة لايعلمها وترميه بالنوائب من حيث لايقدر لسر يجهله ...

تلك قدرة الله الغالب على أمره ، القائم على كل نفس بما كسبت الذي له الخلق والأمر ، وهو أحكم الحاكمين ، ذلكم هو القدر الذي ينبغي أن يتلقى الإنسان أحكامه بالرضا والتسليم والإمتثال ، وإن رآهاشرا ، وبالحمد والشكر ، وإن رآها خيرا ، ذلكم هو القدر الذييشير إليه الله سبحانه : ﴿ **ماأصاب من مصيبة في الأرض ولا فيأنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرلكيلا لاتأسوا على ما فاتكم لا تفرجوا بما اتاكم والله لا يحب كلمختال فخور** ﴾ (سورة الحديد) . ويقول تعالى : ﴿ **ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ (سورة التغابن) . فلو تدبرنا هذه الآيات حق تدبرها لوجدناها تنطق بالحق ، وتشهد بالصدق ، وتعلن في صراحة وجلاء أنه سبحانه يدّبر الكون بعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته فلا يقع فيه شيً إلا بإذنه لوجدنا فيها عزاء للذين تعتريهم الكوارث ، وتمسهم النكبات إذ تنزل السكينة في قلوبهم وترد إليهم عازب الصبر ، أو تلهمهم الرضا والتسليم .....

ولوجدنا فيها كذلك كبحا لجماح النفوس السادرة في غلوائها المدلة بما حوّلها ربها من الخير والنعمة التي يستهويها شيطان الغرور فينسيها شكر المنعم وحمد المتفضل .

إمتحــــان :

يمتحن الله سبحانه عباده ، وهو أعلم بهم لتنهض حجته عليهم وتنقطع أعذارهم ، وتدحض حجتهم ولستوحي الصابر جزاء صبره ، ويستحق الشاكر ثواب شكره قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ (سورة الأنبياء) . وقال تعالى : ﴿ **أحسب الناس أن**

يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايُفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمّن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (سورة العنكبوت) .

النـــوع الثانـــي :

أما القدر الذي لايستطيع الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ولكن في إمكانه تخفيف حدته وتلطيق شدته فهو مايتصل بالغرائز والبيئة والوراثة ، وما الى ذلك ، فهو غالب إبتداء ، ولكنه مخير انتهاء .

توضيح ذلـــك : إن الله تعالى قدّر على الإنسان غريزة حفظ الذات . وهذه الغريزة جامحة طاغية عنيفة لو ألقى حبلها على غارِبها لاقتحمت بالإنسان مخاطر ومهالك ، ودفعته الى أن يطفر بكل ماتمكنه قوته من الظفر به غير مبال ولاحافل بســواه .

لم يفرض الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن ينتزع هذه الغريزة من جذورها ، أو يقتلعها من أصولها لأنها قدر غالب لاسبيل الى دفعه ، ولكنه أمره أن يكبح جماحها ويردها عن طغيانها ، وعلّمه كيف يخفف من حدة هذا القدر ، وكيف يلطف من جموحها قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلـوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾ (سورة النساء) ، وقال تعالى : ﴿ **إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾ (سورة النساء) ، قال أيضا : ﴿ **ياأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ (سورة البقرة) ، ومن هذه النصوص الحكيمة ترون أن الله حَضَّرَ على الإنسان أن يعتدي على حق غيره ، وأن يأكل مالم يكسبه من طريق طيب مباح ، وبذلك يخفف من حدة هذه الغريزة ، ويحد من طغيانها .

وهنا يشعر الإنسان بأنه حر مخير بين أن يستجيب لداعي الغريزة الجموح ، وأن يستجيب لأمر الله الحكيم الذي لم يكلفه إلا ماله به طاقة .

وقدر عليه سبحانه غريزة حفظ النوع ، وهي كذلك جامحة شرود طاغية ، فلو أرخى لها العنان لأصاب الرجل كل امرأة تروقه ، واستسلمت المرأة لكل رجل يحظي باعجابها ...

وكذلك لم يكلف الله الإنسان أن يجتث هذه الغريزة من عروقها ، لأن ذلك قدر غالب لاقبل للإنسان بمقاومته والخروج على أحكامه ، ولكنه تعالى كلفه المستطاع وهو الحد من طغيان هذه الغريزة ، وكبح جماحها ، وتدبير أمرها ، فحرم الزنا ، وحرم أنواعا من النساء تحريما مؤبدا وحرم أنواعا منهن تحريما مؤقتا وأباح سائرهن بشرط الإيجاب والقبول ، والمهر والشهود ، وإذن الولي وقد نصح الرسول ﷺ بما يكسر من حدة هذه الغريزة إذا طغت فقال : « **يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** » ونهى سبحانه وتعالى عن مخالطة الأشرار للتخلص من شرور البيئة فقال تعالى : ﴿ **وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزء بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا** ﴾ (سورة النساء) ، وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ، وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون** ﴾ (سورة الانعام) ، وقال ﷺ : « **مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء : كبائع المسك ، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك ، وأمّا أن تجد منه ريحا زكية** » (1) ، فنشأة الإنسان في بيئة خبيثة من القدر الغالب الذي لاسلطان له عليه ، وأما محاولة التخلص من شرها ففي وسعه ، ومن أجل ذلك كلفه الله تعالى إياها .

---

1) رواه البخاري ـ عن ابي موسى ـ صحيح .

ولكي يقاوم سلطان الوراثة غالب الناس يحرصون على اتباع ماوجدوا عليه آباءهم فقال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم أتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون** ﴾ (سورة البقرة) ، وقال في الأثر : « **إياكم وخضراء الدمن قالوا وماخضراء الدمن قال المرأة الحسناء في منبت السوء »(1)**،
فنرى من هذا أن أقدار الغرائز والبيئات والوراثات غالبة لاسلطان للإنسان عليها ، ولكنه يستطيع أن يصد طغيانها ويحد من سيئ آثارها وأن يلجمها بلجام الحكمة فتكون كلها خيرا نافعا .

النــــوع الثالـــــث :

أما النوع الثالث - وهي الأقدار التي أوجب الله تعالى على الإنسان أن يدفعها - فهي الأقدار المتصلة بالأعمال الإختيارية ، ومنها التكليف الشرعي ، وهذه الأقدار المخيرة ابتداء وغاية .

جاء رسول الله ﷺ قومه بالهدى ودين الحق فكذّبوه ورموه بما رموه به ، وحالوا دون نشر دعوته ، وإعلان كلمة الحق ، ولاجرم أن ذلك كله من قدر الله ، فماذا كان من أمره عليه الصلاة والسلام ؟ أتظنون أنه خضع لأحكام هذا القدر ، واستسلم لسلطانه ووقف أمام أعدائه مكتوف اليدين ؟ أتظنون أنه ترك حبل الدعوة على غاربها ، وقبع في كِسْر بيته انتظارا لما تأتي به الأقدار ؟ كلا بل قاوم ، وناضل وجاهد ، وقاتل وبذل كل مافي وسعه ، وأنفق جهد طاقته لينحي أعداء الحق من طريقه ، حتى أيده الله بنصره ، وذلك من قدر الله أيضا فها نحن أولا قد رأينا رسول الله ﷺ قد دفع قدرا بقدر ، ونحن في كل حين ندافع أقدارا بأقدار ...

فالجوع مثلا من القدر ونحن ندفعه بقدر الطعام ، والعطش من القدر ، ونحن ندفعه بقدر الشراب ، والمرض من القدر ، ونحن ندفعه بالدواء وهو من القدر أيضا ولو أن امرأ استسلم لقدر الجوع أو الظمأ مثلا وهو قادر على دفعه ، ثم مات مات عاصيا لله تعالى الذي نهاه عن أن

1) قال الدرقطني - لا يصح من وجه وفي المختصر - ضعيف قال في مقاصد - تفرد به الواقدي .

يلقي بنفسه الى التهلكة قال تعالى :﴿ **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا فإن الله يحب المحسنين** ﴾ (سورة البقرة) ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾ (سورة النساء) .

وقد أفصح رسول الله ﷺ عن هذا كل الإفصاح ، وأوضحه كل الإيضاح حين قيل له : « يارسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها ، وتقى نتقي بها أترد من قدر الله شيئا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام **هي من قدر الله** » (1) . فأنظر الى هذا الجواب الحكيم الذي يحفز الهمم الى العمل النافع ويهيب بالناس الى إتخاذ الأسباب والإمعان في الحذر . قال تعالى في الثناء على المؤمنين : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة والسيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ (سورة الرعد) ، وقال تعالى :﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ (سورة فصلت) ، فقد أخبرنا سبحانه وتعالى في الآية الأولى عن المؤمنين بأنهم يدرءون بالحسنة السيئة ، والسيئة من قدر الله ، والحسنة التي يدفعونها بها من قدر الله أيضا فهم يدفعون قدرا بقدر كما رأيتم ، وفي الآية الثانية يأمر الله سبحانه بالدفع بالتي هي أحسن . والتي هي أحسن هي الحالة أو الصفة الحسنة تدفع بها الحالة أو الصفة السيئة وكلتها من قدر الله سبحانه ، فهو يأمر أن تدفع القدر بالقدر ....

وقال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لاتظلمون** ﴾ (سورة الانقال) . فقد أمر الله تعالى بإعداد المستطاع من العدة ارهابا للعدو والمستطاع هو مايدخل في قدرة الإنسان وإختياره وكل هذا من باب دفع الاقدار بالأقدار وهو في وسع الإنسان وفي صميم إمكانه

1) أخرجه أحمد والترميذي والحاكم وابن ماجه ـ في سنده مجهول وباقي رجاله ثقات انظر ترجمة أبي حزامة في التهذيب وفي الباب عن حكيم بن حزام عند الحاكم وصححه ووافقه الذهبي

قال تعالى : ﴿ **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولاجناح عليكم إن كان بكم اذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا** ﴾ (سورة النساء) ، فلو لا أن اتخاذ الحذر مستطاع ، وفي الإمكان وفي مقدار الإنسان ما أمر الله العليم الحكيم به لأن الله لايكلف نفسا إلا وسعها كما قال تعالى : ﴿ **لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ (سورة البقرة) .

لاتتم مصالح إلا بمدافعة الاقدار

ومدافعة الاقدار على ضربين : أولهما مدافعة أقدار قد أنعقدت أسبابها ، ولما تقع بأقدار تدفعها وتحول دون وقوعها ، كمدافعة عدو مغير بالإعداد له . ثانيها : مدافعة أقدار قد وقعت بأقدار تدفعها أما القعود عن مدافعة الأقدار مع القدرة عليها فهي من العجز الآثم الذي نهينا عنه والذي كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله منه ، وكان يكثر أن يقول : « **اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل** » (1) ولقد صح أنه ﷺ قال : « **المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير** » (2) « **إحرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل لو إني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله ، وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان** » ومعنى هذا الحديث أن المؤمن القوي الذي يأخذ أموره بقوة وعزم وتبصر ، أحب الى الله من المؤمن العاجز المتواكل . أما الخير الذي يشتركان فيه ، فهو الإيمان ، ولكن المؤمن القوي ممتاز عند الله لأنه نافع لنفسه ووطنه وأمته .

ثم يحض الرسول ﷺ على النافع من الأمور مع الإستعانة بالله جل شأنه ، والتوجه إليه ، والإستعداد من فيض رحمته وفضله ، فإن الإنسان لايستغني عن قوة الله مهما بلغ من القوة والمعرفة ، ولاعن توفيقه ، وينهي الرسول ﷺ عن العجز ، وهو القعود عن العمل مع القدرة عليه كسلا وتهاونا ، فإذا خرج الأمر من يده أصبح في يد الأقدار التي لايمكن دفعها فالحرص على ماينفع هو مدافعة الأقدار بالأقدار ، لا ينبغي أن يحول الإيمان بالقدر بيننا وبين إتخاذ الحيطة والنظر في أعقاب الأمور بالحزم والحرص على الخير والعمل على الظفر به ، والفرار من الشر ، والعمل على النجاة منه وقد علم الله سبحانه وتعالى ضعف الإنسان أمام قوة الغرائز ، أو أثر البيئة ، أو الوراثة وعلم سبحانه أنها قد تطغى عليه فتورطه في الإثم أو

---

1) الحديث لاحمد في مسنده ومسلم والنسائي عن زيد بن ارقم - وهو صحيح -

2) رواه أحمد في مسنده . ومسلم وابن ماجه - عن ابي هريرة - حسن -

تعرضه لألوان من الفتون ، فاقتضت رحمته أن يمحو بالتوبة النصوح أثر هذا الطغيان ، وأمر بالتوبة ليمحو بها قدر المعصية التي دفع إليها قدر الغريزة ، أو البيئة أو الوراثة ...

فمن دفع قدر التوبة قدر المعصية ـ كما يدفع قدر الدواء قدر المرض ـ فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن لجّ في عتوه ونفوره ، فعلى نفسه جنى واياها أوبق ، وما ربك بظلام للعبيد ..

قدّر الله سبحانه أن الجد سبب الظفر في الدنيا ، وأن عمل الصالحات سبب الفوز بالنعيم في الآخرة ، فان قصرنا في العمل حاق بنا سوء تقصيرنا وكنا خلقاء باللوم والتثريب أحرياء بما أعد الله للمقصرين من الخيبة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، لاينبغي أن يحتج بالقدر إذا قصرنا في عمل كان في وسعنا أن نعمله فلم نعمله ، فحاق بنا مايستوجبه التقصير ، لأننا مأمورون أن نأخذ الحذر ، وأن نحتاط للأمر ماأستطعنا الى ذلك سبيلا ...

كل امرئ يدرك ادراكا تاما الفرق بين مايأتيه أو مايدعه طوعا واختيارا ، وما يصيبه وليس له فيه إختيار ومن أنكر ذلك فقد سفّه نفسه ، وأنكر عقله ، إننا نرى أن الإنسان إذا أخفق في الحصول على مطلب عاد باللائمة على نفسه ثم عاود الطلب بعد إحكام وسائله واتخاذ الأسباب التي يعتقد أنها كفيلة بأن تحقق أمله حتى يظفر بحاجته ، وإن رأى سبب إخفاقه منا فسة خصم اشتد غضبه عليه ، وإن أعتدى عليه معتمدٍ بالقول أو بالفعل لم يقف أمامه مكتوف اليدين متى كان قادرا على الإنتقام ، ومن العجيب أن القدر لايخطر بباله في كل هذه الأمور ، ولايخطر بباله إلا إذا اقترف سيئة ليحمل الأقدار تبعة ماجنى وجريرة ما اقترف .

ضلت أفهام المسلمين ولاسيا الصوفية ، فصاروا جبرية لايفكرون في جلب خير ولادفع ضر كأنهم بين أيدي الأقدار كالريشة في مهب الرياح ، فإذا وجهت إليهم عتابا أو ملاما أو نصحت لهم بأن يرجعوا الى الإسلام ويعملوا بالاسباب وأن يسلكوا سبل الخير أحتجوا بالقدر ، وحملوا الأقدار

تبعة ماجنوا من أوزار « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها أباءنا والله أمرنا بها » وهذا أقبح ماانتهى إليه جهل الجاهل وغفلة الغافل ، وحمق الأحمق وغباء الغبي .

إذا أغرى الشيطان الإنسان بالمنكر أو زيّن في قلبه القعود عن صالح العمل ، ولوّح له بالقدر يتخده تكأة يتكئ عليها ، وعذرا يعتذر به ، فعليه أن يدفعه بذكر الأمر والنهي ، وأن يقول له في حزم وتبصر ، إن الشريعة المطهرة ماأنزلها الله إلا ليسلح بها المكلفين ليدافعوا الأقدار ، وليعلمهم كيف يدفعونها بأقدار مثلها ، فمن شق أمواج الأقدار بسفينة الأمر والنهي وصل الى ساحل النجاة ، وسلم من المعاطب ونجا من الأخطار ...

لولا أن الإنسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتي ومايدع ، ولولا أن الطاعات في وسعه وفي قدرته مانزلت الشرائع ، ولاجاءت الأوامر والنواهي ، ولا أرسل الله الرسل ، ولاأنزل الكتب ، ولاأنذر ، ولابشر ولارغب ، ولاحذر ، ولاجعل جنة ونعيما ولانارا وجحيما ، لو كان الإنسان مجبرا على أعماله الإختيارية لبطل الثواب والعقاب ، والتأديب والتهذيب ، والنصح والأرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الخير والصد عن الشر ..

ومما لاشك فيه أن الإنسان يشعر بأنه تام الإختيار في فعل مايفعل ، وترك مايترك ، وكثيرا مايتردد بين عملين ، فيفكر ويتروى ، ويوازن بين نتائجهما حتى إذا تبين له فضل أحدهما على الآخر آثره ومضى فيه .

وقد أتفق المختلفون على أن هذه الأعمال تسمى أعمال الإنسان الإختيارية أي الصادرة عنه بمحض اختياره ، ولايماري في ذلك منهم أحد .

ولو نظرنا الى القرآن الكريم لوجدناه دالا كله على أن للإنسان اختيارا لايكاد القارئ ينشر المصحف على أية صفحة من صفحاته حتى يجد الآيات تنطق بأن للإنسان عملا أو فعلا أو كسبا ، أو سعيا وأنه مسؤول عن عمله

ويجزى به ، والشاهد والحس والبديهة كفيلة ببيان أن للإنسان عملا صادرا عن ذاته ...

فترى الطفل لأول عهده بالكتابة يحرك يده بالقلم فلا يكاد يقيم حرفا ، وكلما أزداد تدريبا جاد خطه ووضحت كتابته ، والصانع المبتدئ كثير الأخطاء وكلما مضى في الصناعة قلت أخطاؤه ...

والمبتدئ في تعلم الخطابة لايكاد يقيم لسانه ، فإذا أشتد إستقام لسانه بعض الشئ ، فإذا حذق الفن جاد بيانه وأنطلق لسانه ، ونرى من أنفسنا الخطأ والنسيان والضلال ، والخضوع لوسوسة الشيطان ، واقتراف الفحشاء والمنكر ، والبغي والظلم والعدوان وغير ذلك من المعاصي والآثام . ثم التوبة والإستغفار والندم مما لاتصح نسبته الى الله حقيقة ولامجازا ، ولايجوز عقلا ولاشرعا ولا أدباً ، ولاذوقا أن بنسب إلا الى فاعله المسؤول عنه المحاسب عليه المجزى به ..

قال الله عزوجل : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ (سورة النساء) ، هذه الآية أسند الله فيها الى العبد عمل السوء وظلم النفس والإستغفار ، وأسند الى نفسه المغفرة والرحمة فأسند الى الله ماأسند الى نفسه ، ولنسند الى العبد ماأسند الله إليه وليس علينا في ذلك جناح ولو تدبرنا القرآن كله لوجدناه على هذه الشاكلة . فلِمَ يقولون يخلق العبد أفعال نفسه ، ثم يختلفون ؟ أما إنهم لو قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ **يفعل أو يعمل أو يكسب أو يقترف ماأختلفوا ، وإذا كانوا جميعا متفقين على أن أعمال العباد اختيارية قدرها الله أن تكون لهم فما بالهم يحاولون نسبتها الى الله تعالى .**

أمــر اللــه :

رجل تنكب طريق الحق ، وحاد عن الرشد ، وضل عن قصد السبيل ، فما يكون جوابه إلا أن يقول ـ هذا أمر الله ـ وهذا كذب على الله ، وافتراء عليه والله تعالى يقول : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين**

كـــذبـوا على الله وجـوههم مسـودة أليس في جهنم مثـوى للمتكبرين ﴾ (سورة الزمر) ، أجل كذب على الله وافتراء عليـه ، وقـد رد الله على أمثال هـذا المفتري بقولـه تعـالى : ﴿ **واذا فعلوا فـاحشـة قـالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقـولـون على الله مـالاتعلمـون ؟** ﴾ (سـورة الاعراف) ، صـدق الله العظيم ، فمرتكب الخطيئة لايرتكبها بـأمر الله ولكن بـأمر الشيطـان الـذي يعـد بـالفقر ويـأمر بـالفحشـاء كما قـال الله : ﴿ **الشيطـان يعـدكم الفقر ويـأمركم بـالفحشـاء ، والله يعـدكم مغفرة منـه وفضلا والله واسع عليم** ﴾ (سورة البقرة) ...

إرادة اللـــــه :

قد يلوم أحدكم بعض من يقترفون المنكر فيدفع عن نفسه بقولـه : هـذه إرادة الله .... أجل هـذه إرادة الله ، ولكن الله يكره من عبـاده أن يعملوا الشر ، وإن وقـع بـإرادتـه ، إذ لايقـع في ملكـه إلا مـايشـاء ، وليس معنى المشيئـة أنـه يحب ذلـك الشر بـل معنـاه : أن الشر لايقـع على الرغم منـه ـ وحاشا له وإرادة الله تعالى لاترغم العبد على فعل الشر ، ولو أن العبـد فعل الخير بدل الشر لكان فعل الخير بارادته سبحانه ـ أيضا .

فـالله سبحـانـه بعـد أن أنـزل الكتب ، وأرسـل الرسـل ، وبين الحـلال والحرام ، وأخبر بما أعد للمطيعين ، وما أعد للعصـاة المـارقين ، ترك العبـاد لاختيـارهم كما قـال تعـالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فاليكفر إنا أعتدنا للظـالمين نـارا أحـاط بهـا سرادقهـا ، وان يستغيثوا يغـاثوا بمـاء كالمهل يشـوى الـوجـوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ، إن الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات إنـا لانضيع أجر من أحسن عمـلا أولئـك لهم جنـات عــدن تجري من تحتهـا الأنهـار يحلون فيهـا من أسـاور من ذهب ويلبسون ثيـابًـا خضرا من سنـدس واستبرق متكئين فيهـا على الأرائـــك نعم الثــواب وحسـنت مرتفقا** ﴾ (سورة الكهف) .

ترك الله العباد لاختيارهم ، وان كان يحب منهم أن يأتوا الطاعات ، ويكره أن ياتوا المعاصي . فالطاعة والمعاصي تقع من العبد بإرادة الله ومشيئته أي بغير أن يكون مكرها على وقوعها كما أن مشيئته تعالى لم نكره العبد على المعصية التي تقع منه .

دفـــع اعتـــراض

فـإذا سـأل سـائل عن قولـه عـز وجـل : ﴿ **فلم تقتلـوهم ولكن الله قتلهم ، ومـارميت اذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ والحس والمشـاهـدة قـاضيـان بـأن المسلمين هم الـذين قتلـوا كفـار قريش يـوم بـدر ، وبـأن النبي ﷺ هو الـذي رمى قبضـة التراب التي أصـابت أعين المشركين وكانت سببا في هزيمتهم ، ولكن الآية تسند القتل والرمي الى الله ، أفليس في هذا الدليل على أن العبد لاعمل له ، وأن العمل لله وحده وهذه هي الحيرة دفع هذا الإعراض وهذه الآيـة الكريمـة وردت في سورة الأنفـال في معرض نهي المسلمين عن التولي يوم الزحف ، فقد جاء قبلها قول الله تعالى : ﴿ **يـأيهـا الـذين آمنوا إذا لقيتم الـذين كفروا زحفـا فلا تولـوهم الأدبـار ، ومن يولهم يـومئـذ دبره إلا متحرفـا لقتـال أو متحيزا الى فئـة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ .

فكأن الله يقـول للمـؤمنين : مـاالـذي يحملكم على الفرار أو يـدفعكم الى تولية الأدبار ، والله قـد كفل تـأييـدكم ونصركم ، فـاذكروا يوم بـدر ، وقـد كنتم قلـة لاتقـومـون لكثرة المشركين ، ولكن الله أمكنكم منهم حتى قتلتم سبعين رجلا وإن قوتكم الطبيعية لاتتيح لكم هذا النصر ، ولاتمكنكم من هذا القتل ، فـالله ربـط على قلوبكم ، وثبّت أقـدامكم حتى أظفركم بهم ، وأظهركم عليهم ، فلم تقتلـوهم بقـوتكم ولكن الله قتلهم بمـا خـولكم من أسبـاب النصر والغلب التي لم تكن لتتـاح لكم ، ثم يلتفت الى خطـاب رسـول الله ﷺ فيقول له ، وحين ألقيت كفا من التراب في وجوه المشركين فأصـاب التراب أعينهم جميعا لم تكن لتدرك ذلـك بقوتـك الطبيعيـة ، ولكن الله تعـالى هو الذي كثّر ذلك التراب بمحض قدرته ، وأوصله الى أعينهم حتى تقلوا بها عن الإلتفات لمن يقاتلهم .

فإن كان النبي ﷺ قد رمى التراب فإنه لم يكن بوسعـه أن يوصلـه الى أعينهم جميعـا ، فـذلـك من فضل الله وحـده ، كما ألقى موسى عليـه السلام العصى فكانت حية تسعى ، فإلقاء العصى عمل موسى ولكن قلبها حيـة عمل

الله تعالى وحده ، وكذلك إلقاء التراب عمل النبي ، ولكن توصيله الى أعين المشركين على الرغم من بعـــدهم عن مكان الرمي ، وكثرتهم ، واختلاف اتجاههم هو عمل الله تعالى ، ولذلك صح أن يسند الرمي الى النبي وينفى عنه أثره ، ويسند الى رب العزة .

هذا هو نظام القرآن الكريم ، وهذه بلاغته ، وهي كما ترون فوق النزعات والأهواء الجدلية ، ووراء الفرق والمذاهـــب ...

تفسير قوله عز وجــل :

﴿ **قل كل من عند الله** ﴾ وقوله : ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ ذلك أن المنافقين والكافرين الذين كانوا بالمدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ إليها كانوا إذا أصابتهم حسنة : من نزول غيث ، ونماء زرع ، وجودة حاصل قالوا : هذه من عند الله زاعمين أن الله تعالى ماأنعم عليهم إلا لكرامتهم عليه ومنزلتهم عنده . وإذا أصابتهم شدة من احتباس المطر ، أو جفاف زرع قالوا هذه من عندك يامحمد ، أي إنهم كانوا يتشاءمون بقدومه ، ويتطيرون بدعوته ، فرد الله عليهم مقالتهم الخاطئة الآثمة ، وقال تعالى مخاطبا نبيه الكريم : ﴿ **قل كل من عند الله فماهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا** ﴾ أي : أن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله لوقوعها في ملكه على حسب ماوضع من النواميس والسنن ، ومن الأسباب وارتباطها بمسبباتها ، وإن هؤلاء القوم مأتوا إلا من سوء فهمهم وقلة فقههم لما يقولون وما يسمعون : ولو أنهم كانوا على شيٍ من الفهم والفقـــه لردّوا كل شيٍ الى سببـــه القريب أي الى واضع السنن ومسبب الأسباب سبحانه وتعالى ولعلموا أن السيئة لم تقع بشؤم ، ولا بتأثير دعوة ولا بظهور دين .

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الأمر في الحسنة والسيئة بالنسبة الى موضعها وقوانين الوجود ، وسنن الله تعالى فيها ، وأوضع تعالى أن كل شيء مما يحسن وقعه عند الناس أو يسوؤهم بهذا الإعتبار يضاف الى رب العزة ، لأنه مسبب الأسباب ، وواضع النواميس والسنن أراد سبحانـه أن يبين حقيقة الأمر فيها من وجه آخر فقال : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن**

الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ ومعنى هذا : أن كل حسنة تصيب العبد من صحة وعافية ورزق ، واعتدال زمان ، وخصب أرض ، ونزول غيث وغير ذلك مما يحسن عنده وقعه ، فهي من فضل الله عليه . فهو الذي سخر له المنافع التي بها حياته ، وحياة ماينتفع به من حيوان ونبات وهو الذي أرشده بما وهبه من أنواع الهدايات ، بما أنزل عليه من الشرائع والآيات البينات الى سبيل الإنتفاع بهذه الموجودات . وقد مكن الله الإنسان من ناصية الوجود ، ووهبه العقل والقوى مايكفيه من توفير أسباب السعادة ، والبعد عن مزالق الشقاء ، وهذه النعم مصدرها المواهب الإلهية فهي من الله تعالى .

وكل سيئة تصيب العبد فهي من نفسه لأنه أوتي قدرة على العمل ، واختيارا في التقدير الباعث عليه ، من دفع المضار ، وجلب المنافع .

فإذا أساء العبد التصرف في عمله ، وأهمل العقل وإنصراف عن سر ماأودع الله في سننه ، واتبع الهوى ومال مع الشهوات جلب الشر على نفسه لأن ربه وهبه هبات ليصرفها فيما ينفعه ، فوجهها بسوء أختياره الى مايضره ، فحق أن ينسب اليه ماجنى على نفسه ، ويقال له : ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ ..

وهنا حقيقتان متفقتان ينبغي تدبرهما وفقهما :

الأولى : أن كل شيء من عند الله بمعنى أنه خالق الأشياء ، وواضع النظام والسنن ، ومسبب الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وهذا كله بسعي الإنسان واختياره لأنه مظهر الحكمة إلالهي ...

الثانية : ان الإنسان لايقع في شيء يسوؤه إلا بتقصيره في استبانة الأسباب وتعرف السبب والأحكام فإذا قصر الإنسان في العلم وأساء الإختيار في استعمال قواه في غير مايقتضيه نظام الفطرة وقع فيما يسوؤه وكان على نفسه جانيا ﴿ **وكذلك يُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أفلا يدل على أن الهدى والضلال بيد الله تعالى ، وليس للعبد فيما كسب ولاعمل ؟ ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله تعالى حكيم ، والحكيم يضع

الأشياء في مواضعها ، ولايشاء إلا ماتقتضيه الحكمة قال تعالى : ﴿ **إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾ (سورة الليل) . فدل سبحانه بهذا القول الحكيم على أن أعمال العباد مختلفة وعلى أنها مقدمات تفضي الى نتائجها ، وأسباب تؤدي الى مسبباتها فمن أعطى واتقى وصدق للحسنى سييسره الله الحسنى : وذلك هو الذي يشاء الله أن يهديه ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، وذلك هو الله الذي يشاء أن يضله وهذا اختيار من جانب العبد ، واتجاه وعمل ، ومن فضل الله ورحمته أن الذي يختار الخير ويتجه إليه يعينه الله عليه ، وييسره له كما قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ (سورة محمد) ، وكما قال أيضا : ﴿ **ويزيد الله الذين أهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا مَرَدًّا** ﴾ (سورة مريم) ..

وأما الذين يختارون الشر ، ويتجهون إليه ، فإن الله تعالى يوليهم ماتولوا ، ويتركهم ومأأختاروا لأنفسهم كما قال تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾ (سورة النساء) ، وهذا معنى إضلالهم فمن حيث أن الله سبحانه دعاهم الى الطريق الخير وسبيل الهداية على لسان رسله ، وفي كتبه المنزلة بعد أن منحهم من أنواع الهدايات مافيه بلاغ فأبوا أن يستجيبوا لداعي الحق ، واستكبروا أن يسلكوا سبل الرشد ، فلا جرم أن الله يتركهم ومأأختاروا لأنفسهم فلا يأتي إضلالهم إلا من بعد أن أتجهوا الى الشر وإعراضهم عن الخير قال تعالى : ﴿ **ومايضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ (سورة البقرة) ، إن الذين وقع عليهم الإضلال هم الموصوفون بما ذكر ، فالإضلال قد وقع على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ،

ويفسدون في الأرض ، فهو نتيجة مترتبة على مقدمات أتوا بها ، ومسبب عن أسباب وهو ليس إلا تركهم يسيرون في الطريق الذي أختاروا سلوكه ، ولو وقع الضلال على الصالحين يصلون ماأمر به أن يوصل ، ويصلحون في الأرض لقلنا أن الله أرغمهم على الضلال وحاشا الله ...

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ (سورة الاسراء) .

وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها وماله في الآخرة من نصيب** ﴾ (سورة الشورى) ، وقال تعالى : ﴿ **أفرأيتم ماتحرثون آنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم إنا لمغرومون بل نحن محرومون**﴾ في هذه النصوص الحكيمة أكبر العبرة لمن شاء أن يعتبر ، فقد بيّن سبحانه وتعالى أنه يعطي العبد مايسعى للحصول عليه والظفر به ، فمن سعى الى الدنيا أعطاه منها ، ومن سعى الى الآخرة شكر الله سعيه .

وقد أسند رب العزة الى العبد إرادة وسعيا كما أسند إليه الحرث وأسند الى نفسه الزرع ، فالحرث مايقوم به العباد من حرث الأرض وتهيئتها وإعدادها ، وبذر الحب ، وإفاضة الماء ، وتعهد النبات بالعزق والتسميد وما الى ذلك .

والزرع : إخراج النبات من الحب ، وهو الأمر الذي لايدخل في طوق البشر ، ولا يستطيعون إليه سبيلا ، ولايقدر عليه إلا رب العالمين سبحانه .

وعلى ذكر الحرث والزرع ، أرأيتم إنسانا بذر بُرًّا فنبت له شعيرا ، أو غرس نخلا فنبت له دوما ، أو بذر حنظلا فنبت له موزا .

وكذلك الشأن في المعنويات ، فمن أتجه الى الخير وأخذ بأسبابه هيأه

الله لـه ، ومن اتجـه الى الشر وتعلق بوسـائلـه : ولاّه الله مـاتـولى ، وتركـه ومـاأختـار كما أن من حرث التبن زرع الله لـه التبن ، ومن حرث الشـوك زرع الله له الشوك ، وكل يجني ماغرست يداه ، ولايظلم ربك أحـدا .

التوفيـــق والـــخذلان :

جـاء في القرآن الكريم قولـه تعـالى حكايـة عن شعيب عليـه السـلام : ﴿ **وما توفقي إلا بـالله عليـه توكلت واليـه أنيب** ﴾ (سورة هود) ، ونسمع يـدعون لبعضهم بعضـا وفقـك الله ، أو كتب لـك التوفيـق ، أو أدام الله توفيقك ، وأمثال هذه الدعوات . فما معنى هذا التوفيق ؟ إن العبد مهما يُؤْتَ من العلم والفطنة والذكاء والمعرفة ومهما تواته التجـارب والإختبـارات فإن وراء علمه علما لاحد له ولاغـايـة ، ذلـك هو علم الله الـذي إذا قيسـت جميع علوم البشر ومعـارفهم وتجـاربهم إليـه كانت هبـاء ، بـل لم تكن شيئـا مـذكـورا قـال تعـالى : ﴿ **ومـا أوتيتم من العلم إلا قليـلا** ﴾ (سـورة الاسراء) ، وقـال أيضـا : ﴿ **يعلم مـا بين أيـديهم ومـاخلفهم ولايحيطـون بشيء من علمـه إلا بما شـاء وسـع كرسيـه السمـوات والأرض ولايؤوده حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ (سورة البقرة) ، قال تعـالى :﴿ **إن الله لايخفى عليـه شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾ (سورة آل عمران) . إذا علم الإنسان قاصر منقوص مهما يتسع أفقه ، ولقصور علمـه يتمنى أمرا تكـون فيـة أمنيتـه ، وقـد ينفر من شيء يكـون لـه فيـه كل الخير ...

قـال تعـالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئـا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبـوا شيئـا وهـو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمـون** ﴾ (سورة البقرة) ، وقـال أيضـا : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئـا ويجعـل الله فيه خيرا كثيرا**﴾ (سورة النساء) ، وإذا تقرر هذا قلت إن التوفيق عنايـة خاصة يتولاها رب العزة لبعض عباده فضلا منه ونعمة فيجعل أعمـال هـذا العبد ومساعيه موافقه لأسباب ظفره بالخير الذي يجهل طرقه ..

فإذا تفضل العليم الحكيم سبحانه على عبده بهذه العنايـة فـإنـه يهيء لـه وسائل النجاح وإصابة الخير ، مالايبلغه بعلمه ، ولابارادتـه ، ولابقـدرتـه ،

ولابكسبه ولابتجاربه أي أنه تعالى يمنحه قوة مافي مقدوره مايكون سببا في بلوغه الى الخير ..

قال تعالى : ﴿ **وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليمَ حكيم** ﴾ (سورة الحجرات) ، والله عليم بمن يصلح اهذا الفضل ، ومن لايصلح له ...

أما الخذلان فهو أن يترك العبد لاجتهاده ومامنحه من المواهب العامة ، فلا يمنحه شيئا من العناية التي يمنحها ممن كتب لهم التوفيق ، والله سبحانه لايظلم العبد بذلك شيئا.

هذا والتقوى والصدق والتوكل على الله تعالى مع إتخاذ الأسباب ، والتعرض لنفحات الله تعالى من أعظم أسباب التوفيق قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ آمره قد جعل الله لكل شيء قدرا** ﴾ (سورة الطلاق) .

كلمة جامعة :

أجاب سيدنا علي كرم الله وجهه حين سئل : أكان مسيرنا الى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ فقال للسائل : « **ويحك ، لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حاتما ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد .. إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا وكلّف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يُعصى مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتاب للناس عبثا ، ولاخلق السموات والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** » .

إصلاح المجتمعات الإسلامية الحالية من الإنحراف والفساد عن طريق الدين

من أمعن النظر في حياة المسلمين وجدها بحاجة ماسة الى إصلاح جذري يشمل حياتهم كلها الفردية والجماعية الحكومة والدستور، والمناهج والبرامج، بل في كل شأن من شؤونهم، ويتغلغل في صميم أمورهم عن طريق الدين والأخلاق، لأنهم انحرفوا انحرافا شنيعا عن الإسلام والأخلاق الفاضلة قلَّ من تراه متمسكا بهما ...

فشباب المسلمين غالبهم في الحانات والمواخر مع الفتيات يتعاطون الفحش والعهر علانية، وعلى مسمع ومرأى من الحكومة، والآباء لايحركون ساكنا، بل الحكومة هي التي تنظم السياحة في القرى والأرياف للذكور والإناث يبيت بعضهم مع بعض، وهي التي تأمر باختلاط الجنسين مع المراهقين في التعليم وغيره كالمستشفيات والعامل ومكاتب الموظفين يرتكبون الموبقات والجرائم، ويتركون واجباتهم العملية، والويل لمن أنكر عليهم يتهم بالرجعية وعدم الذوق، فأصبحت نساء المسلمين خارجات عن آداب الإسلام، وعن الحياء الشرعي، مستخفات بأوامره، فياله من منكر عظيم وشر مستطير أصاب المسلمين، بناتهم ،أبنائهم يتعرضون للفتنة والفساد الكبير، وقد أستوى في هذه الحالة الأمير والمأمور، والملك والوزير، والغني والفقير، والكبير والصغير، فلا الصغير يخاف من الكبير، ولا الكبير يستحي من الصغير ففحش وجور وظلم وقمار ولهو، وخمر وفسوق، وتهور وسفور وتبرج منكر، وخيانة وزور، وجهل وغرور، ونعم تصرف في المعاصي والفجور ﴿ **آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور** ﴾ فلا يخافون من الله ولا من الناس يستخفون، ولا من أنفسهم ينصفون تالله إنهم لمسرفون، وعن الحق يعزفون، وعن الصراط لناكبون، وفي طريق الضلالة يتيهون، فالله المستعان على مايصفون، ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وماللظالمين من أنصار** ﴾ (سورة الاعراف).

المسلمون اليوم عن الحق معرضون ، وفي الباطل يخوضون ، ولصرح الإسلام ينقضون ، وفي طريق الفساد يركضون وبالملاهي يفرحون .

أين الصالح من الفاسد في هذه المجتمعات والعابد من الفاسق ، والطامع من الزاهد ، أين المساجد من الملاهي ودور السينما ، أين المعابد من بيوت الدعارة والحانات أين الصائم القائم المجاهد من الطامع الكاسي الراقد .

لهذا يجب إصلاح المجتمع الإسلامي عن طريق الدين الحنيف والأخلاق الإسلامية لأنها هي العنصر الفعال في إصلاح الشعوب والأمم في جميع الإتجاهات ، وهي الزاد والمجد للوصول الى الغاية المنشودة ، وفقدانها يجر حتما الى الفشل والإندحار ، ويدفع الأفراد والجماعات الى الهلاك والدمار ، وضعف المسلمين الحالي سببه الإنحطاط الملقى عليهم الأخلاق الإسلامية تدعوا الى التعاون والتراحم ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

المؤمن يتحلى بكل فضيلة . وينفر من كل رذيلة ، وتأباها له همة عالية ، وآداب سامية ، وآمال أعمال صالحة متوالية يحبها الله منه ويرضاها ، المؤمن تمنعه ديانته عن إرتكاب الذنوب والمعاصي ، وتحجزه مروءته عن العيوب . وليس من الدين أن توحدوا الله - أيها المسلمون - بألسنتكم وأنتم بدينه متساهلون ، ولأحكامه مهملون ، وعن الوعد والوعيد ذاهلون تحللون وتحرمون ماتشاؤون ، وليس من الإيمان أن تتظاهروا بالخير فيما تقولون ، وأنتم تنشرون الشر فيما تفعلون .

لو أصلح المسلمون مابأنفسهم ، واعتصموا بحبل الله جميعا كما أمروا وأصلحوا ذات بينهم لعادوا الى ماكانوا عليه من المجد والعظمة أيام تمسكهم بتعاليم دينهم ، ولو أنهم احتكموا في خصوماتهم الى كتاب الله وسنة رسوله ، ومااستنبط العلماء للمسلمين في مهمات الحوادث لما أختلفوا ، ولو أنهم نشروا العلم الديني ، والإصلاح الحقيقي في أوطانهم لما اختلفوا ، قال الله سبحانه وتعالى :﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ أيها المؤمنون أين ماوعدكم الله به من العزة ؟؟

أتشكون في وعد الله ؟ والله لايخلف الميعاد ، المسلم يعبد ربه بظاهره

وباطنه وقلبه ، يجاهد في سبيل الله بسيفه ، وقلمه ، ولسانه ، لإعلاء كلمة الله ، وينفق في الخير ماله إبتغاء وجه ربه الأعلى أن يعمل لله ، أو يتكلم بالحق وإن أضر نفسه فعال منفاق مصداق ..

المسلمون في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، كلمتهم واحدة ، ومهمتهم واحدة ، وجهادهم لله وقتالهم في سبيل الله ، من أفتقر أعانوه ، ومن حضر عدّوه ، ومن غاب إفتقدوه ، ومن مات شيعوه ، ومن مرض عادوه ، وبالدين الصحيح تكون سعادة المسلمين ، وحين تفرقوا شيعا وأحزابا ، وأختلفوا مذاهب ونحلا ، وتبينوا أهواء وسبلا ، وملأوا المجالس جدلا ذهب سلطانهم ، وضعف كيانهم ، وصغر شأنهم ، وتداعت عليهم الأمم ، وكذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ...

اليوم الذي تخلى فيه العالم الإسلامي عن الدين والأخلاق تخلت عنه السعادة ، وتاهت به الحياة في مجال القلق ومتاهات الحيرة ، ومجالات الشك والإضطراب .

الفقر الحقيقي ليس هو فقر المال ولا الأوراق ، وإنما هو فقر الكرامة والأخلاق ، فقر الإنسانية ، فقر الصفات والشمائل والمحامد والعلـــم .

أزمة المسلمين ليست أزمة الإقتصاد والسياسة والمال ، الأزمة في الواقع أزمة الرجال ، أزمة الضمير ، أزمة الخلق ، أزمة الدين ، أزمة الوعي والنضج والرشد ، أزمة الأخلاق ، أزمة العقيدة ، أزمة المثل العليا ، أزمة المبادي والقيم ، والمعالي والمفاهيم ، أزمة الأمانة والواجب والتضحية ، أزمة الضمير والإيمان ، فهذه الأزمات كلها ناشئة عن عدم اهتمام المسلمين بأمور الدين وجهلهم بـــه ..

الإسلام جاء ليجمع القلب إلى القلب ويضم الصف الى الصف ، جاء ليكون مجتمعا راقيا نقيا من عوامل الفرقة والضعف المعنوي والمادي ، وأسباب الفشل والهزيمة حتى يصل الى المقاصد السامية ، والأهداف النبيلة ، التي جاءت بها رسالة سيدنا محمد ﷺ من عبادة لله ، واعلاء

كلمته ، واقامة الحق ونشر العدل وفعل الخير ، والجهاد من أجل استقرار مبادئ الإسلام التي يعيش الناس في ظلها آمنين مطمئنين .

جاء الإسلام ليربط المسلمين برباط الأخوة التي لاتنفصم عراها ، بحيث تزول أمامها جميع الفوارق من نسب ومال وجاه الى غير ذلك مما درج عليه الناس من المميزات ﴿ **إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ هذا الإخاء يستلزم تبعيات وحقوقا ، فليس هو إخاء عقيما لاثمرة له ...

أوجب الإسلام على المسلمين أن يحترموا بعضهم بعضا وأن يحافظ كل فرد على كرامة أخيه من أن يعيبه أو يحط من قدره ، أو يطعن في شخصيته ، أو يلقبه بلقب يكرهه ، فهذه السيآت تقطع الصلة ، وتمزق روابط المودة ، وتزرع البغضاء في القلوب ، وتنشر العداوة في النفوس .

أمر الإسلام المسلمين بالتواضع وخفض الجناح ولين الجانب ، فالمسلم لا يتكبر ، ولا يختال ، ولا يزهو بنفسه ، قال تعالى في حق المتكبرين : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا** ﴾ وقد جاء في الحديث الشريف « **إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد.**» (1) ...

الإسلام يهتم بتعاون المسلمين فيا بينهم حتى يتحدوا لتقوى جماعتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « **يا بني إذا أصبحت وأمسيت وليس في قلبك غش لأحد فأفعل فإن ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة** » .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** » (2) هذا الحديث الشريف ينبه المسلمين من

---

1) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن عياض بن حمار - حسن -

2) قال المختصر - ضعيف - اسناده واه جدا والمعنى صحيح

غفلتهم ويحثهم على أن يقوموا بواجباتهم نحو بعضهم بعضا ، لأن كل واحد منا عليه واجبات وحقوق ، ومسؤوليات نحو المجتمع . فإصلاح المجتمع متوقف على اصلاح الفرد ، فإذا كان الفرد شاعراً بواجباته الكثيرة نحو ربه الذي خلقه وأغدق عليه من نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، وخافه في السر والعلن ، واستحضر عظمته في ضميره ، وخشيته في قلبه ، فيصبح هذا الفرد لا يتعدى ما أمر الله به ، ولا يتجاوز ما نهاه عنه ، فيسير في طريق الصواب التي لا أعوجاج فيها ، فيصير إنسانا كاملا فيؤدي رسالته التي خلق من أجلها ، الا وهي فعل الخير في هذه الدنيا ، فيعمل بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « **المسلم من سلم الناس من لسانه ويده** » (1) ...

العلم هو السبيل الوحيد إلى بناء العقيدة الصحيحة ، وهو السبيل الى هداية الإنسان وسعادته ، ولهذا رفع الإسلام من شأنه ، ونوه بمكانته ، وحث الناس على اعتناقه ، وقد مثله بالنور ، ومثل الجهل بالظلمات قال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ .

ولقد وجه الإسلام الناس إلى أخذ الأحكام عن العلماء فقال عز وجل : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ والعلم في نظر الإسلام حق مشترك بين الناس ، وقد ألزم العالم أن يعلم غيره من الناس ، وجعل كاتم العلم ملعونا كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **من كتم علما ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة** » (2) وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ .

---

1) مختصر صحيح مسلم ـ عن عبد الله بن عمرو في كتاب الايمان

2) رواه ابن عدى في « الكامل » عن ابن مسعود ـ صحيح ـ

ليس العلم أن تعرف الطهارة والصلاة والحج والزكاة والصيام فحسب بل يجب أن تتعلم معرفة الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ، والحلال من الحرام ، وليس القصد من التعلم أن تحمل الشهادة من التعليم السلايكي ، ولكنه ذلك ، وأن تحمل أيضا شهادة الدين والأخلاق لتترك الالحاد والإباحة .

إن التهاون في القيام بالواجب سمه من لا خلاق لهم ، وان الله العلي القدير حكم حكما جازما بأن التهاونين فيما كلفوا به من تطبيق الإسلام مكذبون ، ولهم الويل في الدنيا ، والندامة والحسرة والخزي يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فهل يليق بنا - معاشر المسلمين - أن نقطع الصلة بيننا وبين تعاليم الإسلام ، أو نحصرها في طائفة معينة من الناس ؟ أننتظر مرشدا غير القرآن الكريم ؟ أم هاديا غير محمد ﷺ ؟ استولت علينا الأهواء فأنستنا ما أوجب علينا الإيمان ، أم طبعت النفوس على الشر فضلت سواء السبيل ، أم صار على القلوب اقفال ، عجبا يأمرنا ربنا بالتعاون على البر والتقوى ، ونحن نتعاون على الإثم والعدوان .

كان المجتمع الإسلامي فيما مضى تنظره شعوب الدنيا بعين الإجلال والإكبار ، فما لنا ونحن لم نكن كما كنا من قبل إلا اننا غيرنا ما بأنفسنا ، فتغيرت أخلاقنا ، وتباعدنا عن صالح العادات وجميل السجايا . يجب على المسلمين أن يحاربوا الشهوات التي تزين لهم مخالفة الدين والعقل ، ويبتعدوا عن الأرواح الخبيثة التي حذرهم منها القرآن كالنفس الأمارة بالسوء ، ووساوس شياطين الإنس والجن حتى ترجع نفوسهم الى طريق الحق والصواب ، فالمسلم يجب أن يلازم الاستقامة في الأقوال والأفعال ، ويأخذ نفسه بالوفاء بالعهد ، وصدق العزيمة وعدم مجاراة السفهاء ، لهذا كان المسلمون : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ (سورة آل عمران) .

فما بال المسلمين اليوم يتجهون إلى التمرد على الله وإلى قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووصل ما أمر الله به أن يقطع ، فما من شر في الأرض ،

ولا فساد في الوجود إلا ولهم به صلة ، فزين لهم الشياطين سوء أعمالهم وحسنوا لهم الكفر والمعاصي ، ودعوهم إلى تكذيب الله ورسوله ومخالفة أوامرهما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قدسي : « **إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وانهم قد أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا** » .

الشياطين هي التي دعت الناس إلى تحريف الدين والخروج عن الفطرة إلى الشرك بالله ، وحرمت عليهم الحلال وأحلت لهم الحرام ، ولا تزال تقعد لهم بكل سبيل حتى تصدهم عن طاعة الله .

الشيطان هو الذي قام بدور رئيسي في القضاء على دعوة الاسلام في أول مشاورة له مع كفار قريش قال تعالى : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما ترآت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم اني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

رسالة الاسلام قائمة لهدفين رئيسيين :

أولهما : تصحيح العقيدة من جميع الشوائب ، وذلك بالعدل مع الله الذي خلق وأنعم وسوى وهدى ، ورزق فأعطى ، وليس من العدل الإشراك في عبادة الله والتقصير في طاعته .

ثانيهما : أن يأخذ المسلم نفسه بالعدل في جميع تصرفاتها ، ويلزمها طريق الإنصاف مع الناس فلا يأخذ من الحياة إلا ما كان عادلا ، وعندما يفقد الإنسان العدل مع نفسه يفقد الطريق المستقيم للحياة الصحيحة .

دعا الإسلام إلى العدل في الأخذ والعطاء في الجور والإخاء ، وأوجب العدل في الحكم والقضاء .

بيان جملة من أنواع الشرك

هذه الجمل تأتي على ألسنة الناس من غير أن يعلموا أنها شرك ، فتحبط أعمالهم ، ويخلدون في أعظم العذاب وأشد العقاب ، ومعرفة ذلك واجبه ، وقد قال بعض الأئمة : أن الردة تحبط الأعمال ، وتبين منه زوجته ، المرتد عن دينه هو الكافر بعد إسلامه ، فمن أشرك بالله ، أو جحد ربوبيته ، أو صفة من صفاته ، أو بعض كتبه ، أو رسله أو سب الله إلى غير ذلك مما تذكره كتب الردة تشمل أنواعا من اعتقاد وقول وفعل واستهزاء .

فيتعين على كل مسلم أن يعرف القول أو الفعل الذي يؤدي إلى الكفر حتى يجتنبه ولا يقع فيه فيحبط عمله ، ويلزمه قضاؤه ، وتبين زوجته عند هؤلاء الأئمة ، والشافعي رضي الله عنه يقول إنّ الردة إذا لم تحبط العمل لكنها تحبط ثوابه ، فلم يبق الخلاف بينه وبين غيره إلا في القضاء فقط ، فمن أنواع الكفر والشرك أن يعزم الإنسان عليه في زمن بعيد أو قريب ، أو يعلقه باللسان أو القلب على شيء ، فيكفر حالا ، أو يعتقد ما يوجبه أو يفعل أو يتلفظ بما يدل عليه ، سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد ، أو استهزاء ، كأن يعتقد قدم العالم ولو بالنوع ، أو نفي ما هو ثابت لله تعالى بالاجماع المعلوم من الدين بالضرورة كانكار أصل علمه أو قدرته ، أو كونه يعلم الجزء أو اثبات ما هو منفي عنه ، وكذلك اللون ، أو أنه متصل بالعالم أو خارج عنه ...

وكل من فعل فعلا أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر ، وان كان مصرحا بالاسلام كالمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير ، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن ، أو علم شرعي ، أو فيها اسم الله تعالى ، بل أو اسم نبي أو ملك في نجاسة ، أو قذر ظاهر كمني أو مخاط ، أو بصاق أو يلطخ مسجدا بنجس ، أو يشك في نبوة نبي ، أو في إنزال كتاب كالتوراة ، والإنجيل أو زبور داود ، وصحف إبراهيم ﷺ ، أو في آية من القرآن مجمع عليها ، وفي تكفير من يضلل الأمة ، أو تكفير الصحابة رضوان الله عليهم ، أو ينكر مكة ، أو الكعبة ، أو المسجد الحرام ، أو ينفي صفة

الحج أو هيئته المعروفة ، وكذلك الصلاة والصوم ، أو كصلاة العيـدين ، أو استحل محرمـا كصلاة بغير وضوء ، وكايـذاء مسلم ، أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي ، أو حرّم حلالا كالبيع والنكاح ، أو يقول عن نبينـا صلى الله عليـه والـه وسلم كان أسود اللـون ، أو ليس بقريشي ، وكل من أنكر صفـة كانت ثابتة له فقـد كفر ، أو قـال يـأتي نبي بعـده فقـد كفر أو قـال لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره ، أو قال النبوة مكتسبـة ، أو يصل إليها بصفاء القلب ، أو الولي أفضل من النبي ، أو أنـه يوحي اليـه ، وان لم يدّع النبوة ، أو يدخل الجنة قبل موتـه ، أو يعيب سيـدنـا محمـد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومثله غيره من الأنبياء وكذلـك الملائكـة ، أو يلعنـه ، أو يسبه ، أو يستخف أو يستهزيء به ، أو بشيء من أفعالـه كلحس الأصـابع أو يلحق به نقصا في نفسه ، أو نسبه ، أو دينـه ، أو فعلـه أو يعرّض بـه ، أو يشبهه بشيء على طريق الإزدراء ، أو التصغير لشأنـه ، أو الغض منـه ، أو تمنى لـه مضرة أو نسب اليـه مـا لا يليـق بمنصبـه على طريـق الـذم ، أو عبث في جبهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور ، أو مـا جرى لـه من البلاء والمحنـة عليـه ، أو بعوارض البشريـة الجـائـزة أو المعهودة لديه ، فيكفر بواحدة مما ذكر إجماعا ، ولا تقبل توبتـه عنـد أكثر العلماء ، وقد قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه من قال له عند صـاحبكم ، وعدّ هذه الكلمة تنقيصا له صلى الله عليه وآله وسلم ...

أو يرضى بالكفر لكافر أو يقول كافر لمسلم ، لقّني كلمـة الاسلام ويكون المسلم خطيبا فيؤخر ويقول حتى أفرغ من الخطبة ، أو يقول لمسلم يـا كافر بـلا تـأويـل لأنـه سمى الإسـلام كفرا ، أو يسخر بـأمر من أوامر الله ، أو نهيـه ، أو وعـده ووعيـده ، كأن يقول لو أمرني بكـلام لم أفعلـه ، أو جعـل القبلة ها هنا ما صليت اليها ، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفـافـا أو عنادا ، أو لو أخذني بترك الصلاة مع ما بي من الشـدة أو المرض ظلمني ، أو شهد ملك أو نبي ما صدقته أو إن كان ما قاله النبي صدقا نجونـا فقـد كفر لأن فيه نقصا لمرتبة النبوة ، أو قيل قلّم أظافرك فانه سنـة قـال لا أفعل ، أو قـال لا حول ولا قوة إلا بـالله لا تغني من جوع ومثلهـا في ذلـك سـائر الأذكار ، أو قال المؤذن يكذب ، أو صوته كالجرس ، وأراه تشبيهـه لنـاقوس

النصارى ، أو سمى الله على محرم كالخمر استهزاء ، أو (قال) لا أخاف القيامة استهزاء ، أو نسب إلى الله أو شبه العلماء والوعاظ والمعلمين على هيئة مزرية بحضور جماعة حتى يضحكوا ، أو قال إن شئت توفني مسلما أو كافرا ، أو نسب إلى زور في التحريم ، أو قال اليهود خير من المسلمين ، أو قال استخفافا شبعت من القرآن ، أو الصلاة ، أو الذكر أو نحو ذلك ، أو قال سماع الأغاني من الدين ، أو أنه يؤثر في القلب أكثر من القرآن إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال التي تخالف الله ورسوله سواء كان عنادا أو استهزاء فإن صاحبها يخرج عن الاسلام وتسمى هذه الأقوال ردة ، ومعنى الردة الرجوع عن الإسلام كما جاء في كتاب الله عز وجل في (سورة البقرة) : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

ومن أراد الاستيفاء في هذا الباب ، فليرجع الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما استنبطه العلماء المجتهدون العاملون في ذلك ...

مقـام المـراقبـــة

مقـام المراقبـة وهو مقـام شريف قـال الله عـز وجـل : ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ هذا المقام أصله علم وحال ثم يثمر حالين : أمـا العلم : فهو معرفة العبد أنّ الله مطلع عليه ، ناظر إليـه يرى جميع أعمـالـه ، ويعلم كل ما يخطر على باله . وأمـا الحـال فهو ملازمـة هـذا العلم للقلب بحيث يغلب عليه ، ولا يغفل عنه ، ولا يكفي العلم دون هذا الحـال ، فـإذا حصل العلم والحـال كانت ثمرتها عنـد أصحـاب اليمين : الحيـاء من الله ، وهـو يـوجب بالضرورة ترك المعاصي ، والجد في الطاعات ، وكانت ثمرتهـا عنـد المقربين : الشهادة التي توجب التعظيم والاجلال لذى الجلال ، الى هاتين الثمرتين أشار رسـول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم بقـولـه : « **الإحسـان أن تعبـد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » (1) فقوله أن تعبـد الله كأنـك تراه إشـارة إلى الثمرة الثـانيـة ، وهي المراقبـة الموجبـة للتعظيم . كمن يشاهد ملكا عظيما فإنه يعظمه بـالضرورة ، وقولـه فـإن لم تكن تراه فـإنـه يراك إشارة إلى الثمرة الأولى ، ومعناه ان لم تكن من أهل التقوى والعفـاف بحيث تراقب الله في كل عمـل هـو لـك ، فـأعلم أنـه يراك ، فكن من أهـل الحياء الذي هو مقام أصحـاب اليمين ، فلمـا فسر الإحسـان أول مرة بـالمقـام الأعلى : رأى أن كثيرا من النـاس قــد يعجـزون عليــه ، فنزل إلى المقــام الآخر ، واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتحقق فيها المشـارطـة والمرابطـة ، وتتأخر عنها المحاسبة والمعاقبة ، فأما المشارطة فهي اشتراط العبد على نفسـه بالتزام الطاعة وترك المعاصي ، وأما المرابطة ، فهي معاهدة العبد لربـه على ذلـك ، ثم بعـد المشـارطـة والمرابطـة ، أول الأمر تكون المراقبـة إلى آخره ، وبعد ذلك يحاسب العبد لنفسه على ما اشترطه وعـاهـد عليـه ، فـإن وجـد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله حمـد الله ، وان وجـد نفســه قـد حل عقـد المشارطة ، ونقض عهد المرابطة عاقب النفس عقابـا يزجرهـا عن العودة إلى

---

1) مسلم عن عمر ـ أحمد في مسنده والشيخان وابن ماجه عن ابي هريرة ـ صحيح ـ

مثل ذلك ، ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة ، وحافظ على المراقبة ، ثم اختبر بالمحاسبة ، فهكذا يكون حتى يلقى الله تعالى ...

التوكل : هو الاعتماد على الله . قال تعالى : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ التوكل على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها ، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها ، وهو من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما قوله إن الله يحب المتوكلين ، والآخر الضمان الذي في قوله : ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وقد يكون واجبا لقوله تعالى : وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، فجعله شرطا في الإيمان ، والظاهر قوله جل جلاله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فإن الأمر محمول على الوجوب .

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب : الأولى أن يعتمد العبد على ربه ، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له ، وقيامه بمصالحه ، والثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف سواها ، ولا يلجأ إلا اليها ، والثالثة : أن يكون مع ربه ، كالميت بين يدي الغاسل قد أسلم نفسه إليه بالكلية . فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية ، وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختبار بخلاف صاحب الثالثة ، وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخالص الذي في قوله عز وجل : ﴿ **والهكم إله واحد** ﴾ الواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى : أحدها أنه لا ثاني له ، فهو نفي للعدد ، والآخر أنه لا شريك له ، والثالث أنه لا يتبعض ، ولا ينقسم ، وقد فسّر المراد به هنا في قوله : لا إله إلا هو ...

واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات : الأولى توحيد عامة المسلمين ، وهو الذي يعصم النفس من الهلاك في الدنيا ، وينجي من الخلود في النار في الآخرة ، وهو نفي الشركاء ، والأنداد ، والصاحبة والأولاد ، والأشباه والأضداد ، الدرجة الثانية توحيد الخاصة ، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ، ويعلم يقينا أن الكون قائم بعلمه سائر بمشيئته واقع تحت رحمته ... وانما مقام الخاص في التوحيد يغني القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل ، وثمرة هذا العلم الإنقطاع الى الله والتوكل

عليه وحده ، وإطراح جميع الخلق في قبضة القهر ، ليس بيدهم شيء من الأمر ، الدرجة الثالثة ، ألا يرى في الوجود إلا الله وحده ، فيغيب النظر عن المخلوقات حتى كأنها عنده معدومة ، وهذه الذي تسميه الصوفية مقام الغناء بمعنى الغيبة عن الخلق ، حتى أنه قد يغنى عن نفسه ، وعن توحيده : أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله ، وهذه درجة مرفوضة لأنه لا يوجد ـ ولا يمكن أن يوجد ـ من هو أكثر توحيدا واعمق إيمانا وأشد اخلاصا لله من محمد ﷺ ومع ذلك لم يغب ولم يستغرق ! فإن قيل هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا ؟

فالجواب : أن الأسباب على ثلاثة أقسام : أحدها : سبب معلوم قطعا قد أجراه الله تعالى ، فهذا لا يجوز تركه كالأكل لدفع الجوع ، واللباس لدفع البرد . والثاني سبب مظنون كالتجارة وطلب المعاش وشبه ذلك ، فهذا لا يقدم فعله في التوكل ، لأن التوكل من أعمال القلب لا من أعمال البدن ويجوز تركه لمن قوى عليه . والثالث سبب موهوم بعيد ، فهذا يقدم فعله في التوكل ثم ان فوق التوكل التفويض وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية ، فإن التوكل له مراد واختيار ، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه ، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار ، بل أسند المراد والأختيار إلى الله تعالى ، فهو أكمل أدبا مع الله تعالى ...

التوبة : قال تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا** ﴾ التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف بدليل الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وفرائضها ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذا الجلال ، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان ، والعزم ألا يعود إليها أبدا ، ومهما قضى عليه بالعودة أحدث عزما مجددا . وآدابها ثلاثة : الإعتراف بالذنب مقرونا بالإنكسار ، والإكثار من التضرع والإستغفار ، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات ، ومراتبها سبع : فتوبة الكفار من الكفر ، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر ، وتوبة العدول من الصغائر ، وتوبة العابدين من الفترات ، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات ،

وتوبة أهل الورع من الشبهات ، وتوبة أهل المراقبة (1) من الغفلات ، والبواعث على التوبة سبعة : خوف العقاب ، ورجاء الثواب ، والخجل من الحساب ، ومحبة المحبوب ، ومراقبة الرقيب القريب ، وتعظيم بالمقام ، وشكر الأنعام ...

الخوف من الله والرجاء : جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفا راجيا كما قال تعالى : ﴿ **يرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ فإن موجب موجب الخوف معرفة سطوة الله ، وشدة عقابه ، وموجب الرجاء معرفة رحمة الله ، وعظيم ثوابه قال تعالى : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم** ﴾ ﴿ **وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ ومن عرف فضل الله رجاه ، ومن عرف عذابه خافه ، ولذلك جاء في الحديث : « **لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا** » (2) إلا أنه يستحب أن يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات ، وترك السيئات ، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى** (3) » واعلم أن الخوف على ثلاث درجات : الأولى أن يكون ضعيفا يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ، ولا في الظاهر ، فوجود هذا الخوف كالعدم ، والثانية أن يكون قويا ، فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على الاستقامة ، الثالثة أن يشتد حتى يبلغ الى القنوط واليأس ، وهذا لا يجوز ، وخير الأمور أوسطها ، والناس في الخوف على ثلاث درجات : فخوف العامة من الذنوب ، وخوف الخاصة من الخاتمة ، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ، فإن الخاتمة مبنية عليها ، والرجاء على ثلاث مقامات : الأولى رجاء رحمة

1) المؤمن لا يغفل عن عبادة الله لأن أعماله كلها مرتبطة بالعبادة ، فعمله بيديه لتحصيل الرزق الحلال لايقل درجة عن صلاته وزكاته ولذلك فهذه التقسيمات مبتدعة من متأخري الصوفية .

2) قال ابن تيمية ـ هذا مأثور عن بعض السلف وهو عام صحيح .

3) رواه : أحمد في مسنده ـ مسلم ـ وأبو داود ـ وابن ماجه ـ عن جابر وهو صحيح

الله مع التسبب فيها بفعل طاعة أو ترك معصية ، فهذا هو الرجاء المحمود ، والثانية الرجاء مع التفريط والعصيان فهذا غرور .. والثالثة أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن ، فهذا حرام ، والناس في الرجاء على ثلاث مقامات : فمقام العامة رجاء ثواب الله ، ومقام الخاصة رجاء رضوان الله ، ومقام خاصة الخاصة رجاء لقاء الله حبا فيه وشوقا إليه « ان رحمة الله قريب من المحسنين »

ذكر الله واطمئنان القلوب به

﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ قرآن كريم .

الذكر هو ما اشتمل على تلاوة القرآن - وهو أفضلها - وذكر اسم الجلالة ، وتسبيح وتقديس واستغفار ، ودعاء وصلاة على النبي ﷺ ، ذكر الله هو تذكره في استحضار جلاله ، وعظمته ، وقدرته وكل ما له - سبحانه من صفات الجلال والكمال ... فإذا ذكر الإنسان ربه واستحضر جلاله وعظمته كان من هذا الذكر في ظل ظليل من جلال الله وعظمته ، وفي حماه ورعايته ، وفي عصمته : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم** ﴾ (سورة آل عمران 101) .

فالذي يذكر الله وهو موقن به طامع في رحمته معتصم بجلاله محتم بحماه لائذ بفضله عائذ به من هموم الدنيا ، ومن ظلم الظالمين وبغي الباغين يكون قريبا منه سامعا دعاءه مستجيبا له قال تعالى : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ وقال : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ (سورة البقرة 186) . وليس ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ، هذا الذكر الذي ترده الألسنة ترديدا آليّا ، دون أن يكون نابعا من القلب ، دافئا بحرارة الإيمان ، منطلقا بقوة اليقين ، فمثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتا مرددة ، أشبه بالجثث الهامدة ، لا روح فيه ، ولا معقول له ومن هنا تكون آفته فلا يطمئن به قلب ، ولا ينشرح له صدر ...

أما الذكر الذي يقول فيه سبحانه وتعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ ثم يؤكد بقوله : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ فهو الذكر الذي ينبعُ عن إيمان ، فتهز له المشاعر تثلج به الصدور ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الإيمان على الذكر حتى يكون للذكر أصل يرجع اليه ، ومنطلق ينطلق منه وهو الإيمان ، ولا يكون الذكر لله

إلا إذا كان مشتملا على صفات الكمال والجلال لله عز وجل ، فذلك هو الذي يفيض على القلب خشية ، وهو الذي يستنير مشاعر الولاء لله ، والاخبات له ، فتقشعر الجلود وتدمع العيون ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ (سورة الأنفال آية 2) .

وقوله سبحانه : ﴿ **وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ (سورة الحج 34-35) ، وقوله جل شأنه : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ (سورة الزمر آية 23) .

فإذا ذكر المؤمن ربه واستولت عليه تلك المشاعر قرب من الله ودنا من مواقع رحمته ، وأحس ببرد السكينة يغمر قلبه ، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهب عليه معطرة الأنفاس زاكية الأرواح .

فإذا ذكر الإنسان ربه هذا الذكر الذي يدنيه من ربه ، والذي يشهد منه ما يشهده من جلاله وعظمته وقدرته ارتفع عن هذا العالم الترابي واصتصغر كل شيء فيه ، فلا يأسى على فائت ، ولا يطير فرحا ، ولا يأشر بطرا ، بما يقع ليديه من حطام هذه الدنيا ، وهذا هو الإطمئنان الذي يسكن به القلب وتقر العين حيث لا حزن ولا جزع ولا خوف !!!!

إن الداء الذي يغتال أمن الناس ، ويقضّ مضاجعهم هو ما يدخل عليهم من هموم الدنيا ، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها ...

وانه لا دواء لهذا الداء إلا باللجوء الى الله والفزع اليه . وذلك بذكره وذكر سلطانه المبسوط على هذا الوجود ، وأمره القائم على كل موجود ألا له الخلق والأمر .... تبارك الله رب العالمين .

وفي قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ .

وفي التعبير عن الإيمان بالفعل الماضي (آمنوا) وعن الإطمئنان بفعل

المستقبل (تطمئن) في هذا إشارة الى أن الإيمان حال لا يحول عنها المؤمن وانه لا يوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمنا ، بخلاف الإطمئنان فإنه غير ملازم للمؤمن في كل حال ، وإنما الإطمئنان عند ذكر الله .

وكلما ذكر المؤمن ربه يطمئن قلبه إذا كان حاضر القلب .

يحسن للذاكر أو الداعي أن يذكر اسم الله للحالة التي يناسبها ذلك الاسم . مثلا : إن كان الإنسان في مواجهة مرض في نفسه ، أو نفس من يحب ذكر الله الرحمن الرحيم ، وذكر قدرته على كشف هذا الضر . وإذا كان في يد سلطان جائر ، أو عدو متسلط قاهر ذكر الله القوي القاهر الجبار المنتقم فرآه ذلك مآل هذا السلطان ، وصغر شأن هذا العدو .

وهكذا يذكر الذاكر ربه فيشعر في قلبه بقوة الله وقدرته على حمايته من كل بلاء فيطمئن قلبه وتسكن جوارحه . وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ (سورة الأعراف 180) . فالإسم الذي تدعو الله به تجد له في نفسك أثراً يبعد عنك هما أو حزنا أو خوفا أو ضعفا أو انكسارا فتشملك الطمأنينة الكاملة فلا ترى الناس من حولك إلا سائلين فضله ورضوانه .

قال الله عز وجل : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ (سورة البقرة 152) ، فالله سبحانه لا ينسى حتى يذكر فيذكر ، بل هو يذكرنا دائما ذكرناه أو لم نذكره .

ولكن المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه وجدناه حاضرا في قلوبنا وعقولنا ولكن هذا الحضور لا نحس به ولا نتأثر له . فإذا ذكر المؤمن ربه وجده تجاهه ذكر ربه وأشرف عليه بنوره السني البهي .

وفي الحديث الشريف القدسي : « **من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** » (1) .

1) رواه أحمد في مسنده ـ والشيخان ـ الترمذي ـ ابن ماجه ـ عن أبي هريرة ـ وهو صحيح ـ أخرجه الترمذي بصيغة المفرد وردّه إلى صيغة الجمع .

فذكر الله وامتلاء القلب به يفيض على الذاكر نورا من جلال الله وبهائه فإذا هو في حمى عزيز لا ينام ، وفي ضمان وثيق من أن يهون أو يذل لغير الله الواحد القهار .

وأسمى الذكر هو ذكر العارفين بالله معرفة يطلعون منها على ما يملأ قلوبهم جلالا وخشية لله حيث يشهدون من كمالات الله ما لا يشهده إلا المقربون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ .

وهذا الود إنما يناله أولئك الذين يذكرون الله ، فيذكرهم الله ، ويعرفونه فيعرفهم : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ . فهذا الذكر هو الذي يضيء الطريق للسالك الى ربه فيرى على جانبيه نور الخالق وجلاله وعظمته ، فيخشع قلبه وتسكن وساوسه .

الرجاء الذي يقوم على غير إيمان ، ويستند إلى غير طاعة ، فهو مكر الله وخداع للنفس ، وعدوان على سنن الحياة التي أقام الله عباده عليها فجعل لكل عامل عمله ولكل غارس ثمرة غرسه .

وينبغي أن يحسن العبد الظن بربه ، بل وأن يبالغ ما شاء في هذا الظن ولكن يشترط أن يكون ذلك الظن نابعا من الإيمان بالله .

وتأمل كيف قال الله تعالى في آية الذكر : ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة** ﴾ وفي آية الدعاء ﴿ **أدعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ .

فذكر التضرع فيهما معا ، وهو التذلل والتمسكن والانكسار ، وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر الى الخوف ، فان الذكر يستلزم المحبة ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته والمحبة مالم تقترن بالخوف ، فانها لا تنفع صاحبها ، بل تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط . وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات ...

والمقصود من العبادات انما هو عبادة القلب ، واقباله على الله ومحبته لـه وتأليهه له ، فإذا حصل المقصود ، فالاشتغال بالوسيلة باطل ....

وبعد فإن ذكر الله بالقلب واللســان هو خير زاد يتزود بـه الإنســان في رحلة الحياة وخير رفيق يؤنسه في طريقـه الموحش ، والله سبحـانـه وتعـالى يقول : ﴿ **فمن اتبع هـداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ صدق الله مولانا العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم وانصرهم على عدوك وعدوهم واهدهم سبل السلام ، واخرجهم من الظلمات الى النور ، وجنبهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لهم في أسماعهم وأبصارهم ما أبقيتهم ، اللهم اجعلهم شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها عليهم يا رب العالمين .

اللهم انصر كتابك ودينك وعبادك المؤمنين واظهر الهدى ودين الحق الذي بعثت به نبينا محمدا ﷺ على الدين كله ، اللهم عذّب الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيلك ويبدّلون دينك ويعادون المؤمنين ، اللهم خالف كلمتهم ، وشتّت بين قلوبهم ، واجعل تدميرهم في تدبيرهم وأدر عليهم دائرة السوء وانزل بهم بأسك الذي لا يردُ على القوم المجرمين اللهم مجرى السحاب ومنزّل الكتاب وهازم الأحزاب أهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم ، ربنا أعنا ولا تعن علينا وانصرنا ولا تنصر علينا وامكر لنا ولا تمكر علينا واهدنا ويسّر الهدى لنا وانصرنا على من بغى علينا ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاعين مخبتين أواهين منيبين ربنا تقبّل توبتنا واغسل حوبتنا وثبّت حجتنا واهدى قلوبنا وسدّد ألسنتنا واسلل سخائم صدورنا » صدق رسول الله رواه الترمذي .

أقدم هذا الكتاب الى القراء الأفاضل راجين من الله أن يكون نافعا للمسلمين ، واني لا أدّعي الكمال ، وإنما الكمال لا يكون إلا لله ، فالمرء ضعيف بنفسه قويّ بإخوانه ، فمن وصل بيده هذا الكتاب وقرأه ووجد فيه خطأ أو نقصا أو ملاحظة فليقيّدها وليبعث بها اليّ إن شاء الله نجعلها في الطبعة الثانية وإني لا أنسى الطلبة الذين أعانوني على تصحيح هذا الكتاب واخراج آياته وترقيمها وضربه على الراقنة واخراج أحاديثه وانسابها الى مصادرها فأشكرهم على ذلك شكرا جزيلا .

المصـــــادر

- تفسير القرآن العظيم . . . . عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير
- تفسير القيم . . . . لابن القيم الجوزية
- تفسير الطبري . . . . لابن جرير الطبري
- التفسير القرآني للقرآن . . . . عبد الكريم الخطيب
- تفسير كتاب التسهيل لعلوم التنزيل . للامام الحافظ أبي القاسم محمد بن أحمد لابن جزى الكلبي الغرناطي .
- أحكام المرتد في الشريعة الاسلامية . . . لنعمان عبد الرزاق السامارائي
- تفسير المنار . . . . للشيخ محمد رشيد رضا
- الفتاوي الكبرى . . . . لابن تيمية ، شيخ الاسلام بن أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم .
- التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول ﷺ . . . . . للشيخ منصور علي ناصف
- النبي محمد انسان الإنسانية ونبي الأنبياء . . . . عبد الكريم الخطيب .
- الله ذاتا وموضوعا . . . . عبد الكريم الخطيب
- العقيدة الطحاوية . . . . للامام الطحاوي
- البحوث الاسلامية للمؤتمر الرابع (مصر) . . . . المؤتمر الرابع
- الزواجر على اقتراف الكبائر . . . . ابن العباس أحمد بن محمد علي ابن حجر المكي الهيثم
- الجانب الالهي من التفكير الاسلامي . . . . د/محمد البهي
- العقائد الإسلامية . . . . سيد سابق
- الكواشف الحلية من معاني الواسطية . . . . . . عبد العزيز محمد السلمان
- حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري . . . . المسماة بتحفة المريد على جوهرة التوحيد .
- الدستور القرآني في شؤون الحياة . . . . محمد عزة دروزة
- القضاء والقدر . . . . أبو الوفاء محمد درويش
- رسالة التوحيد . . . . الشيخ محمد عبده

الفهـــرســـت

بسم الله الرحمن الرحيم

وما لكم لا تؤمنون بالله
والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم
وقد أخذ ميثاقكم
إن كنتم مؤمنين

صدق الله العظيم

[الحديد: ٨]